سراج منير

ربيع الشتات

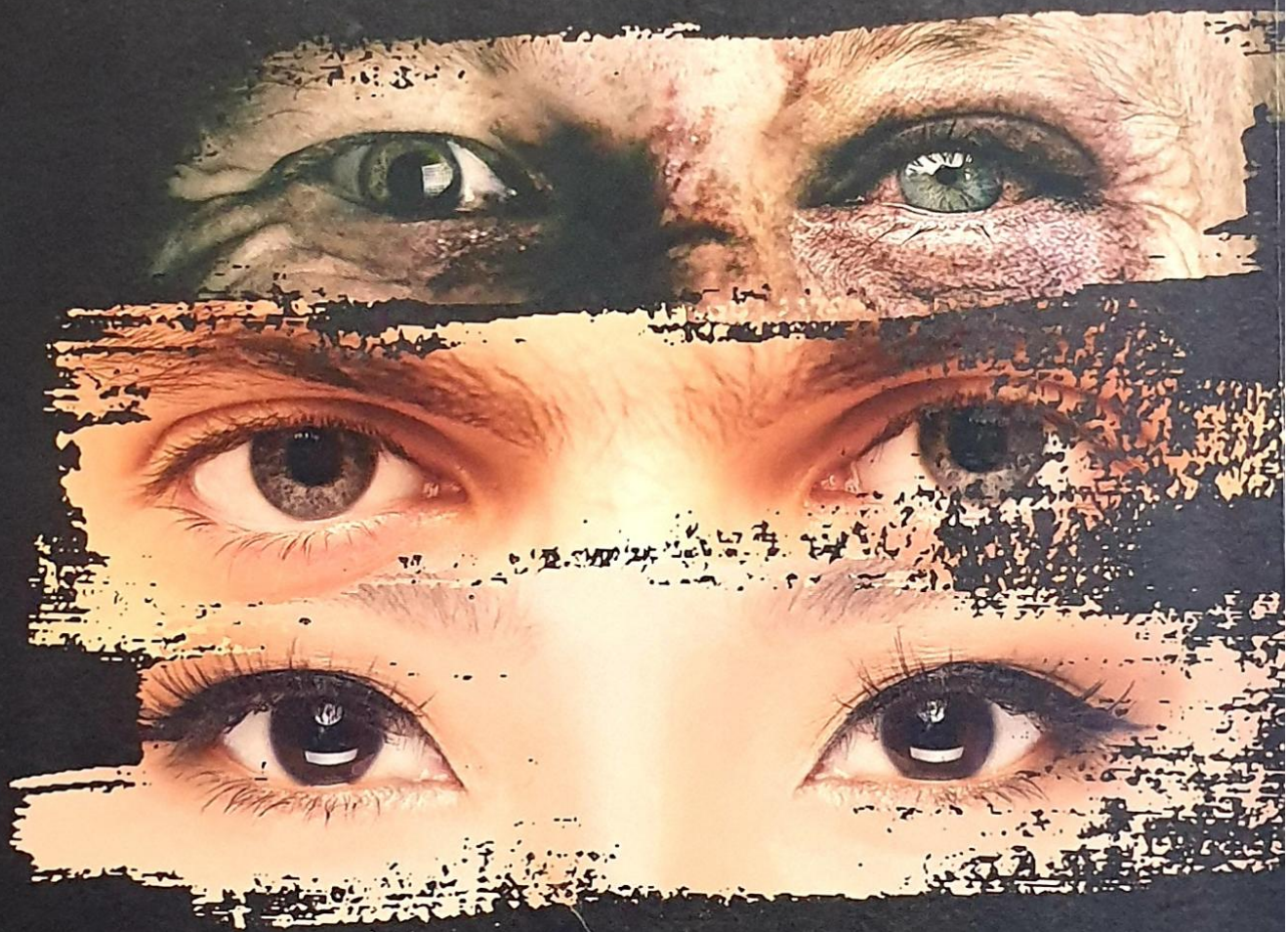

رواية

ربيع الشتات

*

ربيع الشتات
رواية
الطبعة الأولى: ٢٠١٩
رقم الإيداع: ١٥٩٩٦ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي: ١-٠٤٧-٨٠٣-٩٧٧-٩٧٨
الغلاف: حاتم سليمان
جميع الحقوق محفوظة
الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ ـ دجلة ـ المعادي ـ القاهرة.
تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ ـ ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذنٍ خطّي من الناشر.

Arabic Language Copyrights ® 2019 Al Kotob Khan for Publishing & Distribution. The Moral Rights of the author have been asserted. All rights reserved.

إهداء

إلى كل قطرة دم سالت من أجل حلم نبيل حتى إن لم يتحقق

إليك وفيك وحدك ما أغني

ولو لم تسمعي معهم غنائي

سامي جبريل

١

كان هشام يستحث ساقيه لإكمال الأمتار الأخيرة من رحلة الكيلومترات الخمسة التي مشاها من مقر إقامته في عمان حتى شركة الصرافة التي يتوقع أن يتسلم منها تحويلاً نقديًا يفك به أزمته الخانقة. تصاعدت حدة التقلصات فيهما وهو يقترب من الشركة التي تراءت له لافتتها على امتداد بصره.

ضغط فكيه بشدة وهو يذكر نفسه بأنه قد اتخذ القرار الصائب حين قرر أن يقطع المسافة مشيًا، فهو الآن لا يمتلك رفاهية التضحية بأجرة الطريق.

- اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.

تمتم بهذا الدعاء وهو يتذكر فيما مضى حين كان يقوله في ختام صلاته تأدية للسنة فقط وهو لا يعنيه حقًا. أيامها كان يعيش في جنته الخاصة في بنغازي ولم يكن يخطر بباله وقتها أنه سيرى اليوم الذي سيصير فيه ذلك الدعاء ابتهالاً يلهج به لسانه ليل نهار.

دخل شركة الصرافة وطالعه الموظف ذاته ذو السحنة المقلوبة الشبيهة بثوب خرق ودون أن يسأل عاجله الرجل قائلاً:

- ليس بعد.

- كيف ذلك؟

- ليس ذنبي، يمكنك الشكوى في المقر الرئيسي.

ارتفع صوته على الموظف وصار أكثر حدة وهو يؤكد أن السبب هو إهماله. تصاعدت حدة الجدال بينهما حتى تدخل المتواجدون في المكان لتهدئته وأخذه موظف آخر يبدو أكثر تلطفًا من زميله وأجلسه على أحد كراسي الانتظار وجلس إلى جواره شارحًا له بهدوء أن زميله لا يقصد التعسف معه ثم قال له:

- اتصل بصديقك الذي أرسل الحوالة مرة أخرى.

نظر إليه هشام وهو لا يدري بماذا يرد؛ فهاتفه لم يعد فيه رصيد للمكالمات ولا للاتصال بالإنترنت. قام خارجًا وهو يجاهد في عنف ليمنع الدموع المتألقة في عينيه من الانسياب ثم توقف سائلاً:

- هل يمكنني استخدام الحمام؟

- ستجد واحدًا فى المقهى المجاور.

لم يكن يريد قضاء حاجته بقدر ما أراد الاختلاء بنفسه وقد أحس أنه على وشك الانفجار وأنه سيقوم بقتل أحدهم أو سينهمر بالبكاء،

أغلق الباب بإحكام ووقف مستندًا براحتيه على الحائط مهيئًا نفسه للبكاء لكن دموعه أبت أن تنزل.

التجأت روحه في تلك اللحظة إلى ملاذها في حضن زهراء وفي براح بنغازي، اختلطت في أنفه رائحة أنفاس الأولى بأنسام الثانية، وتراءت أمام عينيه ابتسامة حبيبته المريحة معانقة زرقة البحر الصافية في منتصف النهار. بضعتان من قلبه قد اقتطعتا، الأولى بموت زهراء والثانية بأسر بنغازي في أتون حرب عبثية.

توقف تدفق أفكاره عند هذا الحد بعد أن قاطعته طرقات على الباب من خمسيني متعجل لإفراغ مثانته، خرج من الحمام وجلس في زاوية من المقهى، أشار للنادل وقبل أن يطلب مشروبًا طلب منه رمز الدخول للإنترنت الخاص بهم فعاجله الفتى بابتسامة سمجة مؤكدًا أنه لا بد أن يطلب مشروبه أولًا. استسلم للأمر الواقع فهو يريد أن يرسل رسالة إلى صديقه الذي حول إليه النقود ليحل تلك المشكلة.

- تصرف يا حسن اتصل على الموظف في الشركة عندك قل له أن يتصل بالشركة هنا.

- لقد عدت إلى موظف شركة الصرافة وأخبرني أنه أعاد إرسال الحوالة بعد تعديل البيانات.

- لم يحدث، عنِّف ذلك الحقير واطلب منه أن يكلمهم ثانية.

- حسنًا اهدأ.

- كيف أهدأ وقد مشيت خمسة كيلومترات وسأعود مثلها مشيًا خالي الوفاض لأمي وأختي. تصرف يا صديقي أنت لا تعلم الجحيم الذي أعيش فيه هنا.

أنهى محادثته وتناول رشفتين من كوب الشاي وتشاكس مع النادل متهمًا إياه باللصوصية بعد أن طلب ثمنًا مبالغًا فيه لكوب الشاي ولم يعطه إلا نصف ما طلب فقط.

"حسن" صديقه المصريّ الذي درس معه العربية وعلومها في دار العلوم كان أقرب أصدقائه إليه ولم ينقطع اتصالهما بعد انتهاء الدراسة. عمل "هشام" بتدريس اللغة العربية في بنغازي، إضافة إلى نشاطه الأدبيّ والصحفيّ هناك، أما "حسن" فذهب إلى العمل بشرم الشيخ في إحدى الشركات السياحية، وبعد أن تدهورت أحوال السياحة ويئس من عمل بديل سافر إلى الكويت.

كلا الشابين كان متحمسًا للثورة في بلده، لكن الرياح أتت في البلدين بما لا تشتهي السفن، غير أن الريح التي هبت على ليبيا كانت سمومًا وكانت أعتى من التي هبت على جارتها الشرقية. ريح أخذت من "هشام" حب عمره "زهراء" التي ماتت في بيتهما بعد أن ضربته قذيفة عشوائية. بعد تلك الحادثة انقلبت حياته وانتهى به المطاف إلى ترك ليبيا والسفر إلى الأردن.

بحث عن عمل في عمان دون جدوى، وبعد ثلاثة أشهر وحين نفدت خياراته لم يجد غير صديقه القديم ليقرضه ولم يكن ليلومه لو أنه

اعتذر بضيق ذات اليد. اقترح "حسن" عليه أيضًا أن يبحث له عن عمل في الكويت، عمل متواضع لكنه سيكون بداية تتيح له وضع قدميه في هذا البلد وتتيح له البحث عن عمل أفضل.

بعد ساعتين استطاع أخيرًا الحصول على الحوالة لتي أرسلها إليه صديقه، غير مصدق أنه يكاد يطير فرحًا بمبلغ صغير كهذا، وعندها رن هاتفه وكان حسن على الطرف الآخر يطمئن عليه، شكره كثيرًا فرد عليه حسن:

- لا شكر على واجب، استطعت الحصول على تأشيرة لك. أرسل إلي صورة جواز سفرك.
- لا أعرف ماذا أقول لك يا صديقي.
- لا تقل شيئًا. الوظيفة هي فرد أمن لكنك يمكن أن تعمل بالتدريس خارج الدوام.
- لا يهم، أي عمل سيكون مقبولاً حاليًا.

٢

جلس "حسن" في سيارته الأجرة في انتظار زبونة له بعد أن أنهى محادثته مع هشام. كان سعيدًا بنجاحه في الحصول على تأشيرة عمل له. كانت بدايته في هذا البلد بالطريقة نفسها. عمل كفرد أمن في إحدى البنايات لكنه استطاع بسرعة أن يغير مهنته إلى سائق لسيارة أجرة.

مهنة في نظره ليست أفضل كثيرًا من سابقتها بالنسبة لشاب جامعيَ لكن دخلها أكبر. الميزة الأخرى فيها أنه صار كما يقول "رئيس جمهورية نفسه"، فهو يستأجر السيارة من صاحب المكتب ويعمل صوريًا تحت كفالته لكنه مسؤول عن نفسه تمامًا.

فتح باب السيارة الخلفي وجلست جانيس زبونته الفلبينية التي تعمل بأحد صالونات التجميل. فتاة رقيقة الملامح تختلف تقاسيم وجهها عن السحنة المعتادة للفلبينيات. عيناها أوسع قليلًا وخدها الآسيوي العريض أكثر امتلاءً وشعرها الأسود الفاحم أكثر كثافة من الأخريات. منذ أسبوعين تعرف إليها وصارت تطلبه كلما كانت ذاهبة لتقديم خدمة منزلية.

من أول مرة لاحظت إعجابه بها وسعيه لجر أطراف الحديث معها، واستغلت هي ذلك فصارت تطلبه وتعطيه أجرًا أقل وهو لا يبدي تبرمًا. من ناحيته كان يرى أنها هدف مشروع لتمضية وقت يشبع جوعه للنساء في هذه الفترة من حياته.

أخذ يسترق النظر إليها في مرآة السيارة فابتسمت وهي تقول:

- انظر للطريق أمامك وكف عن التحديق بالمرآة.
- ماذا أفعل، أريد أن أمتع عيني قليلًا.
- تمتع عينيك بماذا؟
- بمنظر السيارة خلفي.

ضحكت بصوت عال وهي تقول: "حقًا؟ أنت مجنون" ثم استدركت قائلة:

- لكنك مرح.

أسعده إطراؤها وأحس أنه بدأ يقترب منها. رن هاتفه بنغمة رسالة كانت من عبد العزيز زميل المهنة السوريّ يحذر من لجنة مروريّة بشارع القاهرة، وهي طريقة ابتكرها "حسن" بعمل مجموعة على الواتس آب للسائقين للتحذير من أماكن اللجان التي تتعسف معهم كثيرًا بلا مبرر. اتسعت ابتسامته حين رأى أن صاحب الرسالة هو عبد العزيز الذي كان مسافرًا إلى سوريا ولم يكن يعرف بعودته بعد.

- حمدًا لله على سلامتك يا نذل. ظننت أنهم أراحونا منك.

- لا تقلق، وصلت اليوم ونزلت للعمل مباشرة، فلم يتسن لي مهاتفتك.
- لا يهمك. طمئني هل كل شيء تمام؟
- الحمد لله. سنتلاقى غدًا بالمقهى وسأحكي كل شيء بالتفصيل.

أغلق الهاتف، وكان عندها قد وصل إلى وجهة زبونته التي مدت له يدها بالأجرة. نظر إلى المبلغ ووجد أنها قد أعطته ثلاثة دنانير فقط. احمر وجهه هذه المرة؛ فقد كان يقبل منها بالفعل أربعة دنانير، وهو أقل من الأجرة المعتادة. نظر إليها بحدة وطلب منها دينارين إضافيين. لاحظت غضبه، فأضافت دينارًا، لكنه أصر أن تزيد اثنين.

- أوافق أن آخذ منك أقل لأنك امرأة وحيدة وكلنا في هذا البلد نكسب الكاد، لكني لا أقبل أن تتذاكي عليَ.

صمتت وقد ألجمتها تلك الصورة التي لم ترها منه من قبل، فمدت يدها بالدينار الثاني.

- احتفظي به. أردت فقط وضع النقاط فوق الأحرف.

لم ترد، وتركت الدينار على الكرسيّ المجاور، ونزلت من السيارة غاضبة. أشاح بوجهه عنها وانطلق بالسيارة يتمتم أن النساء يمتلكن العقليّة نفسها حتى لو كنّ من مجرة أخرى.

وصل إلى شقته بعد يوم شاق. لم تكن شقة بقدر ما كانت مجمعًا سكنيًا يستوعب أكثر من اثني عشر فردًا في أربع غرف. يعتبر نفسه

محظوظًا لأنه يقيم وحده في غرفة مستقلة. كانت غرفة ضيقة لا تأخذ أكثر من سرير وخزانة ملابس صغيرة، لكنه يحب الخصوصية ويكره أن يسمع شخير أحد أو يسمع أحد شخيره.

رنت في قلبه النغمة اليومية المصحوبة باضطراب نبضه وألم في فم معدته، واستجاب لها كالعادة بفتح هاتفه والنظر إلى صورة "نهلة" ومراجعة المحادثات بينهما التي تلخصت دومًا في بداية منه ونهاية منها بعد محادثة قصيرة للغاية.

حين كانت هنا، كانت تجعل الغربة وطنًا، والهم فرحًا. كانت تعطي للحنين طعمًا لا يقل حلاوة عن اللقاء. كانت ابتسامة الضحى وسحر الأصيل. واليوم عادت إلى مصر وأخذت معها البراح وتركت له سجنًا يضيق على صدره كل يوم.

حين يدخل إنسان ما في حياة الواحد منا، حين نعتاد عليه وعلى إلقاء همومنا بين يديه، حين نعتاد على أنه هو العلاج الوحيد لأدراننا والمهدئ لكل الجنون الذي يحيطنا، حين يوجد ذلك الإنسان ثم يختفي يترك ذلك في القلب نقطة سوداء ترهق نبضه. هي منذ رحلت عنه لم تترك نقطة فقط بل سكبت زجاجة حبر بأكملها على جدران قلبه.

بأصابع متعجلة كتب "ألوو" وانتظر قليلًا بين اليأس والرجاء وهو يرجح أنها لن ترد عليه. تهللت أساريره كطفل حين رأى ردها ب "هاي"، وهي بالنسبة له كلمة مشجعة للغاية، فهي تختلف كثيرًا عن ردودها المعتادة مثل "نعم" و"خير" وعلامات الاستفهام أحيانًا. بدأ معها

في الحديث وكلما ردت عليه بجملة أو كتبت جملة من نفسها كانت تنزاح عن قلبه تلك البقعة تدريجيًا.

اسمها نهلة، وبالنسبة له كانت نهلة من السعادة لم تدم سوى ستة أشهر سافرت بعدها إلى مصر. فكر أن يستبقيها، لكنه ظن بغبائه أنه سيكون أكثر نبلًا لو تركها تبحث عن حياتها بعيدًا عن إحباطاته المتتالية، ولم يجرؤ أن يطلب يدها أو يطلب منها انتظار مستقبل يكتنفه الغموض وتملؤه الوساوس. نهلة التي كانت علاجًا لإدمانه المزمن للنساء وللعلاقات العابرة غيرت خريطة الحنين في قلبه، أزالت ذلك الإدمان وجعلته مدمنًا عليها هي فقط.

٣

وصل حسن إلى المقهى لينضم إلى أصدقائه الذين اعتاد أن يقضي معهم أمسياته. مقهى شعبيّ يشبه تمامًا مقاهي مصر وخاصة في كونه ضيقًا جدًا من الداخل وتنتشر طاولاته على مساحة واسعة خارج المقهى، وفي امتلاء الهواء المحيط بالمقهى برائحة دخان الأراجيل.

كانوا كلهم زملاء مهنة، سائقي أجرة، ثلاثة مصريين هو وسميح وخالد ورابعهم السوري عبد العزيز. اليوم كان هو محور جلستهم هو وابن عمه حماد الذي ينضم إليهم أحيانًا. كانا قد عادا للتو من زيارة لمسقط رأس عائلتهما في الرقة بسوريا. الشابان من مواليد الكويت ولم يعتادا على زيارة سوريا كثيرًا إلا أن تلك الزيارة تحديدًا كانت هامة للغاية.

عبد العزيز كان قد عقد على عروسه هناك وتركها عند أهلها على وعد بأن يأخذها للكويت خلال أشهر، ومر عامان والأحوال في سوريا تمر من سيء إلى أسوأ، ما اضطره في النهاية لأن يأخذ قرارًا بالذهاب،

ليأخذها ويسافر إلى تركيا ليتركها مع أبناء عمومتها هناك حتى يتسنى له أخذها معه إلى الكويت فيما بعد.

حماد ابن عمه ورفيق دربه اضطر إلى الذهاب معه، فقد كان بدوره له أخت عالقة هناك هي وطفلها، بعد أن قتل زوجها عندما انفجرت سيارة مفخخة في محطة القطارات وقت المواجهات بين داعش وفصائل الثورة السورية، والتي انتهت بتأسيس دولة داعش في الرقة. لكنه كان سيعود بأخته للكويت مباشرة.

كان عبد العزيز يحكي لهم عن تجربته مع حكم داعش في بلدته، وما حدث لهما في أحد الكمائن التي ينصبها المقاتلون ويسألون فيها الناس أسئلة في الدين أحيانًا.

- بالطبع حماد لم يستوعب أن السؤال به خدعة فتدلى فكه ببلاهة وأخذ يردد "الصلاة الإبراهيمية"، وعندها توجه الداعشي المبتسم بسؤاله نحوي قائلًا "هل تعرف أنت ما هي الصلاة الإبراهيمية"، أجبته أنا بالطبع فما كان منه إلا أن قال لي انصرف أنت يا أخي، وعندها اصفر وجهه وهو متأكد أنهم سيأخذونه لحتفه.

- طبيعي جدًا أن يقتلوه بسبب ذلك.

- لا بالعكس هم لهم تأويلات تيسر لهم قتل أي شخص، لكن الجهل ليس منها.

نظر إليه حماد غاضبًا من طريقته الساخرة أمام أصدقائه المصريين، وهو يؤكد أنه لم يكن جاهلًا بقدر ما خدعته طريقة السؤال، غير أن عبد العزيز تجاهله وأكمل الحكاية قائلاً:

- كانوا يريدون أخذه لمعسكر تعليميّ لتلقينه العلوم الشرعية، لكنني استحلفتهم بالله أن أقوم بتعليمه أنا، وكان هذا من حسن حظه فالطالب الغبي عندهم لايضرب بالعصا بل بالكلاشينكوف.

نهره حماد ثانية وهو يهدد بأنه سيترك الجلسة إن لم يكف، فتدخل حسن ملطفًا الجو وطالبًا من حماد أن يكمل هو الحكاية، وكأن حماد كان ينتظر الفرصة فانبرى يكمل ما حدث، وهو أنهم قالوا إنه سيقضي شهرين في التعلم معهم في أحد معسكراتهم، ولم تجد توسلاته نفعًا لكن عبد العزيز طلب اختصار المدة لثلاثة أسابيع وأنه سيدرس له بنفسه طوال اليوم، وقال لكبيرهم إنه درس العلوم الشرعية على أيدي علماء ذكر أسماءهم مما جعله يقبل وساطته بصدر رحب.

- لا أعرف كيف استطاع هذا الفاسق إقناعهم بأنه من أهل الشريعة.

ضحكوا جميعًا على طريقته في نطق الجملة الأخيرة فقال عبد العزيز موجهًا كلامه لحسن:

- بمناسبة الفسق ماذا فعلت مع زبونتك الفلبينية؟

- ما زالت تماطل لكنها لن تفلت.

- ورب الكعبة لن تنال منها شيئًا.

- وما الذي يجعلها مداومة على طلبي في كل مشوار تود الذهاب إليه.

- لأنها تدفع لك نصف الأجر، أراهنك على خمسين دينارًا أنها لن تصل إلى فراشك أبدًا.
- أي فراش يا غبي، وهل عندي فراش من الأصل.
- أقنعها أنت والفراش عندي.

هنا تدخل خالد -المصري الثاني- في الحوار، وهو شاب صعيدي، راجيًا من عبد العزيز أن يدله على ذلك الفراش، وهو يقسم إن حسن لا يمتلك إلا فما كبيرًا وإنه ككل أهل القاهرة يتكلمون أكثر مما يفعلون على حد قوله.

- سيكلفك عشرين دينارًا.

رد عليه عبد العزيز مما جعل حسن يرد مستهجنًا:

- عشرين دينارًا يا ابن اللصوص، لماذا؟
- هذا سعر الليلة في فندق يعطيك الغرفة بعشرين، وإذا أردت وفر لك فتاة أيضا لقاء عشرين دينارًا أخرى.

حك حسن رأسه وهو يقول إن السعر مبالغ فيه، وأنهم لا يكسبون ما يؤهلهم للتضحية بعشرين دينارًا لقضاء ساعتين أيا كانت المرأة التي سيقضيها معها، وهنا قاطعهم حماد قائلًا:

- كنتم تتكلمون عن داعش والآن عن كيفية الوصول إلى فراش مع امرأة، أنتم مجانين.

انقلبت سحنة حسن الذي رد عليه بضيق:

- وما الجنون في ذلك، دعنا ندفن همومنا وننسَ أحلامنا الضائعة.

قالها ثم انبرى يحكي عن أحلامه التي ماتت في بلده والتي سافر من أجل أن يعيدها إلى الحياة مرة أخرى، لكنه وجد نفسه يغوص في مستنقع من نوع آخر لا مجال فيه للأحلام. هرب من ذل في الوطن لذل خارج الوطن، غير أن الذل هنا مدفوع الأجر.

- يمكن أن تكون على حق، فأنا قد ولدت هنا ولم أعش في بلدي قط إلا زائرًا.

- هذا من حسن حظك.

قالها وذهنه يستحضر تاريخًا طويلًا من الإحباطات التي عاشها في بلده، وبسببها وافق أن يسافر إلى الكويت ليعمل فرد أمن براتب زهيد، ثم بالتدريج غير وضعه إلى أن صار سائق تاكسي في المساء ومدرسًا للغة العربية في أحد مراكز التدريس الخاصة، لكنه ومع المجهود الذي يبذله لا يجد نفسه يحقق شيئًا يوازي ما يريده أو ما يظنه من في مصر.

- نحن هنا أفضل حالًا بكل تأكيد.

قالها خالد فرد حسن:

- أتعرفون أن داعش والبعث والعسكر عندنا كلهم يشبهون صاحب الفندق الذي يحكي عنه عبد العزيز؟

- وما وجه الشبه بينهم يا فيلسوف الغبرة؟

قال عبد العزيز متهكمًا فرد عليه حسن:

- جميعهم يبيع الوهم.
- أنا أراهم جميعهم يبيعون الوهم فيما عدا صاحب الفندق فهو يبيع الحقيقة، فليس هناك شيء في هذه الدنيا أكثر واقعية من لمسة امرأة ترغب بك.
- عندك حق، لكنى أقصد الخدمة التي تتكلف الأربعين دينارًا فأمثالك لا يستخدمون غيرها.

قالها مازحًا فرد عليه عبد العزيز قائلًا:

- حسنًا، سنرى ما سيحدث للسانك الطويل هذا عندما ترميك تلك الفلبينية.

٤

جلست في التاكسي صامتة وهي تنظر إليه في المرآة الأمامية. انتظر حسن من جانيس أن تتكلم لتخبره بوجهتها لكنها ظلت تنظر في صمت كأنها تنتظر منه أن يبدأ بالسؤال. مرت هنيهة قبل أن يسألها عن وجهتها.

- أريدك أن تأخذني إلى أقرب مول وتشتري لي مشروبًا.

تهلل وجهه ثم رد عليها:

- فلنجلس عند الشاطئ أفضل.

قالها وهو داخله يقصد "أكثر توفيرًا". أدار سيارته باسمًا دون أن يسأل عن السبب في هذا التحول فمن الواضح أنه موعود بالنساء ذوات القرارات المتضاربة. نهلة مثلًا وبعد أن تبادلت معه أطراف الحديث ليلة كاملة عادت في اليوم التالي للردود المقتضبة والكلمات الشحيحة.

وصلا إلى الشاطئ، وبعد أن جلسا بدأت بالحديث، أخبرته أنها راجعت نفسها ووجدت أنها مخطئة، لكنها في الوقت نفسه معذورة لأنها أحست أنه يريد استغلالها فردت بالمثل.

- من قال إنني أريد استغلالك؟
- ماذا تريد إذن؟
- أن نكون أصدقاء.

نظرت إليه غير مقتنعة فأكمل قائلًا:

- أقصد أصدقاء مع بعض الميزات الإضافية.

ضحكت على كلمته ونعتته بالجنون كعادتها بعد كل مزحة تعجبها، ثم سألته أن يحدثها عن نفسه.

- أنا متزوج وزوجتي في مصر، ولا أعلم تحديدًا هل سيأتي يوم وتعيش معي هنا.

لا يعلم ما الذي دفعه ليقول لها ذلك، ربما لأنه لا يريد أن يدخل معها قصة حب زائفة تنتهي بالكثير من الدراما، هو فقط يريد تمضية وقت يعينه على غربته، أو ربما لأنه قد أوقف قلبه على نهلة ويتمنى أن تكون زوجته يومًا ما.

- أنا أيضا متزوجة، نوعًا ما.
- نوعًا ما؟
- نعم نحن منفصلان منذ سنوات، الارتباط الوحيد بيننا هو الأبناء. هو مسؤول عن العناية بهم وأنا أرسل الأموال.

ساد الصمت للحظة وهو يفكر في فتح مجال آخر للحديث ثم سألها:

- ما رأيك في المصريين؟

ابتسمت وطلبت منه أن يعفيها لأن إجابتها قد تضايقه لكنه أصر فقالت:

- مغرورون، متعجرفون، مخادعون وكل واحد منهم يظن نفسه عبقريًا ويعامل الآخرين كأنه مدير كبير.

- إذن لا بد أن تطلقي عليهم النار قبل أن يتكاثروا.

ضحكت وقالت إنها أول ما جاءت للكويت عملت كخادمة حتى تيسرت لها بعد ذلك فرصة عمل في أحد المحال الكبرى، وكان معها الكثير من زملائها المصريين كانوا يعطونها إحساسًا بأنهم يشعرون بالذكاء والتفوق وأن بقية الشعوب مجموعة من الحمقى ثم أضافت:

- هم شديدو العنصرية.

- عنصريون!! إن المشهور عندنا أن المصائب في الغربة لا يضعك فيها إلا المصريون.

أمنت على قوله، إلا أنها قالت إن هذا بسبب أنهم لا يرون من ينافسهم إلا بني جلدتهم.

- مفهومي عن العنصرية ليس فقط أنك تضطهد الآخرين وتنصر من هم من جنسك، بل أن تتصرف وكأنك أفضل من الآخرين لمجرد أنك تنتمي إلى بلد ما.

- كلام لا يخرج من فنية تجميل.
- كما أن ردك لا يقوله سائق تاكسي.

بهت من ردها المتحدي فقال بارتباك:

- أنا حاصل على شهادة جامعيّة لكن ظروفي...
- ومن أدراك بظروفي، هذه هي العنصرية التي أقصدها.
- حسنًا كنت أمزح.
- لا بأس.

حاول تغيير الموضوع فأشار لها إلى مبنى المستشفى الذي يقف خلفهم بعدة شوارع، سائلًا إياها عن اسم الشارع الذي يقع فيه المستشفى فردت عليه بأنها لا تعرف فقال:

- شارع بورسعيد وهو اسم مدينة مصرية كان لها تاريخ طويل في الحروب.

ردت بعدم اكتراث:

- جيد.
- عندنا في القاهرة شارع رئيسي له الاسم نفسه لكنه يمتد مسافة كبيرة جدا.

رن هاتفه بنغمة رسالة على الفيس بوك ففتحه بلهفة متوقعًا أنها من نهلة، لكنه ارتد عنه بخيبة أمل فقد كانت رسالة من أحد زملائه. لاحظت هي تغير وجهه فسألته عن السبب، أجابها بأن لا شيء. أخذ

يتحدث في مواضيع أخرى وبعد قليل قام مخبرًا إياها أنه سيذهب للمطار لإحضار صديق له. ركبت معه وعندما وصلت لمقر سكنها قالت له باسمة:

- أعتقد أنك لن تأخذ أجرًا هذه المرة.
- لا طبعًا لكن مشاوير العمل ستكون للعمل.

ردت مازحة:

- كنت أظن أنه يمكنني استغلال فكرة الصداقة تلك.

مدت يدها تسلم عليه بدفء ثم انصرفت. ظل يراقبها بنظرة خاوية إلى أن اختفت عن ناظره، ثم انصرف بسيارته متوجهًا لصديق له ليأخذ سيارته الخاصة ليحضر هشام من المطار.

في الطريق نظر إلى هاتفه عدة مرات يستجدي ردًا من نهلة على رسالته دون جدوى. نهلة كانت مدرسة معه في ذلك المعهد التعليمي الخاص الذي يدرس به. كانت تعيش مع أبويها في الكويت منذ صغرها. زادت بينهما الألفة وتعلق بها لكنه لم يجرؤ على مصارحتها بحبه. بعد فترة أصيب والدها بمرض اضطرهم لاتخاذ القرار بالعودة إلى مصر. لمحت له كثيرًا أن يتخذ خطوة إيجابية لكنه أصيب بالهلع من فكرة الارتباط وهو الذي لم يكمل حلمًا في حياته ولا مشروعًا بسيطًا حتى.

هو ليس ذلك المحب الأفلاطوني الذي يهمه سعادة حبيبته وإن كانت في البعد عنه، لم يكن بتلك المثالية الساذجة. هو فقط كان لا يحتمل فكرة أن ينقلب حبها إلى ملل من حياته الفاشلة أو أن يتحول

الانبهار في عينيها إلى اتهام بالتفاهة وعدم تحمل المسؤولية. تركها وهو يحلم بفرصة تتحسن فيها أحواله ويكون جديرًا بالارتباط بها.

عادت إلى مصر وهي غاضبة عليه لكن كانا يتحدثان أحيانًا على الفيس بوك وبالتدريج قل اهتمامها بالرد عليه وصارت رسائلها شحيحة جافة لا تحمل من روحها إلا القليل.

وصل المطار وتهلل وجهه حين رأى صديقه واحتضنه بحرارة وهو يسأله عن رحلته ويطمئن على عائلته. ركبا معًا متوجهين إلى شقة حسن وهما يتبادلان الحديث عن ذكريات حلوة مضت وعن أيام قادمة لا يعلم مسارها إلا الله.

٥

مر أول يوم عمل على هشام بسلاسة رغم كل شيء. لم يستسغ وقفته كحارس أمن وأحس بالضيق يملأ صدره فحاول أن يسلي نفسه بالتحدث مع رفيقه الهندي. كان الحديث عسيرًا بعض الشيء ممتلئًا بالكثير من اللهجة الكويتية المحرفة بلكنة هندية. حاول أن يحدثه بالإنجليزية لكن الرجل لا يفقه من الإنجليزية سوى "نعم سيدي".

ما كان يقلقه في عمله الجديد هو خوفه أن يهينه أحد فيطفح العرق الصحراوي ويحدث ما لا تحمد عقباه. كان يشعر بالضيق في زي الحارس الذي ينال من إحساسه المفعم بذاته، ذلك الإحساس الذي وصل إلى ذروته حين كان محاربًا في صفوف الثوار. حمل السلاح من بداية الثورة لكنه أصيب بعد وقت قصير حين حوصر هو ورفاقه في مدينة أجدابيا.

كانت إصابته تلك هي بداية علاقته بزهراء ـزوجته الراحلةـ التي كانت تعمل طبيبة في مستشفى الجلاء في بنغازي. كانت لا تزال طبيبة مبتدئة وكانت مهمتها تغيير الضمادات للمرضى يوميًا. حين بدأت

تعالج جراح ساقه تفتحت ورودها في قلبه وارتشف من رؤياه لها رحيقًا جعله ينسى آلام تضميدها لجرحه والتي كانت مبرحة نظرًا لقلة خبرتها وارتباكها من نظراته لها.

كانت تراه فارسًا وكان يراها أميرة، وساهمت أجواء الحرب في تزكية تلك المشاعر والرؤى. بعد أن شفيت إصابته تطوع للعمل في نقل الجرحى واستمر يراها لوقت أطول حتى تقدم لخطبتها في النهاية. تزوجا بعد انتهاء الحرب وكان يرى بداية حياتهما معًا فأل خير لبداية حياة جديدة في بلده.

تبدد حلم الحياة الجديدة في بلده مع اضطراب الأمن وتزايد الحوادث والاشتباكات التي صارت في النهاية أشبه بحرب أهلية دون معالم ودون فريقين محددين يتصارعان على الحكم. وصلت الحرب ذروتها عنده حين انطلقت قذيفة أخطأت هدفها وأصابت منزله وقتلت زوجته، وانتهى به الحال إلى ترك البلاد بأكملها والفرار بأمه وأخته للأردن.

بعد انتهاء الدوام جاء حسن ليصحبه لتناول الغداء:

- اركب يا أسد الحراسات.

- سأتركك وأركب الباص إن لم تكف عن مزاحك.

ضحك حسن وهو يقول له إن الدنيا لن تسير إلا بالمزاح ما دام الأمل غائبًا، قبل أن يدور بسيارته متوجهًا إلى مطعم مصري لتناول الغداء.

- وحياة أمك ابتسم، تعرف، لن يخرجك من هذه الحالة إلا امرأة.
- وحياة أمك أنت أبعد نصائحك تلك عني.
- أما زلت تخاف النساء؟
- بل أخاف الله يا إبليس.

أوصله حسن بعد الغداء للمعهد التعليمي وبدأ يشرح له مهام العمل هناك. هذا المعهد أشبه بمراكز الدروس الخصوصية في مصر، وهو أحد الابتكارات المصرية التي تسهل قليلًا حياتهم في الكويت.

- سنقتسم جدول الحصص الدراسية الذي كنت أدرسه.
- لا، مستحيل أن أقاسمك في رزقك.

أكد له أن التدريس لا يشكل مصدر مال بقدر ما هو مصدر إشباع ذاتي، فالساعة التي يقضيها في درس ستعود عليه بأضعاف دخلها إذا قضاها في توصيل الزبائن. هو فقط يريد أن يحس أنه معلم وليس مجرد سائق.

أنزله حسن أمام باب المعهد. غمرته حفاوة الناس واستقبالهم الحار. بدأ حصته الأولى وكان تلاميذه متبرمين في البداية لأنهم اعتادوا على حسن وخفة ظله في الشرح، لكن هشام كان متمرسًا واستطاع بسرعة أن يجذبهم إليه.

انتهى يومه الدراسي وقد خفف التعامل مع التلاميذ الكثير من احتقان صدره. كان يعشق مهنته وافتقدها كثيرا الفترة الماضية. لم يتوقف

عن التدريس وهو في بنغازي حتى في أوج الاضطرابات واعتاد أن يحضر التلاميذ إلى بيته ويدرس لهم بالمجان. يزرع دومًا في تلاميذه مبدأه الأول "العلم سلاح، وأهم قطعة في ذلك السلاح هو لغتك الأم".

في المساء أخذه حسن وأراد أن يذهبا إلى المقهى ليعرفه إلى أصدقائه، لكنه طلب منه أن يذهبا إلى مكان هادئ على الشاطئ فحالته المزاجية لا تسمح بالتعرف إلى أصدقاء جدد. جلسا معًا على الشاطئ:

- أتعرف أن السياب بدأ كتابة "غريب على الخليج" في هذا المكان تحديدًا؟
- لا أصدقك يا نصاب، كيف عرفت ذلك؟
- أعتقد ذلك، فمنطقة الشويخ هذه من أقدم المناطق في الكويت. ثم... ثم دعني أتخيل وعش معي اللحظة لا تكن حنبليًا، المهم أن أروع ما قاله هنا كان

"لو جئت في البلد الغريب إليَّ ما كمل اللقاء
الملتقى بك والعراق على يديَّ.. هو اللقاء
شوق يخضَ دمي إليه، كأن كل دمي اشتهاء
جوع إليه.. كجوع كلَ دم الغريق إلى الهواء
شوق الجنين إذا اشرأبَ من الظلام إلى الولادة".

- دائمًا كانت تأسرني ثنائية الحبيبة والوطن تلك حتى عشتها أنا مع زهراء، كانت بداية حبنا مع صعود الثورة وتزوجنا حين انتصرت وراحت مني حين انقلب الحلم كابوسًا وضاع كل شيء.

- يرحمها الله.

- لقد رحمها حين أخذها بعيدًا عن كل ذلك العبث، زهراء لم تكن بالنسبة لي مجرد امرأة أحببتها أو تزوجتها بقدر ما كانت الإجابة عن تساؤلي عن ماهية المرأة ومعنى الحب. مقولة الحب من أول نظرة ليست خرافة بقدر ما هي سوء توصيف لحالة موجودة بالفعل. هناك لكل واحد منا في هذه الدنيا إنسان يجمع كل ما يشعرنا بذواتنا، حين نبصر ذلك الشخص نعرفه من اللحظة الأولى ونسلم بين يديه كل مخزوننا من الحب.

٦

"رائحة الطعمية الساخنة في الصباح تعطي انتعاشًا أكثر من كوب قهوة". مبدأ يؤمن به حسن من زمن طويل وازداد تشبثه به حين ابتعد عن مصر. علت وجهه نظرة مستنكرة حين رأى تعبير وجه جانيس بعد أن سألها عن رأيها في الطعمية التي أصر أن تتناولها معه هذا الصباح:

- لا أرى فرقًا بينها وبين أي فلافل أخرى ذقتها من قبل.
- كلا بالطبع الأخرى هذه شامية؛ المصرية أفضل كثيرًا.
- عنصري حتى في الأكل.

احتد عليها مؤكدًا أنه ليس عنصريًا، فسألته عن رأيه إذا قررت أن تعزمه على غداء فلبيني. قبل أن يرد طفحت الإجابة على وجهه مباشرة فقد قلب شفتيه لا إراديًا فضحكت وهي تقول:

- ألم أقل لك؟

- أنا لا أحب تجربة أكل جديد، لكن إذا كنت ستطهين لي في غرفتك فلا مانع عندي.

نظرت إليه بابتسامة خبيثة وهي تقول إنها لا تجيد الطهو. شيء ما لا يزال يؤرقها من ناحيته، تحس أنه معها بنصف عقله فقط، وتمقت كثيرًا نظراته المتكررة التي يختلسها لهاتفه وتلون وجهه كلما جاءته رسالة. حدسها ينبئها أن هناك أخرى وأن الأخرى ليست زوجته.

تخرس مخاوفها المتكررة تجاهه بأن لا بأس من بعض اللهو الذي تعوض به احتياجها دون تبعات شعورية. المشكلة أن هذا النوع من العلاقات ليس سهلًا أبدًا على أي امرأة؛ إنه أشبه بالمشي على حبل رفيع فوق حقل أشواك.

تجارب حياتها مع الرجال ليست كثيرة، زوج خائن ثم حبيب متسلط وهذا هو الثالث في حياتها، ويبدو أنه ليس أفضل حالًا فهو لا يبدي اهتمامًا حقيقيًا بها رغم خفة روحه والوقت المحبب الذي يقضيانه معًا. بعد أن أنهت إفطارها حاولت أن تستكشف ما يفكر فيه فقالت:

- أتعرف، الجميل في علاقتنا أني أحس أن الكيمياء متناغمة بيننا.
- ما دام الأمر فيه كيمياء فلا بد أن نسمح للمكونات بالتفاعل ولا نتركها هكذا مغلفة ومنعزلة.

ضحكت ونعتته بالجنون كالعادة، أما هو فقد ارتفعت حرارة الإثارة في رأسه وألح عليها ثانية أن يخلطا الكيمياء وألا يتركاها هكذا. قبل أن ترد عليه جاءته رسالة ففتح هاتفه وبش وجهه فقد كانت نهلة ترد على رسالة أرسلها من أول أمس.

- مع من تتحدث؟
- إنها زوجتي، اعذريني.
- حسنًا.

قالتها وهي غير مقتنعة. تلك البهجة القصيرة ثم تلك اللهفة التي تتناوب مع الحسرة في عينيه، تنبئها بأنها امرأة لم تستقر له بعد، قد تكون حبيبة مفقودة أو صيدًا صعب المراس. قاطع أفكارها وهو يناولها القهوة. ارتشفت منها ثم تراجعت وهي تسأله لماذا لم يضع لها سكرًا فأجابها:

- لأن ذوبان السكر كيمياء وأنت لا تحبينها.
- أحبها ولكن بشرط، ألا تضع السكر في كوب آخر.

أسند ذقنه بيده اليمنى، يتأملها وهو يفكر في الرد. لا يود أن يدخل علاقة بها هذا القدر من الدراما، هو فقط يريد أن يقضي وقتًا معها، يريد من تعينه على الصبر على مرار الغربة والوحدة. ثمة دافع آخر لا يعترف به وهو أن انشغاله بمغامرته مع جانيس قد يخفف من هوسه بنهلة.

يقول لنفسه "بنت المجانين تلك تصر على أن تعطي للعلاقة شكلًا حيًا ورسمًا حقيقيًا واضح المعالم". لماذا يوافقها وكل شيء في حياته هلامي مرسوم بألوان مائية مخففة بشكل موه ملامحه، اشتراكه في ثورة من أجل حرية لم تأت وعمله هنا من أجل مستقبل لا يعلم متى يراه وسعيه الدؤوب نحو استعادة حبيبة لم يمتلكها يومًا.

كيف تصر هي على وحدانية العلاقة بينهما. هي تعلم أن تلك العلاقة محدودة بالمكان الذي هما فيه الآن وسيفترقان عاجلًا أو آجلًا فلماذا تحمل الأمر أكثر مما يحتمل. سألها عن ذلك فقالت:

- لا تكثر من تحليلاتك، كلمة واحدة، هل تعدني بما طلبته أم لا؟
- دعي كل شيء لوقته، قد أعدك بذلك لاحقًا.

غضبت من رده وطلبت أن يقوما لتدرك عملها، قام غاضبًا وهو يتساءل عن سر عنادها وهي لا تملك مبررًا لذلك من وجهة نظره. أوصلها لوجهتها وهو يكاد يقسم إنه سيتركها ويبحث عن أخرى أقل تعقيدًا.

سار في طريقه بعد ذلك في رحلة بحثه اليومية عن الرزق، وبينما كان على أحد الطرق السريعة عاودته آلام ذراعه. كانت ناتجة عن إصابة قديمة حدثت له أيام الثورة. حينما كانت تعاوده تلك الآلام كانت يحس معها برائحة لاذعة في أنفه وتحمر عيناه وتدمعان بشدة.

فسر الأطباء حالته على أنها نوع شديد من أعراض تسمى كرب ما بعد الصدمة. كان يتلقى علاجًا يمنع معاودة تلك الأعراض لكنه لم يأخذه منذ فترة.

اقترب من إحدى الإشارات وهو على تلك الحالة فلم يكبح سيارته في الوقت المناسب وارتطم بالسيارة التي أمامه بقوة. كانت السيارة الأمامية سيارة دفع رباعي قوية الشكيمة ولم تصب إلا بخدوش بسيطة. حاول صاحبها التشاجر معه لكن حسن احتواه بسرعة واتفق

معه على أن يتكفل بإصلاح ذلك العيب، فاكتفى الرجل بأخذ هاتفه على وعد باللقاء لإصلاحها.

وقف قليلًا يعاين أضرار سيارته ثم أخذها وتوجه إلى الفني وتركها هناك. أرسل إلى عبد العزيز رسالة ليوصله إلى معهده الدراسي وليطلب منه سلفة تعينه على ما فقد، وعندما وصل عبد العزيز اعتذر إليه عن عدم مقدرته المالية في الوقت الحالي.

- تعرف أنني أنفقت الكثير في رحلتي لسوريا، وكان النصيب الأكبر الرشاوى التي كنت أدفعها عند الحواجز المنتشرة بكل الطرق من دمشق حتى الرقة.

- ولماذا الرشاوى، هل أنت مطلوب؟

- عند كل حاجز من الحواجز التي يقيمها النظام يقابلك شخص يطلب منك إتاوة للمرور، وإلا كنت من الإرهابيين. لا أحد يطلب إثباتات، أنت تؤخذ وترمى في أي مكان حتى تموت أو... أو... لا أعرف أصلاً هل هناك خيار آخر.

- كفى، أصدقك، لا داعي لأن تحكي لي قصة حياتك، سأتصرف من جهة أخرى.

- في المرة القادمة سأحكي لك عن...

- لا وحياة أبيك، في ما يكفيني. إذا أردت أن تستلف قليلًا من الغم فعندي ما يكفي قبيلة كاملة.

٧

في انتظار المصعد، وقف رجلان أحدهما خمسيني يرتدي زيًا كويتيًا تقليديًا، تشي ملامحه بهيبة زادت منها الطريقة التي يعامله بها الشاب الذي يصاحبه، والذي بدوره كان يرتدي قميصًا وربطة عنق رفيعة، وفي يده حقيبة أوراق يبدو ثقلها من طريقة إمساكه بها.

كانا يقفان في مدخل برج تجاري يقع فيه مقر الجريدة التي يعملان بها. كان أحد المصعدين معطلًا والثاني يبدو أن أحدًا يستوقفه. أشار الشاب لأحد حارسي الأمن طالبًا منه أن يتصرف ويتعجل عمال الصيانة أو ينظر سبب تأخر المصعد الثاني. أمسك الرجل بالهاتف وأخذ يجري اتصالاته، بينما كان الثاني وهو هشام يتابع حديثهما.

كانا يتحدثان عن مقال يعده الرجل الخمسيني ويطلب من الشاب أن يساعده باقتباس ينهي به المقال بشكل فخم. حك الشاب أذنه اليمنى وهو يقلب الأمر في رأسه ثم قال:

ـ هناك مقولة ابن سينا "بُلينا بقوم يظنون أن الله لم يهد سواهم".

- اقتبسها آلاف قبلي حتى بليت ثم إني أريد اقتباسًا له مردود سياسي.

تدخل هشام في الحديث وقال:

"الأنظمة المجرمة لم ينشئها أُناس مجرمون وإنما أُناس متحمسون ومُقتنعون بأنهم وجدوا الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى الجنة".

التفت الرجل الخمسيني ونظر إليه متفحصًا ثم سأله:

- من؟
- ميلان كونديرا، أديب تشيكي.
- أعرف ميلان كونديرا لكني أسأل عنك، من أنت ولماذا تتدخل في حديثنا؟

بهت هشام من الرد وانتبه إلى أن الزي الذي يرتديه لا يخول له أن يدلي بدلوه في حوار كهذا، فاعتذر إلى الرجل ثم قدم نفسه:

- اسمي هشام بوعتيبة، ليبي وأعمل هنا منذ ثلاثة أسابيع.

تطلع إليه الرجل بدهشة فهي أول مرة له يرى ليبيًا يعمل في الكويت في مهنة كتلك، وزادت دهشته أكثر حين عرف أن هشام جامعي ويدرس اللغة العربية وله اهتمامات أدبية أيضًا. هنا جاءت الأسئلة التي تثير الضيق في نفس هشام مثل لماذا تركت ليبيا فهي ليست كسوريا مثلاً. يرد بأن الوضع هناك سيئ ثم تأتي الردود المشفقة والمستنكرة لما يفعله الناس ببعضهم.

الدعوات بأن ينفرج الحال وبأن يلهمه الصبر كانت المرحلة التالية في أي حوار، وهو يرد عليها بدعاء "اللهم انتقم"، وحين يسأله أحد على من يدعو يقول "الخراب لقيط لا أب له الكل يتبرأ منه". يقولون إن الدنيا صارت مفتوحة والخبر يسهل التأكد منه، والواقع أن الحقيقة اليوم تتوه في فضاء الإعلام وشبكات التواصل كما كانت تتوه قبل ألف عام بين أفواه الرواة وثرثرات العوام.

وصل المصعد سريعًا ولحسن الحظ كان الرجل مشغولًا فرحمه من محادثة مقبضة عن بلده ومصيرها واكتفى بقوله "الله يوفقك". عرف بعد ذلك من رفيقه أن الرجل هو رئيس تحرير الجريدة التي يحرسان مبناها.

انتابه ضيق مفاجئ ملأ قلبه وكسا ملامحه أحس به رفيقه الهندي فربت على كتفه دون أن يتكلم. ابتسم للرجل وهو متعجب لطيبته وللطريقة التي يشعر بها بألمه دون أن يتكلم، ولولا أنه يرى الرجل على غير ملة الإسلام لقال إنه عبد رباني يرى بنور الله.

في اليوم التالي جاءه طلب من مكتب رئيس تحرير الجريدة فذهب من فوره. دخل أولًا إلى غرفة فسيحة تجلس بها امرأة سمراء مليحة القسمات طويلة الشعر، ترتدي ملابس غربية وتضع لمسة خفيفة من مساحيق التجميل قدمت له نفسها باسم "شيخة"، قائلة إنها مديرة مكتب رئيس التحرير. كانت تجلس على مكتب وثير وإلى جوارها كان مكتب آخر جلست عليه فتاة قصيرة ذات لهجة شامية. ابتسمت له شيخة بود وسألته عن أحواله وعن رأيه في الحياة هنا، رد عليها باقتضاب ما جعلها تكتفي بهذا السؤال.

رن جرس فقامت الفتاة القصيرة بمصاحبته لمكتب الرجل الذي كان ينهي محادثة في هاتفه. أشار له بالجلوس دون أن ينظر إليه، وبعد أن أنهى مكالمته توجه بالحديث له سائلًا عن مدى قدرته على عمل مراجعة لغوية لبعض المقالات. رد هشام بالإيجاب وهو متحمس فناوله الرجل أوراقًا من أمامه قائلًا:

- راجع هذا المقال.

أمسك هشام الأوراق ونظر فيها إلا أن الرجل أشار إليه أن يراجعها في الخارج. شكره وخرج من عنده وهو لا يزال متوترًا. عرضت عليه شيخة أن يجلس في المكتب ليراجع المقال. قبل عرضها شاكرًا وبدأ مراجعته وأحصى فيه أحد عشر خطأ. قال لها ذلك فابتسمت مشجعة:

- حقًا؟ لقد كان غاضبًا لأنه وجد فيه ثمانية فقط، يبدو لي أنه سيستعين بك.

- على الله قصد السبيل.

تركته ودخلت لرئيسها، غابت للحظات بدت ثقيلة عليه وهو يتأمل فازة زجاجية صغيرة موضوعة في صدر مكتبها وعليها حروف إنجليزية لم يفهم معناها.

- هذه هدية من ابنة شقيقتي، هي التي صممتها لي.

رد عليها بابتسامة قصيرة ثم سألها عن الأخبار، فقالت له إنه سيقرأ ملاحظاته ويرسل إليه لاحقًا. شكرها وعاد إلى جلسته في مدخل المبنى يملأ أنفاسه أمل جديد يخشى أن يخذله.

٨

رأى حسن فيما يراه النائم أنه جالس على الأرض يلهو بدمية صغيرة، يشد حبلًا ممتدًا من منتصفها فتصدر منها أصوات موسيقية طفولية. استغرب كثيرًا؛ كانت يده يد طفل صغير، حاول أن ينطق لكن خرجت منه أصوات مبهمة كطفل لم يتعلم الكلام، سيطر عليه إحساس بالعجز ولم يجد مفرًا من البكاء.

فوجئ بيد تحمله وتضمه إلى صدر امرأة. سكت عنه الروع وتوقف عن البكاء، ثم أراح رأسه على ذلك الصدر وتطلعت عيناه نحو وجه صاحبته وهو يتوقع أن يرى وجه أمه. انفجر في البكاء ثانية فقد كانت هي، تلك المرأة التي سكنته في غفلة من الزمن ثم تركته رهينة لحبها وانصرفت. هي نفسها الآن التي تهدهده وتحاول التهدئة من روعه. سكت وهو مذهول لا يلوي على شيء. نظر إليها وتأمل وجهها. من منظور طفل رضيع كانت أجمل ما يكون وأرق، كان وجهها صافيًا مريحًا أكثر من الطبيعة البكر. أهذا يرتبط الرضيع بأمه. هل يعشق القرب منها لسبب يختلف عما عرفناه؟

عيناها تنظران إليه بحنو أمٍّ وحب امرأة. زادت ضربات قلبه اضطرابًا وهي تطبع قبلة على خده. قام من نومه على صوت هاتفه. كان صاحب المكتب الذي يؤجر له التاكسي. الرجل يعنفه على الحادث الذي أصاب السيارة ويؤكد له أن هذا الحادث سيخفض من قيمتها عندما يحاول بيعها، وخيره بين أن يتحمل فارق السعر أو يأخذ هو السيارة ويسدد أقساطها.

أغلق مع الرجل وهو يضرب أخماسًا في أسداس ثم قام يبحث عن لقمة تقيم أوده. دخل المطبخ وسدت نفسه من منظر الأواني الممتلئة ببقايا الطعام وسلة المهملات التي تتجمع القمامة حولها لا داخلها. فتح المجمد وتناول فطيرة قام بتسخينها وتناولها مع قطعة من الجبن، ثم غير ملابسه ونزل للذهاب إلى المعهد.

أوقف سيارة أجرة، وحالما جلس طلب السائق منه أجرًا مبالغًا فيه فشاكسه ثم نزل من السيارة وركب أخرى. بادره السائق بالسؤال عن سبب تركه للسيارة الأولى.

- طلب مني دينارين ولم يقبل بدينار ونصف، رغم أنه هندي والهنود طيبون.

كان السائق مصريًا صعيدي اللكنة يبدو في عقده الخامس، ابتسم لحسن ابتسامة هادئة كمن يعرف خبايا الأمور ثم قال:

- كان والدي رحمه الله مسموع الكلمة في قريتنا، وكان الناس يلجؤون إليه ليحكم بينهم، وكان في قريتنا عائلة صغيرة كان عدد أفرادها

قليلاً، وكنت أحبهم وأقول لوالدي هؤلاء هم أكثر أهل بلدتنا طيبة. أتعرف ماذا كان يقول لي:

أجابه حسن بسؤال عن "ماذا كان يقول" وهو في داخله يقول مالي أنا وأبيك وقريتك، فأكمل الرجل:

- كان أبي يقول هؤلاء طيبتهم قلة حيلة، ولو تمكن أحدهم فسترى منه العجب. وبالفعل صدقت الأيام على كلامه. الهنود مثل تلك العائلة، طيبتهم قلة حيلة، ولذلك لو رأى أحدهم فيك ضعفًا لعاملك بالسوء كما فعل ذلك السائق.

- لكنني لست ضعيفًا.

- بلى، لكنك منكسر وانكسارك يظهر على ملامحك. والانكسار أسوأ من الضعف.

سكت حسن وقد انسكب كلام الرجل على رأسه كدلو من الثلج، وظل رأسه يبحث عن أسباب انكساره الذي ظهر للرجل جليًا هكذا. قال لنفسه في النهاية إن طبيعته هكذا، هو في الأساس همومه كثيرة ويعيش في لجة من انسداد الأمل والإحساس بالغبن فمن الطبيعي أنه سيبدو كمن يحمل جبلين فوق كتفه كلما تعرض لمشكلة إضافية.

أنهى حصصه الدراسية، أمسك هاتفه وأرسل رسالة إلى جانيس لأول مرة منذ لقائهما الأخير الذي انصرفت غاضبة في نهايته. أرسل إليها رسالة ثانية دون رد، في النهاية طلبها ولم تجبه. رمى الهاتف على

المكتب الذي أمامه وهو يقول لنفسه "لم يعد غير تلك السحلية التي ستتمنع علي وترسم نفسها امرأة مهمة".

مرت دقائق ثم جاءته رسالة منها تقول إن بيدها عملاً وسوف تكلمه حالما تنتهي. بعد قليل طلبته متصنعة في البداية عدم الاهتمام وأنها لا تزال غير راضية، وعندما أحست أنه سيبدأ في الانفعال لانت في القول. أخبرها أن سيارته في الصيانة وطلب منها أن تقابله في محل البيتزا ليتناولا الغداء معًا.

- ستعزمني أنت؛ يكفي أنني سأركب تاكسي على حسابي.
- ميزانية الغداء معي ديناران، إذا كنت سأعزم فلن تكون بيتزا.

اتفقا في النهاية على الذهاب لأكل البيتزا. فكر أن يشتري لها وردًا، فالورد كما كان يقول دومًا كالشحم يلين الماكينات التي لا تريد العمل. مر على محل ورود تقف فيه فتاة فلبينية. طلب منها وردتين في غلاف لكنها صدمته بالسعر فقال لها:

- خففي السعر قليلًا، هذه الورود لقريبتك.

استغربت الفتاة من كلامه، فقال إن الورد لفتاة من بلدها وإنه يحبها ويريد أن يسترضيها وهو لا يملك دفع الكثير. تأثرت الفتاة وخصمت له من السعر وهي تقول إن فتاته محظوظة به، فقال وهو خارج:

- لو أنك متاحة فمن الممكن أن أتركها من أجلك.

ارتسم الغضب على محياها فضحك وهو يقسم إنه يمزح، والحق أنه طمع فيها فقد كانت أحلى وأصغر سنًا. لانت ملامحها كأنها صدقته ثم قالت:

- إذا كنت تنوي التلاعب بها فلا داعي للتظاهر بالحب. فقط كن صريحًا معها.

تجاهل نصيحتها ومضى في طريقه حتى وصل. وجد جانيس في انتظاره وحين وقعت عيناها على الورد احمرّ وجهها وعلته دهشة ممزوجة بالفرحة. سألته عن مناسبة الورد، قال إنه أحس بفظاظته معها المرة السابقة وإن هذا الورد اعتذار منه، ثم سألها:

- ما العمل الهام الذي شغلك عني يا مديرة؟

تجاهلت لهجته المتهكمة وأخبرته أنها كانت منهمكة في إعداد أقنعة تجميلية لإحدى زبوناتها. كانت امرأة لحوحًا وسليطة اللسان لا تكف عن نهرها في أثناء عملها، وهي تتحملها بصمت أحيانًا وباعتذار أحيانًا أخرى.

- تصور أنها أعطتني مبلغًا صغيرًا لا يوازي قيمة مجهودي ولا سعر المواد التي أستخدمها، ولأنني أعرف أن المفاوضات على أجري لن تنتهي إلى شيء عمدت إلى حيلتي السرية.

- وما هي؟

- أخرجت لها حقنًا للبشرة، وقلت لها إنها من فرنسا وأخذت مقابلها أكثر من أجري، والحقن لا تحتوي إلا على ماء مقطر.

- أليست هذه سرقة؟

- كلا، هذه حيلة لانتزاع حقي من أمثالها.

قالت إن زميلاتها يعتبرن أن هذه الطريقة هي نوع من السرقة المباحة، فهي لن تضر المرأة وفي الوقت نفسه ستأخذ حقها الذي سلبتها المرأة إياه. نوع من حيل الضعفاء التي يصلون بها لحقوقهم دون مواجهة، يعتبرها الأقوياء خبثًا ودناءة ويعتبرونها هم سلاحهم المتاح أمام القهر. كان من السهل عليها دومًا أن تبرر لنفسها حين تقارن ما يفعله مثل هذا المبلغ لبناتها في مقابل أن تلك المرأة تشتري زجاجة عطر بثلاثة أضعافه. قالتها ثم أمسكت يده بشوق وهي تقول:

- أوحشتني جدًا. كنت أنتظر منك رسالة أو مكالمة وكنت أمنع نفسي بصعوبة من مراسلتك.

- أعذريني على كلامي في المرة السابقة. أنت إنسانة مميزة ولا أريد أن أجرحك بقصة حب محكوم عليها بالنهاية قبل أن تبدأ.

ردت عليه بأنها ليست صغيرة، وأنها تعرف أنه سيعود لبلده يومًا وستعود هي للفلبين تعيش في مدينة كبيرة مع ابنتيها، وتترك زوجها في أوباي يزرع أرضهم بالأرز كما هو، كل ما تريده منه أن يحترمها ويلتزم نحوها. لفتت انتباهه كلمة "أرضنا" فسألها مستغربًا عن السبب الذي يجعلها تترك أرضًا ملكها وتأتي لتعمل خادمة هنا، فعنده في مصر يعد من يمتلك أرضًا من الميسورين.

- الأرض دخلها كان يكفينا بالكاد، وكان لا بد أن أسافر لألحق بناتي بتعليم محترم، لا أريد لهن أن يكن مثلي.

قال إن تفكيرها يستحق الاحترام وإنها حقًا إنسانة مميزة، وأمسك بكفها وضغط عليها وهو يقول ذلك. ثبتت عينها عليه وهي تقول له إن لمسة كتلك كفيلة بمحو الكثير من عنائها، وإنها لا تحتاج منه أكثر منها. حاول أن يغير الموضوع فحكى لها عن بائعة الورد، نزعت يدها منه وضربته على يده وهي تقول:

- ما هذا؟ تريد أن تذهب إليها اذهب.

- أنت غبية، لو أنني كنت جادًا لما حكيت لك ما حدث. ألا تمزحون في الفلبين؟

قال ذلك ثم سألها عن السبب الذي جعل الفتاة توصيه عليها.

- ربما لأن أغلبنا لهن الظروف نفسها، كثيرات منا عائلات لأسرهن، يكافحن الدنيا ويعانين من الظلم هنا وفي بلدنا. الرجال في حياتنا مصدر للحزن أكثر من كونهم مصدرًا للأمان؛ فهي تطلب منك ألا تزيد همي.

ارتسمت على ملامحه الجدية، وأمسك يدها وهو يقول:

- إذا هيا إلى غرفتك لأخفف عنك بعض الهموم.

ضحكت وهي تقول إن همومها تخف حين تجد من يشاركها معها وليس بالطريقة التي يقصدها، ثم قالت في دلال:

- لكن هذا لا يمنع أن نذهب إلى هناك في الوقت المناسب.

قالتها ثم غيرت مجرى الحديث، سائلة إياه هل شخصيته المازحة تلك تلازمه أيضًا وهو يدرس للتلاميذ، أجابها بالتأكيد. كان شرحه للطلاب دومًا مزيجًا من الجد والمزاح يتخلله حديث عن مكان في مصر أو عادة ما. أكثر التلاميذ في تلك المعاهد من المصريين وكثير منهم مولودون في الكويت أو يعيشون فيها منذ بداية وعيهم، ولذا يرى حسن أنه يجب أن يجعل حصته قطعة من أرض الوطن، يأخذ معه هؤلاء الأطفال فيها حتى لا ينسوا من هم ويعزز داخلهم إحساسهم بالتميز (أو كما تسميه هي بالعنصرية).

٩

- هل هناك جديد يا أستاذة شيخة؟
- إن شاء الله ياهشام، ولكنني لا أحب أستاذة تلك.
- ولكني أتحشم أن أناديك باسمك مجردًا.
- أنا أحبه مجردًا.

طلبت منه أن ينتظر ريثما يخرج الضيف الموجود عند أبي مشعل (رئيس التحرير) حتى تستأذن له في مقابلته. حاولت أن تتحدث معه، أخبرته عن نفسها وعن حبها للكتابة وللصحافة، وأن لديها صفحة على الإنستاجرام يتابعها الآلاف.

كانت مرحة ودودًا معه وهو بالكاد يرد، يتصنع الاهتمام بكلامها ويكيف انفعالات وجهه لتتناسب مع ما تحكيه وهو في الواقع يجلس منتظرًا بفراغ صبر. أرته صورة ابنة شقيقتها وأخذت تصف له كم أنها تحبها، ثم سألته عن نفسه هل لديه أبناء فأجابها بطريقة صادمة:

- زوجتي ماتت قبل أن يتسنى لنا أن ننجب.

اعتذرت بصوت خفيض ثم صمتت حتى فتح باب مكتب رئيس التحرير، أشارت شيخة لمساعدتها فدخلت له وغابت لحظات ثم عادت لتطلب من هشام الدخول. استقبله الرجل بابتسامة مرحبة هذه المرة وطلب منه الجلوس ثم قال:

- لقد أدهشتني بالفعل فأنت متمكن، لذا ستعمل معنا من الغد. لكن بشكل غير رسمي.

- ألا يمكن أن تسعى الجريدة عندكم لنقلي على كفالتكم لأعمل بها رسميًا؟

- اسمع يا بني، أنا أعطيك فرصة للعمل هنا لكن عليك أن تسعى لتحسينها. أنا متعاطف مع ظروفك لكن عملي ووقتي لا يسمحان لي بحل مشاكلك الشخصية.

كانت الجملة الأخيرة إذنًا له بالخروج، فشكر الرجل ثم قام خارجًا لا يدري هل هذا الرجل يستحق الشكر أم السب. رأته شيخة وقد خرج شاردًا فحكى لها ما حدث.

- لا تقلق، سوف نجد حلًا لتلك المشكلة.

- أتمنى ذلك.

- اعترف، تريد الهروب من مكافأتي، لكنك لن تستطيع، أنت مدين لي بغداء من أول راتب.

ضحك من قلبه هذه المرة وأحس أن تلك المرأة نسمة تلطف من قيظ تلك المدينة. لم يسأل نفسه لم ذلك الود، فهناك أناس خلقوا هكذا، قلوبهم رحبة تتسع للجميع وأرواحهم أرق من البلسم.

اكتسى وجهه بالراحة بعد كلامها وتوجه نازلًا لمكان جلسته المعتادة في مدخل المبنى. لاحظ رفيقه الهندي العجوز ذلك الانطباع على وجهه فسأله:

- أول مرة أراك مبتسمًا هكذا.
- أتيحت لي فرصة عمل في الجريدة يا عم راجو، لكن بشكل غير رسمي.
- هذا خبر جميل، ولكن حاول ألا تخبر أحدًا حتى تتم أمورك على خير.

طيبة ذلك الرجل وحرصه عليه يذكره بأبيه الراحل. كان دومًا يحضه على الحرص والكتمان، ولا ينفك يتلو عليه قول يعقوب لابنه "يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا"، ويقول له هؤلاء إخوته وأبناء نبي فما بالك بأصدقاء ذلك الزمان.

رن الهاتف عنده بعد قليل، وكانت شيخة تطلب منه الصعود لتسلم المقالات التي سيقوم بتدقيقها، صعد إليها مسرعًا فأعطته ذاكرة بيانات وطلبت منه أن يقوم بتدقيق المقالات المخزنة عليها. أنهى يومه وكان من المفترض أن يتقابل مع حسن في المعهد الدراسي. أول ما رآه أبلغه بما حدث في العمل.

- مبروك، يبدو أن العجلة قد دارت.
- نعم، لكنهم لن ينقلوا إقامتي وسأظل جالسًا كل يوم أحرس مدخل ذلك المبنى.
- لا تتعجل الأمور، هيا لتعزمني على العشاء بهذه المناسبة.
- الكل يريدني أن أعزمه، أنت على العشاء وشيخة على الغداء.

بالطبع لم يفوت حسن الفرصة وأكد له أن حدسه صادق وأن تلك المرأة معجبة به. نهره هشام فليست كل امرأة تعاملك بود هي معجبة بك، لكن حسن لم يقتنع فرد عليه هشام:

- حتى لو، أنا أغلقت قلبي بعد زهراء.
- يا رجل خذني مثلك الأعلى. هناك مستويات متعددة للمرأة في حياة كل رجل منا تبدأ من اللهو البسيط وحتى الحب العميق، ولا يضير الرجل أن يسكن امرأة مختلفة في كل مستوى. حتى الحب نفسه مستويات من الممكن أن تعيش الحب مع امرأة ومن الممكن أن تغرق فيه مع امرأة أخرى.

سأله هشام متهكمًا عن الفارق، فقال حسن إن أي امرأة قابلة لأن تعيش معها قصة حب تحكي معها حكاياتك، تخرج معها نهارًا وتبيت بين يديها ليلًا، لكن لكي تغرق في حبها لا بد أن تكون تلك المرأة هي العلاج النفسي المصنع خصيصًا لكل أمراضك الذهنية وعقد النقص لديك. تتحدث معها فتشعر بأن كل آلامك السابقة قد انمحت وأنك قد

نسيت أحقادك على الدنيا والناس، تشعر بأن الإشباع الذي تعطيك إياه قد أزال ذكريات حرمانك ولو كانت منذ الطفولة.

أن تغرق في حب امرأة يعني أنك حين تضع رأسك على صدرها تنسكب كل الهموم خارج صدرك، حتى شهوة الجسد تصير معها رقصة ملائكية لا تبحث عن قمة للنشوة تنهيها، لأن الرقصة بحد ذاتها هي النشوة. هي امرأة واحدة قابلة لأن تغرقنا في الحب وللأسف نقابلها في الوقت غير المناسب أو لا نقابلها على الإطلاق.

- كلام لا يقوله غير عاشق ثمل لكنه مع الأسف غبي.

ترقرقت عين حسن وهو يرد عليه قائلًا:

- بل هو العجز يا صديقي. هيا لنمشي لن نجلس هنا للأبد.
- لكني أريد أن أنهي مراجعة هذه المقالات وليس لدي حاسوب.
- عندك حاسوبي، أنهِ أعمالك عليه، أبي أرسلني هنا إلى الكويت أساسًا لكي أرعاك.

١٠

واقفا أسفل البناية التي تقطن بها جانيس يكسوه التوتر، كان حسن ينظر في هاتفه عدة مرات في الثانية الواحدة. كان سبب توتره أنها كلمته وهو على وشك الصعود لها، وطلبت منه الانتظار حتى تنتهي جارتها المصرية من نشر الملابس في الطرقة الموجودة بين شقتيهما. لم تكن تريد لجارتها أن تشاهده وهو يدخل شقتها فيثير ذلك فضولها المتقد أساسا.

مرت دقائق قبل أن يرن هاتفه معطيا إذنها بالصعود. كانت واقفة خلف الباب ففتحته سريعا وما إن دخل حتى التقط نفسا عميقا وملأت أنفه رائحة عطرها الأخاذ.

كانت الشقة مقسمة بقواطع خشبية لعدة غرف ضيقة. فوجئ بامرأة تخرج من إحدى الغرف، سلمت عليه وقدمته جانيس لها باعتباره صديقا، فضحكت وردت عليها بالتاجالو (لغة الفلبين الأولى) بكلمات احمرّ لها وجه جانيس، ثم تركتها وأخذته إلى غرفتها. الغرفة نفسها كانت مرتبة بطريقة أثارت إعجابه رغم أنها لم تكن تحوي غير سرير صغير وطاولة وخزانة ملابس وكرسيين.

- الغداء جاهز، سأسخنه فقط، نتناوله ثم نشاهد فيلمًا رائعًا أعددته خصيصًا لهذا اليوم.

نظر إليها باستنكار قائلًا إن مشاهدة الأفلام مكانها السينما، أما الغرفة فلها وظيفة أخرى، فضحكت وهي تطلب منه التروي. ما إن تصاعدت رائحة الغداء الذي تعده حتى اكتسى وجهه لا إراديًا بتعبير مشمئز وهو يسألها عن مكوناته.

- هذا سمك تيلابيا (بلطي) مطهو مع طماطم وبصل وخضراوات.
- لكن هذه ليست رائحة بلطي.
- هذا لأننا نضيف عليه الزنجبيل والتمر الهندي.
- زنجبيل وتمر هندي، هذا غداء أم مشاريب في مقهى.
- اصبر حتى تتذوقه. أنا متأكدة من أنه سيعجبك.

أومأ برأسه موافقًا وهو يلعن ذلك الذوق العجيب في الأكل. جلسا على الطاولة ووضعت الطعام ولدهشته لم يجده بالسوء الذي توقعه. في أثناء تناولهما الغداء دخلت زميلتها في الشقة وقالت عدة كلمات ثم تركت الشقة.

- يبدو أن صاحبتك تفهم في الذوق وأخلت لنا المكان.

- لا، بل لأن الجميع يخرج يوم الجمعة.

أنهيا غداءهما ثم أحضرت له مشروبًا مثلجًا وقامت لتشغل الفيلم الذي أخبرته عنه، ولكنه قاطعها حين اقترب من خلفها وهو يهمس في

أذنها أن تدع هذا الهراء. تركت نفسها له كوردة يانعة تستسلم لمداعبة حانية من نسيم صباحي رقيق. كانت هي الأخرى مشتاقة للقاء من هذا النوع وقد ظلت أوراقها عطشى فترة طويلة. تركت النسيم يداعب أوراقها بحنو ويضم جذعها بقوة، راقبته وهو يمتص رحيقها وهي مخدرة تنساب معه كيفما شاء.

ظل النسيم يراقصها بهدوء ثم ارتفعت وتيرة حركته، تصاعد عنفوانه حتى اقتلعها من تربتها وحلق بها فوق سحابات الواقع لمدارات كانت تفتقد السباحة فيها. لم تمر عليها لحظات في تلك المدارات حتى حلق بها ثانية لكن تلك المرة أخذها إلى سماء بعيدة لم تحلق بها من قبل. هو نفسه كان مأخوذًا معها وكأنها هي التي تحلق به وليس العكس. في النهاية هبطا معًا وقد استنزفت روعة اللحظة طاقتيهما وأودعتهما في مهد من السكينة العذبة.

بعدما التقط أنفاسه فوجئ بها وقد غفت على صدره. تركها قليلًا ثم أمسك هاتفها وصورها وهي نائمة، فانتبهت على الصوت فقال:

- جميلة وأنت نائمة هكذا.

- كانت أجمل غفوة أخذتها في حياتي، لقد أسعدتني بطريقة لم أشعر بها من قبل.

أعجبه كلامها وقد شعر بأن فيه دليلًا على فحولته، لكنها فسرت كلامها على خلاف ما يتوقع. كان إحساسها بالسعادة ينبع من عاطفته وإحساسه بها في لحظة يغيب عن كثير من الرجال فيها حقيقة أن المرأة لا

تستمتع بجسد الرجل قدر ما تمتعها روحه، وقدر ما يصلها من عاطفته العميقة لا قشرته الخارجية. قامت لتحضر له كوبا من الماء وجلست تتأمله وهو يشرب. نظر إليها وهو ينزل الكوب من فمه ويتابع بعينه خصلات شعرها المتناثرة على غير هدى.

- هل جربت أن تضفري شعرك من قبل؟

استغربت من سؤاله، وقبل أن تجيبه طلب منها أن تستدير وأمسك بخصلات شعرها يصنعها ضفيرة واحدة غليظة. ذكرته تلك اللحظة بأخته الصغيرة التي اعتاد أن يضفر لها شعرها قبل المدرسة، وربما كان الحنين هو ما جعله يفعل ذلك. أنهى ضفيرتها فطلبت منه أن يلتقط صورة لها ففعل، وعندما نظرت إليها تألق وجهها فرحًا ولثمته على خده ثم قالت:

- أحبك.

فاجأته الكلمة ولم يرد، ولما رأت تعبير وجهه ورده الصامت سألته مستغربة ومستنكرة فقال:

- أرجوك لا تدخلي بنا في ذلك المنعطف.

- كل ما قلته إني أحبك، لا عليك، انس أني قلتها.

حاول أن يبرر نفسه قائلًا إن قصة الحب الحقيقية الوحيدة في حياته حفرت في صدره جروحًا تأكله صباح مساء، وإنها لا تزال تؤرقه، ولا يزال لليوم يتابع حبيبته من بعيد ويستطلع أخبارها بمزيج من اليأس

والحسرة. أشفقت عليه من التأثر الذي ظهر على وجهه وهي تربت عليه وتنصحه أن يترك ما يؤلمه ويمضي بحياته.

- حاولت كثيرًا دون جدوى. لا أريد أن أجرحك، من السهل أن أقول إني أحبك دون أن أعنيها. يبدو أن النساء جميعًا يمتلكن العقلية نفسها التي تعشق الرجل المتصنع كثير الكذب، فهل تريدينني أن أكون كذلك؟

- كلا بالطبع.

في المساء ذهب حسن إلى المقهى. كان صديقه علاء يقترح عليهم أن يتشاركوا في مشروع يضمن لهم مستقبلًا أفضل من الاستمرار في العمل كسائقي تاكسي. رفض خالد رفضًا قاطعًا، أما عبد العزيز فقد تحجج بأن والده يرفض الشراكة ويعتبرها جنونًا.

لمس الاقتراح حلمًا داخل حسن في أن يفتح له ذلك المشروع باب أمل جديدًا في ارتباطه بنهلة، شرح له علاء الفكرة فهناك شريك كويتي سيدخل معهما، وستكون الأوراق باسمه صوريًا وسيكون هناك عقد آخر غير معلن يضمن لهم حقوقهم.

- وهل تضمن هذا الشريك، قد يغدر بنا أو...

- اطمئن، حقوقنا ستكون محفوظة، وسنأخذ حقنا بالقانون إن حاول التلاعب.

- المحاكم أحبالها طويلة، وهو ابن البلد ونحن غرباء.

- أبدًا، التقاضي هنا سريع وعادل، ثم إن هذا الشريك رجل مضمون ومحترم.

- أعطني فرصة للتفكير.

قام ورأسه تدور بالأفكار، كان يخاف على المبلغ الذي ادخره فهو ثمن اغترابه واحتراقه في عمله ليل نهار، وليس من السهل عليه أن يدخل به في مغامرة لا يعرف عواقبها. من الناحية الأخرى هو قد سئم من مهنته الحالية ولا يرى لنفسه مستقبلًا فيها، سيظل يدور هكذا في ساقية لا تهدأ وستضيع منه نهلة بالطبع، وسينتهي به المطاف مع زوجة أخرى يأتي بها هنا لتشاركه الهم في الغربة من أجل تجميع مبلغ يضمن لهما عودة كريمة لمصر، وينجب أبناء هويتهم ممزقة بين هنا وهناك لا يعرفون عن أهلهم في مصر إلا النذر اليسير.

ذهب بسيارته إلى شاطئ الخليج وترجل منها، ثم جلس يتأمل انعكاس الأضواء على أمواجه الكسول. ولأن حيرته كانت تثقل صدره كان أول ما خطر بباله هو أن يكلم نهلة. رأسه يخبره بأن كفى، وأن ما كان بينهما لا ينتمي بالفعل إلى العالم الحقيقي. ثم بأي وجه يكلمها وهو كان بين يدي امرأة أخرى هذا النهار، ويعود يرد على نفسه بأنه رفض حب تلك الأخرى واكتفى معها بعلاقة سطحية.

في النهاية تهاوت مقاومته، وأمسك هاتفه وكتب رسالته ثم وضع هاتفه في جيبه بلا أمل في الرد. أخذته دوامة أفكاره ثانية إلى أن فاجأه صوت الرسالة. فتحها بلهفة ونظر إلى الرد:

"خيرًا".

أحسب البداية غير مبشرة تمامًا، ولكنه بدأ يخبرها عن حيرته في اتخاذ قراره الذي يخص مشكلته الحالية. حكى لها عما يؤلمه في أيامه الحالية وهو لايجرؤ أن يقول لها إن جل ألمه ينبع من افتقاده لها، رقص قلبه طربًا حين تفاعلت معه لدرجة أنه حين أنهت المحادثة كان قد أحس بإشباع أنساه كل شيء.

١١

تسابقت أربعة قوارب سريعة على مسافة غير بعيدة من الشاطئ، مخلفة وراءها موجات صغيرة تتهادى حتى تتكسر على الصخور أسفل زجاج المطعم الذي جلس فيه هشام. أمامه جلست شيخة تتفحص قائمة الطعام. انتبه حين نادته وطلبت منه أن ينتقي شيئًا، فتح القائمة وعلت وجهه ابتسامة حين رأى أسعار الأطباق الرئيسية، متذكرًا تحذير حسن له بألا يتجاوز الدنانير الثلاثة.

- اختاري أنت فقد صرت بالنسبة لي تميمة حظ.

- انتظر حتى يقرأ أبو مشعل المقالات الثلاثة التي أعطيتني إياها، أعتقد أنه سينشرها، وإن كنت أعتقد أنه سيطلب منك التخفيف قليلًا من صبغتها الأدبية.

هز رأسه متفهمًا. كما أخبرته من قبل من المرجح أن تنشر المقالات كتقارير، وفي الغالب لن يكون اسمه مكتوبًا عليها. وصل النادل أمامها في تلك اللحظة فطلبت منه الأطباق التي انتقتها لهما، ثم سألته قائلة:

- هل كتبت غيرها؟

- نعم، هذا هو المقال الرابع.

قالها وهو يناولها المقال، فأخذته شيخة وهمت بقراءته فقال:

- لا يهم أن تقرئيه الآن.

- بلى، سأقرؤه حتى يأتي الغداء.

أمسكت بالمقال وبدأت قراءته بصوت خفيض لكنه يسمع هشام.

"لوحات من ليبيا (٤)

في ظهيرة يوم من أيام ربيع ٢٠١٣، كانت غرفة الطوارئ بمستشفى الجلاء في بنغازي تعج بالحركة؛ مرضى ذاهبون وآخرون قادمون، أطباء يعاينون مرضاهم وممرضات يعتنين بمرضى آخرين. كل هذا النشاط والعاملون بالمستشفى يعتبرونه يومًا هادئًا، فإلى الآن لم تصلهم إصابات لتفجير ما أو إطلاق نار هنا أو هناك، ولم تحدث للآن مشاحنات تعكر صفو اليوم.

من المفارقات التي يراها من يدخل المستشفى أنه يواجه بلافتة تحذيرية كالتي يكتب عليها ممنوع التدخين، ولكن اللافتة هناك مكتوب عليها ممنوع الأسلحة بعد هذه النقطة. يظن من يرى تلك اللافتة أنها نوع من المزاح أو الكوميديا السوداء، ولكنها حقيقة، والأسوأ أنها كغيرها من اللافتات لا أحد يأخذها على محمل الجد.

لم يدم الهدوء طويلًا فقد تناهى إلى مسمع طبيبة الجراحة المناوبة (ولنقل إن اسمها حسناء) أصوات مرتفعة تستنجد بطبيب، وكانت من

شاب يصطحب معه شابًا آخر تغطي بقعة من الدماء جانب بطنه، وقد استلمه أحد العاملين وأرقده على سرير متحرك ودخل به غرفة الفحص، ومعه حسناء التي فحصته سريعًا ثم استدعت الجراح الاختصاصي.

بدأت حسناء في إسعاف المريض حتى وصول الجراح الاختصاصي. كان الشاب المرافق له واقفًا يتابعها باهتمام، وقد تدلى من كتفه مدفع رشاش بلجيكي لم يطلب منه أمن المستشفى تسليمه، ربما لخطورة حالة المريض الذي يصحبه ولحساسية الموقف. وصل اختصاصي الجراحة وفحص الشاب سريعًا، ثم طلب من الممرضات نقل المريض على الفور لغرفة العمليات وطلب من حسناء أن تسبقهم لتجهيز غرفة العمليات.

بعد دقائق كان المريض مخدرًا، وقد بدأت حسناء والجراح إجراء جراحة لاستكشاف الإصابات الموجودة في بطنه نتيجة الرصاصة التي سببت تهتكًا في أحشائه. كانت الجراحة صعبة ودقيقة وحياة المريض على المحك، وبعد مضي ما يقرب من الساعة فوجئت حسناء بالشاب المرافق للمريض يدخل غرفة العمليات ممسكًا رشاشه البلجيكي. التفت إليه الجراح الاختصاصي ونهره بعنف فما كان من الشاب إلا أن رفع سلاحه وسحب أجزاءه وقال له "إذا مات صديقي فستموت معه".

صرخت حسناء فزعًا فالتفت إليها الجراح مهدئًا إياها، ثم قال للشاب إنه يفعل ما بوسعه لإنقاذ مريضه دون الحاجة لتهديد من أي

نوع، لكن الشاب ظل على موقفه. عاد الجراح لعمله ثانية لكن هذه المرة تحت ظل سلاح أخرق، ولم تمض دقائق حتى دخل ثلاثة مسلحين آخرون للغرفة وضربوا الشاب على رأسه فأفقدوه الوعي.

ابتهجت حسناء لكن بهجتها لم تدم سوى لحظات وحل محلها الفزع حين صوب المسلحون بنادقهم تجاه الأطباء طالبين منهم الابتعاد عن طاولة العمليات. ساد صمت مشوب بالذهول والحنق أجواء الغرفة، ولم يقطعه سوى صوت الأجهزة الموصلة بالمريض ونغماتها الرتيبة، التي كانت تحمل في تقطعاتها المنتظمة تعليقًا على ما يحدث ولكن بلغة غير مفهومة.

فهم الأطباء أن هؤلاء قد أتوا لقتل المريض النائم على الطاولة، فحاول طبيب التخدير التدخل هذه المرة ولكن أكبر المسلحين سنًا أفهمه أن لا جدوى من الاعتراض، فهذا الشاب قد قتل أخاهم و"من قتل يقتل". لم تجدِ محاولات إقناعهم بعدم أخلاقية هذا الفعل وكم الخسة التي ينطوي عليها.

قطعت محاولات الأطباء اليائسة دفعة رصاص انطلقت لتستقر في جسد المريض المسجى على الطاولة. لم يحدث شيء للمريض في البداية فقد استمرت صدره يعلو ويهبط بفعل جهاز التخدير، وظلت رنات الأجهزة كما هي لبرهة ثم اضطربت واختلطت بنغمات تحذيرية. صدرت صرخة عالية من الممرضة البلغارية الواقفة، تبعها سقوطها على الأرض مغشيًا عليها، في الوقت الذي صمت فيه الجميع في ترقب

واختنقت في حلق حسناء صرخة ملتاعة وهي تحاول إسعاف الرجل دون جدوى".

طوت شيخة الأوراق التي فيها المقال، ثم نظرت إلى هشام بإعجاب حقيقي وهي تقول:

- المقال أكثر من رائع وكأنني عشت هناك، لكنه كما قلت لك أدبي أكثر من اللازم. قل لي هل حسناء تلك حقيقية؟

كان هشام كتومًا ولا يحب أن يحكي عن نفسه ولا ذكرياته، لكنه وجد نفسه في تلك اللحظة محتاجًا لأن يتكلم ويحكي لها:

- حسناء هو اسم مستعار لزهراء زوجتي رحمها الله، وقد حدث معها ذلك الموقف بكل تفاصيله.

١٢

في أحد المجمعات التجارية المنتشرة في حولي بالكويت يقع المحل الذي اختاره علاء شريك حسن لبدء شركتهما الصغيرة. كان النشاط الذي سيعملان به هو تجارة الأدوات الصحية والأعمال المكملة لها من سباكة وتجهيز.

كان اليوم هو يوم الافتتاح، وقد أصر حسن على دعوة "العصابة" بأكملها للاحتفال بهذه المناسبة في المحل بدلًا من المقهى. حين أخبر نهلة عن المشروع كان ردها أن تمنت له التوفيق بدعوات مسطحة لا تغادر حيز الشاشة التي تظهر عليها. على العكس كانت جانيس شديدة التحمس، تقول له إن في هذا البلد رزقًا وفيرًا لا يغترف منه إلا صاحب الهمة، وإنها حين تجرأت وعملت لنفسها تزايد دخلها. لم يثنه ذلك عن تمسكه الشديد واعتبار جانيس مجرد علاقة يملأ بها حياته الفارغة في الغربة.

سلم حسن المحل لشريكه علاء عند الظهر وخرج بالتاكسي، وقبل أن يركبه اتصل بجانيس وأكد موعده معها عند الرابعة. أخبرها بأن اليوم افتتاح المحل وهو يود الاحتفال معها بالذهاب للملاهي المائية في المسيلة.

- أتعرف، كونك تريد الاحتفال معي يسعدني أكثر من الذهاب هناك.
- حسنا نحتفل على قهوة مسعود ونوفر الدنانير العشرة.
- لا بالطبع، سأنتظرك في تمام الرابعة أمام مجمع بيروت.

بعد سويعات كانا يستعدان للنزول على زلاجة حلزونية. أصر حسن أن ينزلا عليها معًا رغم معارضة الفتى المسؤول عنها. أجلسها أمامه وانزلقا سريعًا، جرفهما انحدار الزلاجة وأغمضت هي عينيها من سرعة النزول وهي تصرخ في فرح، وضمها هو بيديه والانزلاق مستمر وتتزايد سرعته. لاحظ هو أن هناك زاوية للزلاجة يكونان فيها مخفيين عن الأنظار فانتهز الزاوية التالية ولثم شفتيها بسرعة قبل أن يسقطا في الحوض الموجود في نهاية الزلاجة.

حين خرجا من الحوض نظرت إليه وأمسكت يديه بقوة وهي تنظر في عينيه، وكأنها تريد أن تحتويه داخلها. كان شعورها جارفًا في تلك اللحظة، تتأمله وكأنها أول مرة تنظر إليه. أحست بأن تلك القبلة الخاطفة المسروقة هي إعلان حب بسيط يغنيها عن كلمة لا يزال يرفض أن يقولها.

كانت تلوم نفسها كثيرًا على حبها له وتعتبر أنه قنبلة موقوتة ستنفجر في قلبها في أي لحظة. ربما يكون في قوة نفسها واعتيادها على الصدمات ما يجعلها لا تهتم لما سيحدث غدًا، وقد علمتها الدنيا أن تأخذ ما تريد ولا تمني نفسها باستمرار السعادة.

بعد الغروب جلسا معًا على طاولة أمام حمام السباحة يرتشفان عصيرًا مثلجًا، نظرت إليه وقالت "أحبك"، فقال:

- ألم أقل لك من قبل لا تعقدي الأمور.
- أنا لا أعقدها، أنا أحبك، وأعتقد أنني بدأت أسكن حيزًا في قلبك سيتسع مع الوقت.

قالتها وأمسكت بيده وهي تكمل:

- الحب يبدأ بتفاصيل صغيرة للغاية قد لا نلاحظها في البداية، أحيانًا تظهر في شكل ارتعاشة في الصوت حين نكلم من نحبه أو في بهجة غير مبررة حين نذكر صورته أو ضحكة صافية تراودنا حين نستعيد موقفًا ضحكنا فيه معًا.
- ومن قال إنني أشعر بهذا؟
- هناك علامات أخرى لم تكن موجودة في البداية أنا أراها الآن.
- مثل ماذا يا خبيرة التجميل، أقصد يا خبيرة التحليل النفسي.

ردت بخبث وابتسامتها تتسع:

- لن أقول حتى لا تحاول أن تخفيها.
- أنا مشفق عليك وأخاف أن تصدمي فيما بعد.
- لا تخش علي، لم أعد أصدم من صغري. "لا شيء يهم فقد مات الكاراباو".

"كاراباو"، استغرب الكلمة، ولكنه بدلاً من أن يسأل عن معناها تكلم بلهجة المتفهم وقد ظن أنها تعني لقبًا لشخص مهم كالعمدة أو رجل الدين مثلًا، فقال:

- لا بد أنه كان عظيمًا وخسارته كانت صدمة.

- طبعًا، وقد وافقني أبي ولم يبعه رغم احتياجه لثمنه، ومات في النهاية في حظيرتنا.

- حظيرتكم! عن ماذا تتحدثين؟

- عن الكاراباو.

ضحكت حين عرفت ما كان يظنه، وأمسكت هاتفها وأخرجت له صورة حيوان أشبه بالجاموس، فنظر باندهاش وهو يسأل عن العلاقة بين موت هذا الحيوان وعلاقتهما، فقالت إنها كانت في صغرها متعلقة جدا بالكاراباو الذي يساعد أباها في الزراعة. كانت تدلله وتنظفه وتمشط شعره وكأنه قط أليف وكان ذلك مثار سخرية أخوتها فلا يوجد أحد يفعل هذا مع الكاراباو، فهو في رأيهم حيوان ضخم ومقرف لا يصلح أن يكون حيوانًا أليفًا وإنما للعمل فقط. كان أبوها ينهاها عن التعلق المفرط بأي كائن أو شيء أو حتى إنسان، وكان يقول لها إن ضعفها أمام ما تحب سيجلب عليها المصائب.

مرض الكاراباو وأراد أبوها أن يبيعه لأحد التجار، لكنها ملأت الدنيا عويلًا، وفي النهاية رق لها وتركه رغم علمه بخسارته المحتمة. ظلت تقضي الساعات إلى جوار حيوانها الحبيب، كانت تحس أنه يتألم وكأن خواره الضعيف بكاء لا يفهم معناه أحد. حين مات ظلت أيامًا غير مصدقة ومصدومة، وبعد أن تجاوزت حزنها حاول أبوها أن يفهمها أن تجعل هذا الفقد مثالًا أمامها، فمهما كانت فداحة الفقد فلا بد ألا

ينسينا الألم أن الحياة جميلة وأنها ستستمر وأن الأرض لن توقف دورانها أبدًا. اعتادت كلما فقدت شيئًا أو افتقدت إنسانًا أن تقول "لا يهم فقد مات الكاراباو".

نزلا إلى حوض السباحة، كانت هي تعوم حوله وهو واقف في مكانه فهو لا يعرف السباحة مثلها، وهي تشاكسه وتطلب منه أن يترك نفسه للماء. بعدها وقفت إلى جواره أسفل جسر فوق الحوض، وسألته إن كان ثمة موقف صدمه بشدة في طفولته هو الآخر.

- لم يصدمني في طفولتي أو مراهقتي إلا تعذيب نادية الجندي عندما كانت في مهمة في تل أبيب، إضافة إلى فقدان أدهم صبري لذاكرته وزواجه من سونيا جراهام.

نظرت إليه غير فاهمة، فشرح لها ما يعنيه هؤلاء لجيله فقذفت بالماء في وجهه وهي تقول:

- أنا جادة، احك لي عن شيء صدمك حقًا.
- لم يكن ذلك في طفولتي بل منذ سنوات قليلة.
- ماذا حدث؟
- هل تعرفين أن هناك ثورة حدثت في مصر؟
- أعرف أن هناك اضطرابات وأشياء من هذا القبيل.
- في أول الثورة كان هناك يوم بدأت فيه الأحداث الكبرى نسميه نحن جمعة الغضب، كنت يومها مرافقًا مع ابن عمي في المستشفى، وبعد

الغروب بقليل سمعت أن هناك إصابات وموتى. نزلت مع الناس إلى استقبال المستشفى، ولم أكن قد رأيت قبل اليوم شخصًا مصابًا برصاصة أو حتى سمعت صوت رصاصة. رأيت أناسًا مصابين على أسرة وعلى الأرض وموتى ملقَين في الطرقات، رأيت شابًا ميتًا وجرح صغير في رأسه قيل لي إنه ثقب رصاصة. كنت أظن جرحها ضخمًا وكبيرًا ولم أكن أتخيل أن ثقبا كهذا يقتل إنسانًا. كنت أشعر بأني في كابوس ورغم تتابع أحداث الثورة بعد ذلك ورؤيتي لموتى آخرين بعضهم كانوا أصدقائي، إلا أن هذا اليوم حفر شرخًا داخلي.

- وهل اشتركت أنت في الثورة بعد ذلك.
- طبعًا وأصبت أيضًا، لكن باء كل شيء بالفشل، لماذا فتحت هذه السيرة أيتها الحمقاء.
- آسفة، سأعوضك عنها.

ثم مدت قدمها تحت الماء تداعبه بطريقة جريئة جعلته يبتسم ويغير موضوع الحديث.

١٣

ترقب حدث جديد في حياتك يجعلك منفصلًا عمن حولك. يجعلك تحسب ماذا ستجنيه من ورائه وماذا ستفعل بعده، وتبني عليه آمالًا أخرى وترسم خططًا جديدة مبنية على أشياء لم تتحقق بعد. بعد تلك الأفكار المشرقة والآمال المتراصة تهاجمك "ماذا لو"، وتفكر في تتابع الأحداث الذي سيأتي إذا لم يتحقق ما تصبو إليه، تتساقط آمالك واحدًا تلو الآخر كقطع الدومينو ثم تقول لنفسك "دع المقادير تجري في أعنتها". غير أن محاولتك للتوقف عن التفكير تجعلك تبدأ الكرة من جديد؛ الأمل ثم اللا أمل ثم اللامبالاة.

كان ذلك حال هشام وهو مترقب لقرار رئيس التحرير بخصوص مقالاته، والتي إن قبلها فسيغير ذلك من وضعه بالكويت حتمًا. كان جالسًا مع حسن بين مجموعة من أصدقائه بمناسبة افتتاح المحل وهو لا يشترك معهم في الحوار إلا لمامًا، ما جعل حسن يقول له:

- مالك يا هشام؟

- لا شيء.

تدخل عبد العزيز في الحوار قائلًا:

- إنه خطؤك يا حسن فصديقك يشعر بالوحدة. لا بد أن تجد له فتاة تسليه.

ابتسم هشام بسخرية وهو يقول له: لو أن النساء يعالجن هموم الدنيا لبات الأمر سهلًا.

- هن بالطبع لا يعالجن الهموم، بل إنهن مصدر نسبة كبيرة منها، لكن وجود امرأة سيشغل بعضًا من الفراغ الذي تعانيه.

ضحك حسن قائلًا:

- من يسمع عبد العزيز يتكلم عن النساء يظن أنه خبير بهن.
- على الأقل أكثر منك، أنت تعرف الفلبينية منذ عدة أشهر، هل تستطيع أن تقول ماذا فعلت معها؟
- لا شيء، يبدو أنني سأتركها.

لم يصرح عن المدى الذي وصلت إليه علاقته بجانيس. أحس شيئًا ما يمنعه من الحديث عنها وجعْل جسدها وفراشها مادة للحديث والتندر. كأن جانيس تأخذ منعطفًا جديدًا في مسارها داخل دهاليز نفسه.

غير عبد العزيز موضوع الحديث سائلًا هشام عن الوضع في بلده وهل هذا هو سبب شروده. تحدث هشام كثيرًا وكان باديًا أن ما يحدث في ليبيا يؤثر فيه بشدة.

- يا رجل قارن بين الوضع في ليبيا وعندنا في سوريا، فهي أسوأ كثيرًا ومع ذلك لا أعيش مرتديًا لباس الهم ليل نهار.

حاول هشام أن يبرر ذلك بأن عبد العزيز من مواليد الكويت التي تعتبر فعليًا بلده الأم، فلن يكون إحساسه بسوريا قويًا كإحساس هشام بليبيا. ليس له ذكريات طفولة أو صبا فيها، لم ترسم حجارتها جرحًا في جبهته ولم تحرق رمالها عينيه في يوم عاصف. لم يأته ذلك الإحساس الذي تريد فيه الخروج من بلدك لأنك مللت كل شيء فيها ثم حين تبتعد عنها يصير ذلك الملل حنينًا عميقًا. أضاف إلى ذلك أنه شارك في الثورة وكاد يموت دفاعًا عن مستقبل ضاع بين زخات الرصاص والقذائف.

- أنا ولدت في الكويت ولكنني لم أشعر بها بلدي الأم. أشعر بأنها زوجة أب، حتى لو اتَّقت الله في ابن زوجها فلن تعامله أبدًا كولدها.

- لا تؤاخذني ربما كان كلامي سببه حماسي الزائد، أو غيرتي كليبي حين أرى الناس يهتمون ببلدك وبغيرها ولا يعرفون أدنى شيء عما يحدث في بلدي.

رد عليه علاء قائلاً:

- أعتقد أنك ستحبني يا هشام، فأنا لا أفقه شيئًا عما يحدث في أي بلد ولا حتى مصر.

قال حسن:

- أنت لا تفهم شيئًا في الدنيا ولا تهتم بشيء خلاف الأكل والتجارة. أتمنى أن أضبطك مرة واحدة تتكلم عن النساء أو الكرة أو السياسة، مرة واحدة قبل أن أموت.
- أنت كاذب، لقد تكلمت معك عن فتاة ذات مرة.
- نعم، كنت تحكي عن دهشتك من مهارتها في عمل المحشي رغم أنها إثيوبية.

أثار ذلك التعليق عاصفة من الضحك بينهم، كان علاء يعشق الطعام والتفنن فيه والحديث عن طرقه المختلفة. غير ذلك كان يحب التجارة والشراء والبيع، ومنذ وصل إلى الكويت كان لا يكف عن بيع منتجات من هنا وهناك وربما كان حماسه الشديد للتجارة هو ما جعل حسن يشاركه.

عاد عبد العزيز لفتح موضوع الأوطان ثانية والمقارنة بينها، فقال له هشام:

- يا أخي الحبيب ليس من المفيد أن يتفاخر كل منا بكمية الخراب في بلده. نحن جميعًا هاربون هنا نلتمس الرزق والأمن.

في الحقيقة حافز عبد العزيز لفتح الموضوع مرارًا هو أنه لم ينل راحة الإفصاح عن كل ما في صدره، فما زال هناك موقف لم يحك لأحد عليه. كان مسافرًا من الرقة إلى الشام (دمشق) لإنهاء بعض الأوراق وصادفه حاجز عسكري تابع للجيش النظامي. أشار له الضابط المسؤول بالنزول هو وشاب آخر ثم أشار للسيارة باستكمال سيرها. أشار

الضابط إلى بعض جنوده ففتشوهما وتفحصوا أوراقهما ثم اصطحبهما جنديان إلى مكان قريب. قيدوا يديهما خلف ظهريهما ثم توالت الأسئلة المصحوبة بشتائم مقذعة.

كان هو يقسم إنه لا ناقة له في الحرب ولا جمل، وإنه يتمنى أن يقضي الله على الجماعات التي تريد خراب سوريا. كان فزعًا يقول أي شيء بينما الشاب الآخر يرد على قدر السؤال إلى أن جاء جندي ثالث وقال لزميله شيئًا ما لم يتبينه هو. فوجئ بعدها بالجندي يرفع فوهة رشاشه تجاه رأس الشاب الواقف ثم أطلق رصاصة واحدة تهاوى الشاب على إثرها.

لحظتها كان الذهول المخيم عليه يجعله فقط يتساءل كيف استطاع الجندي أن يجعل الرشاش يطلق طلقة واحدة وهو اعتاد على رؤيته في الأفلام يطلق زخات، ولماذا طلقة واحدة هل شح الرصاص معهم؟ حتى الآن لا يعرف لماذا كانت تلك الأسئلة هي ما يشغل رأسه وهو على وشك الموت.

طلب منه الجندي أن يحفر ليدفن القتيل ولم يجد بدًا من الانصياع. كان يحفر وينظر بطرف عينه لجثة الشاب وخيل إليه أنه رأى رعشة في قدمه فتوقف عن الحفر. سبه الجندي وهو يسأله لماذا توقف، فقال إنه أحس أن الفتى يتحرك، فقال له الجندي إن هذا لا يهم فلو تبقت فيه الروح فستخرج حين يخنقه التراب.

أخذوه معهم بعد ذلك إلى أحد السجون. بقي فيه ثلاثة أيام كانت على قلبه كألف سنة. هناك تكلم مع أحد الحراس الذي عرفه من لهجته، وتصادف أنه من الرقة وأن له أصدقاء من عائلة عبد العزيز. وعده الرجل بالمساعدة والحقيقة أنه وجد الكثير من الحراس طيبين وليسوا بالسوء الذي يتخيله.

في اليوم الثالث سرت شائعة في السجن أن الجيش يرتب لانسحاب من أحد المواقع لصالح داعش، وأنهم سيأخذون مجموعة من المساجين ويلبسونهم الزي العسكري ويضعونهم طعمًا لداعش لينشغلوا بهم وبطرق ذبحهم عن مطاردة الجنود الحقيقيين. أصيب بالفزع وصار يولول كالنساء حتى أنقذه ذلك الحارس من هواجسه بعد أن حصل له على إذن بالإفراج عنه.

لم يقص ذلك على أحد ولا حتى على ابن عمه الذي سافر معه، فقد كانت تفاصيل هذه الأيام أصعب من أن تحكى، كما أن كتمانها مؤلم ومرارتها في القلب لا تزول. قطع أفكاره صوت خالد وهو يقول:

- فضكم من هذا الحديث الممل عن الخراب. اسمع يا عبد العزيز، أريدك أن تعرفني إلى الرجل الذي يؤجر غرفًا في فندقه لاستعمال النساء.

١٤

- احكِ لي يا عم راجو عما يضايقك. قد أساعدك.
- أنت طيب القلب يا ولدي، لكن مساعدتي صعبة عليك.
- أنت تحكي والهم يقل ثقله على قلبك.

ذلك كان فحوى الحوار الدائر منذ الصباح الباكر بين هشام وراجو زميله الهندي العجوز. صارت بينهما الآن لغة مشتركة أقرب للعربية، لكن مع قلب قواعدها النحوية وإزالة "ال" التعريف وإضافة الكثير من أسماء الاشارة وحروف الجر. بعد إلحاح طويل بدأ الرجل يحكي باقتضاب عن ابنته الوحيدة التي ستتزوج بعد أسبوع وهو لا يملك ثمن تذكرة ليسافر الهند ليكون معها في يوم عرسها.

- وما الذي منعك أن تدخر ثمن تذكرة لهذه المناسبة؟

سأله هشام، وبعد أن خرجت كلماته من فمه أحس بسخف سؤاله وأنه كان لا ينبغي أن يحرج الرجل هكذا، لكن الرجل لم يبد عليه الضيق من السؤال وأجابه بلهجة عادية:

- معاشي يكفي بالكاد مصروفات عرسها. لا تشغل بالك كثيرًا يا ولدي فقد اعتدت على ذلك.

قالها بطريقة شقت قلب هشام رغم أنها قيلت وكأنها من المسلمات، هذا الرجل محروم من فرحة عمره ويعتبر أن حرمانه شيء عادي، وكأن الدهر انتقاه هو وأمثاله ليعاقبهم كجزء من طقوسه المعتادة.

يسترسل الرجل بعد ذلك في الحديث. يحكي عن زوج ابنته وأنه شاب ممتاز لا يعيبه غير أن أسرته كانوا جشعين معهم في اتفاقات الزواج، منتهزين فرصة أنه (والد العروس) يعمل في الكويت. وافق على كل طلباتهم لأنه يرى أن زواج ابنته بشاب كهذا فرصة لا تعوض، والفتاة تحبه أيضًا. عندهم في كيرلا لا يتحمل والد العروس الكثير من النفقات فقط، بل ويلبسها ذهبًا تكون كميته موضوع تفاوض طويل بينه وبين أهل الزوج المستقبلي.

ربت هشام على كتفيه وقد راودته فكرة قد يساعد بها الرجل لكنه لم يفصح عنها. تركه وصعد إلى مكتب رئيس التحرير ليعرف رأيه في المقالات. قابلته شيخة بابتسامة عريضة وهي تسأل عن أحواله.

كانت ابتسامتها دومًا تشرح صدره. كان سحرها يكمن في أنها بدلاً من أن تعكس همومها على الآخرين فإنها تجعلها طاقة إيجابية تتدفق منها لتزيل الكثير من الغمام الذي يغلف قلوبهم. صارحها مرة برأيه فاحمر وجهها خجلًا وقالت إنه يبالغ وإن حقيقة الأمر أنها تعشق المرح؛

تريد أن تحيا كالعصافير لا تحمل همًا لكن الدنيا لا تعطيها تلك الأمنية طوال الوقت.

بعد دقائق كان يجلس أمام رئيس التحرير وهو متوتر يفرك فخذه بسبابته اليمنى منتظرًا الرجل ليبدأ بالحديث.

- كتاباتك جيدة يا هشام؛ مليئة بالتعابير الأدبية ولكن...

صمت الرجل برهة ثم أكمل:

- ليس عندي متسع في جريدتي لهذا النوع من المقالات، علاوة على أن الشأن الليبي بهذه التفاصيل الدقيقة لا يهم القارئ هنا كثيرًا.

شكره هشام وخرج من عنده مكفهر الوجه. رأته شيخة هكذا وهو متوجه للمصعد دون أن يخبرها عما حدث. نادته وطلبت منه الجلوس قليلًا فتعلل بأنه يريد النزول حتى لا يترك مقعد فرد الأمن شاغرًا وقتًا طويلًا، ألحت عليه أن يجلس لكنه أصر على النزول، فقالت له إنها ستنزل لتجلس معه في مدخل المبنى إذا أصر على النزول، فقال بلهجة حادة:

- أنا مقدر لأخلاقك العالية، لكن لا أحب أن يعاملني أحد وكأنني مسكين يريد من يحنو عليه ليل نهار.
- جميعنا مساكين في هذه الدنيا نحتاج من يحنو علينا.

قالتها بلهجة عاتبة ثم تركته وتوجهت لمكتبها، وتركها هو وركب المصعد ونزل به للأسفل، وما إن وصل إلى الدور الأرضي حتى شعر بموجة من الضيق تجتاح صدره وأحس أنه كان فظًا دون أي مبرر.

مد قدمه خارج المصعد ثم تردد لوهلة. عاد أدراجه ثانية وضغط الزر الذي يحمل رقم طابقها. دخل عليها قائلًا:

- هناك مسكين حقيقي يحتاج من يحنو عليه.

نظرت إليه صامتة وعلى وجهها مسحة من العتاب، فاعتذر إليها عن طريقته في الكلام وتحجج بأنه كان مستاءً من عدم قبول مقالاته. سألته عن ذلك الذي يحتاج المساعدة فقص عليها حكاية راجو. تأثرت بما قاله خاصة وأنه كان يحكي وكأنه هو من يعاني. فتحت حاسبها وهي تسأله:

- في أي مكان في الهند هو؟
- أعتقد أنه قال كيلا أو كيرا.
- تقصد كيرلا.
- نعم هي كيرلا.

بحثت في مواقع حجز الطيران ووجدت أن التذكرة ستكلف مبلغًا بسيطًا، نقرت بأظافرها على سطح مكتبها وهي تفكر ثم قالت:

- أنا أستطيع أن أجمع ثلثي المبلغ من صديقاتي، سأقابلهن غدًا في حفل افتتاح مجلة جديدة تشرف صديقة لي على قسم التسويق فيها.

تحمس جدًا لفكرتها، ونوى أن يحدث حسن والقلة التي يعرفها هنا كي يتبرع كل منهم ولو بمبلغ بسيط. قام مغادرًا لكنها استوقفته وطلبت منه أن يحضر ذلك الافتتاح. حاول الاعتذار لكنها أصرت ولم

يشأ أن يغضبها ثانية فأومأ بالموافقة وهو خارج من مكتبها. تناول هاتفه وطلب حسن وحكى له قصة راجو طالبًا منه المساهمة.

- هل جننت، هناك الكثير من المحتاجين الحقيقيين أسبابهم قوية وليست حضور زفاف، ما المهم في أن يحضر هندي زفاف ابنته؟

- الموضوع لا يستحق السخرية، ستدفع، وأخبر أصدقاءك إذا أراد أحد أن يساهم.

- سأقول لهم رغم ثقتي بأنه لن يوافق أحد.

١٥

رن هاتف جانيس عدة مرات وهي منهمكة في عملها مع إحدى زبوناتها، ما جعل المرأة تطلب منها أن ترد وهي تقول إنه لا بأس بذلك. كانت هذه الزبونة طيبة لطيفة المعشر وكانت جانيس ترتاح إليها. قالت:

- صديقي هو الذي كان يتصل ولا أود أن أرد عليه.
- لا بد أنه أغضبك بشدة، هكذا هم الرجال مصدر الأرق والقلق. لا تأتيك من وراء الرجل فرحة إلا وبعدها يرميك بضعفها همومًا.
- وكأنك تحكين عن علاقتنا.
- كل الرجال سواء. ماذا حدث بينكما؟

قصت عليها جانيس علاقتها مع حسن من بدايتها ولحظات السعادة والإحباط التي تجدها معه، وكيف أنه لا يريد لتلك العلاقة أن تكون جدية رغم أنها تحبه كثيرًا.

- يا لحماقته.

أكملت حديثها وهي تقول إنها هي من يبدأ الرسائل ومن يطلب اللقاء، ولو ظلت طول اليوم لا تكلمه فلن يتذكرها ولو برسالة صغيرة. هذه المرة استجمعت إرادتها ولم تكلمه أو تراسله أربعة أيام وهو لا يهتم، وفي النهاية أرسلت إليه رسالة تلومه بشدة على تجاهله، ومن ساعتها وهو يحاول أن يكلمها وهي لا ترد.

- أحسنت يا جانيس، التجاهل هو أقوى سلاح تستخدمه المرأة مع الرجل، لكن لا بد أن يستخدم بحساب.

- كيف؟

- أنت الآن أغلقت الهاتف، وأنا متأكدة أنه قد جن جنونه وأنه أيضًا - وهذه سمة في الرجل العربي- يكيل لك السباب والشتائم بينه وبين نفسه. وما يتعين عليك فعله هو أن تتركيه حتى يبرد انفعاله ويتبقى احتياجه لك فقط. عندها (أي بعد ساعتين مثلًا) افتحي هاتفك وردي عليه بلهجة حزينة بائسة. سيعتذر بانشغاله وأن حياته ومستقبله على المحك، وهذا لا علاقة له بنوعية عمله فكل الرجال يستخدمون هذه الحيلة لتبرير انشغالهم عن نسائهم. ستتظاهرين بتقبلها وتحاولين إنهاء المكالمة لكنه لن يتركك تنهينها، وعندها هاجميه أنت وقولي كل ما يضايقك منه بحدة ثم أنهي مكالمتك معه. إذا كان حريصًا عليك فسيتصل ثانية، وفي تلك المكالمة استخدمي دموعك.

- وإذا لم يتصل؟

- ساعتها ستعرفين أنه وغد وانهي علاقتك به تمامًا. كوني قوية واعلمي أن البشر مطبوعون على الاستخفاف بما يضمنون أنه في أيديهم.

بعد نحو ساعة من العمل طلبت المرأة منها أن تفتح هاتفها، وما إن فتحته حتى جاءها اتصال من حسن وحدث ما توقعته المرأة بالضبط، إلا أن جانيس كانت أخف وطأة على حسن مما طلبت المرأة بل وافقت على لقائه في الليل. كلمات قليلة منه غيرت مزاجها وأنستها كل وعيدها.

- أنت تحبينه حقًا، وتلك مشكلة لأنه إذا لم يحببك بالقدر نفسه فستتعذبين كثيرًا.

لم تعرف كيف ترد، فهي تعلم أن من يحب بصدق يتجاوز عن بديهيات لا بد أن تكون موجودة في أي علاقة. لو تجاهلنا من نحب لالتمسنا ألف عذر، ولو تذكرنا برسالة صغيرة لأقمنا لها نصبًا تذكاريًا في أوسع ميادين قلوبنا. عندما تصل التنازلات إلى مدى خطير، نتخذ إجراءات بائسة للحفاظ على ما تبقى من كرامتنا. نقيم حظر تجول تكسره أول ابتسامة عابرة، ننصب أسلاكًا شائكة تمزقها أول كلمة حانية أو شبح اعتذار.

بعد أن أنهت عملها نزلت على عجل لتجده ينتظرها بسيارته، وقابلها هو مكررًا اعتذاره عن تجاهلها لكنه في الحقيقة كان يكذب. حين لاحظ أن عمله الجديد مع علاء يزدهر بسرعة وبدأ يحس أنه ولأول مرة سيكون ناجحًا في حياته وأنه من الممكن أن يصارح نهلة بحبه لها ويطلب منها الارتباط، عندها برزت في ذهنه مشكلة جانيس التي بدأت تحبه.

ندم على أشياء صغيرة فعلها مع جانيس كان متأكدًا أنها سببت تعلقها به أكثر. الشيطان يكمن في التفاصيل، وشيطان الحب أكثرهم مهارة في الاختباء في تفاصيل الحياة الصغيرة التي لا نعرف قيمتها إلا حين نفترق وتتلاشى من أذهاننا أركان العلاقة الأساسية وتبقى التفاصيل الصغيرة تعذبنا حين نذكرها.

يهتم حسن كثيرًا برأي الناس فيه ويهتم أكثر برأيه في نفسه ولا يحب أن يبدو كوغد تلاعب بامرأة ثم رماها. آفته أنه يريد تبرير نفسه وتبرئتها حتى حين يقدم على فعل يتسم في رأي الكثيرين بالخسة. ومع ذلك يبدو أن حسن بدأ يعاني من التفاصيل الصغيرة هو الآخر وليس تبرير نفسه هو الدافع الوحيد خلف سعيه لإرضاء جانيس.

كان حسن قد فاجأها باستئجاره غرفة لهما في فندق يغض الطرف عن نوعية العلاقة التي تربط بين من سيبيتون في الغرفة. قالت له إنها مجهدة وإنها تريد النوم وهي من داخلها ترقص طربًا لأنه اتخذ تلك الخطوة.

بعد انتهاء عشائهما في الغرفة وحين خلع قميصه سألته جانيس:

- ألن تقول لي ما سبب هذه الندبة أعلى ذراعك؟

لوح بيده في ضيق وهو يطلب منها أن تنسى أمر تلك الندبة السخيفة، ولكنها أمسكت ذراعه بدلال واقتربت منه وهي تضغط ذراعه عند الندبة فانتفض فجأة كالملدوغ، وأشاح بذراعه بقوة وابتعد

عنها وقد بدأ وجهه يتصبب عرقًا واحمرت عيناه. فوجئت هي بردة فعله العنيفة فحاولت الاعتذار فقال لها بعنف:

- ابتعدي عني الآن.

نظرت إليه مذهولة ثم تركته ودخلت الحمام. بدأ هو يلتقط أنفاسه وتزول عنه الأعراض التي تعتريه كلما شعر بألم في ذلك المكان. من داخل الحمام سمع صوت نحيبها فطرق الباب، لكنها قالت ابتعد عني سأبيت ليلتي هنا. حاول أن يعتذر دون جدوى وفي النهاية جلس أمام الباب قائلًا:

- حسنا سأجلس هنا وأحكي لك عن سبب الندبة وسبب سلوكي الغريب.

كان جالسًا يفصل بينه وبين جانيس باب الحمام الـ "أكورديون" الرقيق، وحين بدأ يحكي لها جلست هي على أرضية الحمام تستمع إليه.

- أنا أعاني من أعراض تحدث لي حينما أحس بألم في ذراعي ولا أشعر لحظتها بنفسي، وهذا بسبب الظروف التي حدث فيها هذا الجرح، الذي أصبت في أواخر عام ٢٠١١. كنا عصرًا وكان اليوم هو الرابع من اشتباكات بيننا وبين الشرطة. كان الهواء قد تغير تركيبه فأصبحت النسبة الأكبر منه غازًا مسيلًا للدموع. كانت المواجهة بين قطع الحجارة التي في أيدينا من جهة ورصاصهم من جهة أخرى. رغم الموت والإصابات كنا نحس أننا المقاتلون الذين ثبتوا حين تخاذل الجميع. أقول لك الحقيقة كان أكثرنا مدفوعًا بإحساس أنه

أمسك بيديه أملًا في المستقبل، وأن هناك طغمة حاكمة وكومة من العجائز لا يريدون لذلك المستقبل أن يأتي. ومع تطور الأحداث وسقوط الضحايا لم نعد نفكر في ذلك قدر ما كنا نعيش نشوة إحساس المحارب المحاصر الذي ليس لديه شيء ليخسره.

- رومانسيون.

- لا يا جانيس، لم تكن رومانسية أو حبًا للوطن بقدر ما كانت معركة بقاء؛ كل واحد منا وصل قبل الثورة إلى مدى من اليأس لا يمكن تصوره، ولذا حين لاحت لنا بارقة أمل تعاملنا معها كالغريق الممسك بطوق نجاته. أنا مثلًا استمررت في التواجد بالشارع بعد أن أصيبت ذراعي والضمادات عليها، ولم أشعر بألم إلا بعد نهاية الحدث. عندما عدت لبيتي وشاهدني والدي صب جام غضبه علي، ونعتني بما ينعتنا به كل من هم في جيله بأنني ساذج وأنفذ خطة لأناس يحركوننا كالدمى لنخرب بلدنا، إلى آخر ذلك من الكلام المهترئ.

أزاحت جانيس جزءًا من باب الحمام حتى تراه وهو يحكي. كانت جلستهما متماثلة وجهه أمام وجهها وإن كانت هي في مستوى أعلى قليلًا. سألته:

- وماذا عن رد فعل والدتك؟

- أمي انهارت باكية وأصرت أن نذهب إلى أمهر الأطباء ليعالج ذراعي. أجريت جراحة لاستخراج قطع الخرطوش من ذراعي، وأصيب

فيها جزء من عصب قال لي الطبيب إنه لا يؤثر على وظيفة ذراعي. لكن ظل ذلك العصب يؤلمني إذا ضغط أحد عليه. ليس ألمًا عاديًا بل إحساسًا بكهرباء تسري في ذراعي بالكامل مصحوبة بسيخ حديدي ساخن يمر عبر اللحم.

فتحت الباب أكثر لكنها لم تقم من مكانها. مدت يدها وربتت على وجهه وفي وجهها نظرة اعتذار دون أن تنطق. أمسك يدها وهي على وجهه وقال:

- لم يكن في البداية لدي رد الفعل العنيف لألم ذراعي ولم تكن تنتابني تلك الأعراض. بعد انتهاء تلك الحادثة لم أيأس واستمررت مع عدد أقل في محاولتنا اليائسة لتغيير الواقع، ولم يثن من عزمنا أن كل السياسيين من اليمين لليسار كانوا ضدنا، وحتى الناس العاديون كنت أسمعهم في الشوارع وفي المترو ينعتوننا بأقذع الأوصاف.

أزاحت يدها عن وجهه وهي تقول له إن السياسيين جميعهم فاسدون وكاذبون وهم كذلك في بلدها، ثم تساءلت عن سبب يأسه وسفره بعد ذلك.

- حين كنا في مظاهرة ووجدت الناس يهاجموننا والنساء تقذفنا من الشرفات بما في أيديهن. أدركت الحقيقة لحظتها. لقد تغير الناس علينا وكرهونا، وهم معذورون، فالشيوخ والقوادون والجلادون يقولون عنا الكلام نفسه فكيف لا يصدقونهم، خاصة والكلام يوافق هوى في نفوسهم البائسة التي تنشد الاستقرار ولو على حساب الحرية. بدأت كلما شعرت بألم في ذراعي أشعر وكأنني

محاصر وأستنشق غازًا مسيلًا للدموع، يحرقني أنفي وتدمع عيناي وأشعر بألم شديد في كل موضع دخلت فيه جسدي طلقة. قال الأطباء إن حالتي تسمى بكرب ما بعد الصدمة لكنني أعرف أكثر منهم، أعرف أن جسدي يعاقبني على ما فعلت به مقابل لا شيء.

قالها وقام من مكانه ليصب لنفسه كوبًا من الماء. جلس يشربه على كرسي صغير. خرجت هي من الحمام واقتربت منه وهي واقفة ثم أمسكت برأسه وضمته وهي تمسد شعره.

- الكارثة حين تداهمني تلك الأعراض وأنا مع امرأة في الفراش، ساعتها يبدو شكلي سيئًا للغاية.

انفجرت ضاحكة ثم قالت وهي تبتسم بخبث:

- أنت سيء بغض النظر عن تلك الأعراض.
- حقًا؟

قالها وانهال عليها بأسلحته التي جعلتها تسلم نفسها وتفتح حصونها كلها دفعة واحدة. كانت تلك المرة لها وقع مختلف في قلبها، فلا شيء يجعل المرأة تشعر بالرجل مثل تعرية روحه أمامها وكشفه لها عن ضعفه وآلامه؛ تحس أنه ملكها وأن اللحظة بينهما تضم ألف معنى غير اللذة الجسدية.

- لقد أسعدتني للغاية، ما تفعله أنت مختلف تمامًا عما رأيته مع أي رجل غيرك.

توقفت قليلًا لتهدأ أنفاسها المتلاحقة ثم أكملت:

- أنت تهتم جدًا بفعل ما يرضيني، وتقرأ جسدي وانفعالاتي بطريقة مدهشة.

اتسعت ابتسامته دون أن يعلق، ولكنها ما لبثت أن تلاشت حين قالت له إنه رغم ذلك فطريقته تلك ليست مثالية تمامًا، فرد عليها بضيق:

- ماذا تعنين؟

- أنت تتعامل معي كأنك ترسم لوحة فنية وتريد أن تجعل منها رمزًا للإبهار. لكنك تنسى أنني لست لوحة جامدة، فكما أنني أسعد جدًا باهتمامك بإرضائي وإعطائي كل شيء فأنا أيضًا أريد أن أرى سحري عليك، أريد أن أراك وقد أثرت بك، أريد أن أحس ارتعادك بين ذراعي وأكون متأكدة من أنني أنا من فعلت ذلك.

ختمت كلامها بقبلة على وجنته وهي تقول إنها كانت تصلي صباحًا في الكنيسة، وتمنت له التوفيق في عمله وتمنت أيضًا أن يظل معها. ابتسم بسخرية وهو يتذكر أنه كان يصلي الجمعة اليوم. وقال لنفسه كلانا كان يصلي لله أول اليوم ويعصيه آخره، ثم جاءه خاطر آخر فقال لها:

- ألم تفكري في الصلاة لله بطريقة أخرى أفضل؟

- ماذا تعني؟

- أعني أن الإسلام مثلًا هو أكثر الأديان منطقية في التواصل مع الله؛ ألم تفكري فيه من قبل؟

نظرت إليه بحيرة، لم تدر ماذا تقول فقد فاجأها بقوله ذلك، فاكتفت بهز كتفيها دون أن تتحدث، لكنه استمر في الكلام وهو يقول إنه يحترم جميع الأديان لكن الإسلام بالنسبة له منطقي في حين أن الأديان الأخرى فيها ثغرات كثيرة، وأنه الدين الخاتم الذي أكمل الله به رسالته لعباده. ازدادت حيرتها من كلامه وردت عليه قائلة:

- هل ترى أن هذا مكان أو وقت مناسب. ألا تشعر بأنك تناقض نفسك حين تحدثني عن الله والإسلام ونحن عاريان في الفراش؟

بهت لردها ولم يحر جوابًا، وتنبه إلى حقيقة أنه آخر من يدعو إلى الله في هذه اللحظة بالذات. حين أعاد التفكير في كلامه ثانية أحس أنه يهين فكرة الدعوة إلى الله برمتها حين يتكلم عن عظمة الإسلام ومنطقيته في موقف كهذا، وأكملت هي قائلة:

- قلت لك إنك عنصري ولم تقتنع.

- لا عليك، لم أطلب منك أن تتحولي للإسلام، إنما هو خاطر جاء برأسي فأحببت مشاركته معك.

١٦

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها هشام إلى الأفنيوز ذلك المول التجاري الضخم. المختلف هذه المرة هو ذلك الزحام المبالغ فيه، فهو لم يأت من قبل في أيام العطلات. أنقذه من ذلك الزحام واختلاط الاتجاهات عليه رؤيته لشيخة، التي أشارت إليه بالاقتراب وقدمته لاثنتين من صديقاتها، كانت الأولى متفرنجة مثلها وتدعى سلوى والثانية كانت محجبة اسمها مها، وهي منظمة الحدث الذي هم بصدد حضوره.

رغم أن مكان الاحتفالية يفترض أن يكون صاخبًا إلا أن صخبه كان ضائعًا وسط الصخب الأصلي للأفنيوز. عرفته أيضًا إلى شاب قالت إنه مسؤول في إحدى المجلات واسعة الانتشار في الكويت، وطلبت منه أن يحكي له عن سلسلة المقالات التي يكتبها.

تركتهما واتجهت نحو صديقتها سلوى التي قالت لها وهي مبتسمة:

- هشام هذا إما خجول جدًا وإما مغرور جدًا، ويبدو لي أن لديه سرًا كبيرًا.

- عرفت ذلك من الدقائق القليلة التي تكلمت معه فيها؟
- ومع ذلك فهو شاب وسيم ومهندم.

قالتها بخبث فضربتها شيخة على كتفها وهي تقول لها إنها لا تفكر بهذه الطريقة، وإن هشام صديق بحق تستمتع بصداقته ولا تريد أن تذهب الأمور إلى اتجاه آخر. شيخة في أوائل الثلاثينيات ولم يحالفها الحظ في ارتباط حقيقي. توفيت أختها في حادث سيارة هي وزوجها وتركت طفلة تعتبرها ابنتها تعيش معهم في بيت العائلة.

كانت عائلة شيخة منفتحة، تعليم والديها الغربي جعلهما يؤسسان عائلة حداثية غربية الهوى. مع ذلك كان أول ارتباط لها خطبة تقليدية تمامًا من أحد أبناء عمومتها. استمرت الخطبة أشهرًا قليلة انتهت بأنها طلبت فسخ الخطبة لأن عريسها كان "باردًا ثقيل الظل"، وهي حجة لا مجال لها في المعتاد لكن لأنها كانت المفضلة عند أبيها لم يتوان عن فسخ الخطبة إرضاءً لها.

كان أبوها كل حياتها وكانت دومًا تخبره بأنها لن تتزوج إلا رجلًا مثله، وحين رأت "بدر" أيقنت أنه هو المناسب وهو أقرب الشباب لسمات أبيها. أحبته وأحست معه أنها في أفق آخر من السعادة، وأن قصتهما ستكون قصة الحب الوحيدة المثالية بين رفيقاتها. كانت عنيدة، ولذا حين رفض بدر ذهابها لدبي لشراء ملابس وإكسسوارات لاقتراب عرسها ناقشته كثيرًا وراجعته، وحين أصر على رأيه لم تأبه لذلك.

في المطار هاتفته وقالت له إنها في انتظار الطائرة التي ستقلها إلى دبي، وكان رده أن طلب منها أن تنتظر فهو قادم لتوديعها. ابتهجت لذلك جدًا وبعد أقل من ساعة كانت جالسة في مقعدها في الطائرة تبكي بحرقة، بعد أن جاء بدر وقال لها إنه ليس لعلاقتهما مستقبل وإنه كان يتمنى أن تكون له ولكن الأفضل أن تنتهي الأمور الآن بدلاً من أن يتجها لزواج مأساوي. كان بالفعل قادمًا لتوديعها كما قال لكنه كان الوداع الأخير.

عادت من دبي بعد يوم فقط من وصولها، يوم لم تبارح فيه غرفتها في الفندق تعيد التفكير في سبب خسارتها للإنسان الوحيد الذي أحبته، وهل كانت هي السبب أم أنه بالغ كثيرًا في رده فعلاً، وأنه استدعى "الكبرياء الذكوري الفارغ الذي يملأ رؤوس الكثيرين من الرجال".

بعد تلك المحنة اندمجت في عملها بشدة إلى أن وصلت إلى موقعها الحالي في الجريدة على صغر سنها. من جهة أخرى اتجهت إلى هواية شغلت الكثير من وقتها. كانت نشطة جدًا على الإنستاجرام، وكانت منشوراتها على ذلك الموقع تلقى قبولًا كبيرًا لدى قطاع عريض من الفتيات. تجاوز عدد متابعيها مائتي ألف وبدأت العروض لاستغلال منشوراتها في الدعاية.

كانت تلك طريقة متبعة في التسويق هذه الأيام لكن شيخة كان لها رأي آخر، واستمرت بتقديم منشورات فقط عما يعجبها ولا تتقاضى فلسًا عن ذلك، بل إنها احتدت على صاحب دار أزياء حاول أن يهديها

لأنها كتبت منشورًا عن منتجاته. قالت لها مها ذات يوم "أنت حمقاء، انظري إلى الفتيات الأخريات كم يتقاضين مقابل كل منشور". وكان ردها لكل من يفاتحها في هذا الموضوع "النقود آخر همي، أنا لست مثالية ولكن أحب أن أكتب وأنشر ما في بالي فقط، أحب أن يعرفني الناس على أنني شيخة الصحفية والناشطة لا المسوقة".

مضت الليلة والحدث وهي تتابع هشام من بعيد وقد انهمك في حوار مع الرجل الذي عرفته إليه. أمسكتها سلوى من كتفها قائلة بتهكم:

- هل من المتبع بين الزملاء أن تتابع الواحدة زميلها بعينيها أينما ذهب؟

- طبعًا إذا كان جديدًا على المكان.

- لا داعي للإنكار يا بنيتي أنا ألمح شرارة هنا تحاول الاتقاد. هل تمنعينها لأنه لبي، لعلمك هم أقرب الشعوب العربية للخليجيين، وقد يكون للارتباط بلبي فرصة في القبول.

تجاهلتها شيخة وتركتها متوجهة لهشام الذي أنهى كلامه مع الشاب الذي كان يحادثه. قال لها إنه قد وافق على نشر ثلاثة مقالات كعينة اختبار لتفاعل القراء مع الفكرة، وإذا كان ثمة تفاعل جيد فسوف ينشر البقية وذلك دون أجر.

- لا يهم، فالمهم الآن أن تبني اسمًا.

- ولا حتى ذلك، فقد نصحني أن أكتب باسم مستعار في البداية.

- عادي جدًا، المهم أن يكون هناك تفاعل وأنا واثقة من ذلك.

ترجل بعد ذلك معها إلى مكان آخر جلسا يحتسيان القهوة فيه، وهي تخبره أنها استطاعت جمع ثمن تذكرة للهند لراجو ليتمكن من حضور عرس ابنته. كاد يرقص طربًا لذلك الخبر ثم قال لها:

- وماذا سأفعل أنا بالتبرع الذي سأجمعه؟
- أعطه له لينفق منه في سفره ويشتري هدايا.
- أنت أكثر من رائعة.

احمر وجهها خجلًا لإطرائه وهي تقول إنها لم تفعل شيئًا. قبل أن تنهي كوب قهوتها وجدت رسالة على هاتفها من سلوى تقول:

"أراك تجلسين معه. أعرف بالطبع أن هذه جلسة عمل بين زميلين ولذا لن أقاطعكما".

ما إن ابتسمت لرسالة صديقتها حتى جاءتها رسالة أخرى:

"ابتسامة عمل بالطبع هههههه، سلام الآن، أراك على خير".

١٧

"لقد نزفنا ونحن نزحف من بركة الوحل التي عشنا فيها ما يقارب نصف القرن، لكننا خرجنا منها لمستنقع تختبئ تحت مياهه الراكدة وحول أكثر عمقًا وظلمة".

كانت تلك هي الجملة التي اختتم بها هشام مقاله الخامس الذي أنهاه وأرسله إلى شيخة ليأخذ رأيها فيه. بعد أن أنهت قراءته رددت تلك الجملة بصوت عال بإعجاب شديد. ضغطت على أزرار جهازها لتأخذ صورة للشاشة وبها تلك الجملة، ثم وضعتها على صفحتها على الإنستاجرام وكتبت عليها "مقال رائع ترقبوه في العدد القادم من مجلة عيون".

تناولت هاتف مكتبها وطلبت هشام الذي كان يجلس في باب البناية لكنه لم يرد. انتظرت قليلًا ثم طلبته ثانية ولم يجبها. أمسكت هاتفها المحمول وحاولت أن تكلمه، وحين لم يأتها رد أرسلت إليه رسالة ولم يرد.

مرت نصف ساعة ثم وجدته أمامها مكفهر الوجه يطلب أن يقابل أبا مشعل دون أن يلقي عليها التحية أو يحدثها عن سبب غضبه. في

المقابل لم تسأله عن شيء وطلبت الإذن له من رئيس التحرير الذي طلب منها أن تدخله على الفور.

في الغرفة بدأ هشام الحديث مباشرة دون أي مقدمات:

- أنا أشكر لك الفرصة التي أتحتها لي بالعمل معكم، لكن يبدو أنني لن أستطيع الاستمرار في العمل وربما في الكويت كلها.

نظر إليه الرجل بتعجب وهو ينحي بعض الأوراق جانبًا، وطلب منه أن يهدأ ويخبره بالسبب. حكى عن موقف حدث للتو، فقد خرج موظف يعمل بشركة في البناية نفسها وفوجئ بوجود سيارة تغلق عليه طريق الخروج، فعاد لهشام وأمطره بسيل من اللوم. حاول هشام في البداية التحكم بأعصابه لكنه في النهاية انفجر غاضبًا في وجه الشاب، وصارت بينهما مشاحنة انتهت بأن طلب مدير هشام في شركة الأمن.

كان الموقف عسيرًا عليه، وقد غلبت عليه أنفته أكثر حين حاول مديره أن يوبخه أمام الشاب. رد على مديره بشكل عنيف ولم يتقبل تقريعه ما جعله يتوعده بإنهاء خدمته من الشركة وترحيله من الكويت نهائيًا. كان أبو مشعل يستمع باهتمام إلى أن انتهى من حكايته التي حشا بين طياتها نبذة عن نفسه، وكيف أنه انتقل من حالق إلى فالق.

- ولماذا جئت لي الآن يا هشام، ماذا تتوقع مني؟

أربكه السؤال وأحس بأذنه احمرت وازداد صوت النبضات وضوحًا فيها. رد عليه قائلًا:

- لا أعرف، كنت أنت أول من خطر ببالي.

- كنت أظن أنك غيرت تلك النظرة حين رفضت نشر ما تكتبه وقبل غيري أن ينشره لك.

سكت هشام؛ لم يكن من النوع الذي يجيد الحديث والتعبير والرد إلا حين يواجه الورقة والقلم. حقًا شعر بالضيق منه لأنه لم يوافق على إلحاقه بالعمل رسميًا في الجريدة ولم يوافق على نشر مقالاته رغم اعترافه بأنها جيدة. ومع ذلك لم يفكر في التحدث لأحد غيره حين تعرض لذلك الموقف المهين.

- اسمع يا هشام، أنت شاب متميز حقًا وسوف أساعدك وأضمك للعمل رسميًا فقط لأنك موهوب وتستحق فرصة.

صمت لحظة مسح فيها زجاج نظارته ثم نظر إلى هشام وكأنه يتفحص رد فعله:

- بالنسبة لتقاريرك التي تنشرها الآن...

بلع هشام ريقه بصعوبة وهو يتوقع أن يطلب منه الرجل أن يكمل نشرها في جريدته، مما سيضعه في خيار صعب، إلا أنه أكمل:

- يمكنك أن تستمر في نشرها شريطة ألا يؤثر ذلك على عملك هنا في جريدتنا، وأن تظل منشورة باسم مستعار.

خرج هشام من عنده وهو يكاد يطير من الفرح، وأول ما فكر فيه أن يخبر شيخة بهذه البشرى. خرج من المكتب ولم يجدها في مكانها وحين

سأل عنها عرف أنها انصرفت مبكرًا. توجه أولًا إلى مكتب الموارد البشرية كما أخبره رئيسه الجديد لمعرفة الإجراءات المطلوبة لاستكمال انتقاله للعمل في الجريدة بشكل رسمي.

طلبها من هاتفه عدة مرات وهي لا ترد، وعندها شعر بأنه ربما يكون قد أغضبها. كانت بالفعل غاضبة جدًا في هذه اللحظة، ولكن من نفسها ومن طريقة شعورها نحوه والتي بدأت تأخذ منحى جديدًا داخل نفسها. كانت جالسة على أريكتها المفضلة في هاجن داز تأكل الآيس كريم، وتحادث صديقتها المقربة سلوى على الواتس آب تحكي عن حيرتها تجاهه. كان رد سلوى عليها أن تتمهل قليلًا على نفسها وأن تقلل تعاملها معه حتى تستطيع الحكم على مشاعرها، وبناءً على تلك النصيحة لم ترد على اتصاله المتكرر.

لم يمض وقت طويل حتى جاءتها رسالة منه همت بفتحها أولا ثم أهملتها، ثم تصاعدت الفكرة في رأسها ففتحت الواتس آب لتمسحها، لكن مرت سحابة سريعة من التردد جعلت إصبعها تتوقف وتغلق التطبيق دون أن تمسحها. وضعت الهاتف وانهمكت في أكل الآيس كريم بعصبية وهي تحاول أن تشغل فكرها بشيء آخر، لكن عاجلتها رسالة ثانية منه جعلتها تفتح محادثته معها وتقرؤها.

"وجه الخير الذي وهبته لي الدنيا ليؤنس غربتي ويهزم وحشتي، أعذريني فأنت أدرى الناس بمعاناتي".

"لو أجبت مكالمتي التالية فسأقول لك خبرًا مبهجًا".

ردت هي "قل ما عندك أولًا وسأقرر إن كان يستحق الرد ".

كتبت الرسالة وعلى وجهها دلال فتاة تريد أن يبذل فتاها مجهودًا أكثر لينال رضاها. كتبتها ووجهها محمر وابتسامتها عريضة وزادت حين رد عليها بالموافقة. ظلت ترمق الشاشة في انتظار الخبر. اقتربت منها النادلة تسألها هل تريد شيئًا آخر فردت بالنفي دون أن ترفع عينها عن الشاشة، وحين قرأت رده ندت منها صيحة فرح خافتة جعلت النادلة تعود لها فنظرت إليها ضاحكة وقالت:

- لا شيء.

كانت مكالمة هشام قصيرة أنهتها بأن أخبرته أنها ستنتظره لتعزمه على آيس كريم بتلك المناسبة. حين وصل هشام استقبلته بفرحة مختلفة وهي ترى وجهه قد تغير وصار أكثر بهاءً. ظلا يتحدثان بلا تحفظ حديثًا مفعمًا بالبهجة وحين أحست بتسارع نبضاتها وانغماس قلبها في تلك البهجة وجدت نفسها تقول له فجأة:

- هشام، أريدك أن تعدني أن نظل أصدقاء فقط وألا نعطي علاقتنا أبعادًا أخرى.

فوجئ هشام حين قالت له ذلك. رد عليها مؤكدًا أن الصداقة هي أعز وأجمل علاقة قد تنشأ بينهما ولكنه سألها:

- هل فعلت شيئًا أوحى إليك بإحساس مختلف؟

- لا، على العكس من ذلك أنت صديق مثالي من كل الوجوه.

- الحقيقة أنني بعد موت زهراء لم أعد قادرًا على أن أنشئ علاقة حب، فقد أخذت معها كل مخزوني منه حين ذهبت.

قالها بثقة أقل من تلك التي كان يقولها بها منذ أشهر قليلة، قالها وإحساس بالضيق يخالجه ولا يعرف مبعثه. ظلا صامتين للحظات ورأس كل منهما يموج بأفكار متضاربة. أنوثتها كانت تتمنى أن يجادلها قليلًا، أو أن يقول لها دعي الأمور تجري ولا تتعجلي أو أي شيء آخر لا يتضمن ذكر زوجته الراحلة، وفي الوقت نفسه تشعر بنوع ما من الارتياح لأنها وجدت سبيلًا لوضع حدود لعلاقتهما.

حاول أن يغير مجرى الحديث فسألها عن رأيها في المقال، فقالت إنه رائع كالعادة، ثم سألته هل ما كتبه في المقال قد حدث فعلًا.

- لم يحدث معي، إنما مع صديق لي كان حاضرًا لحظة اغتيال الرجل الذي تحدثت عنه في المقال. كانت الأمور قبلها تسير نحو الصورة التي وصفتها؛ كان كل يوم يتم تفجير إدارة حكومية هامة: قسم شرطة، إدارة للبحث الجنائي، دائرة للنيابة ولا أحد يفهم لماذا. أدركنا ذلك حين بدأت الاغتيالات، وحين كان يقتل الشخص أمامك فلا يجد أحد مسؤولًا يحقق في قتله ولا خبيرًا يجمع الأدلة ولا محققًا يستجوب الشهود.

- خطة لا تخرج إلا من رأس شيطان.

أومأ برأسه مؤمنًا على كلامها ثم قال:

- أتعرفين ما هو الأسوأ من الموت بالرصاص أو القذائف؟

- ما هو؟

- ألا يأمن المريض أن يغادر بيته ويذهب للمستشفى لتلقي العلاج حتى يموت في بيته. كان لي صديق كالملاك يحبه كل من حوله. رجل لم يشارك في قتل أحد ظنًا أو يقينًا. وجدت واحدًا من أهله يطلبني ذات يوم لأغسله. صدمت للخبر لكني ذهبت، فهم يعرفون أني على معرفة جيدة بأمور الشرع والرجل عزيز علي حقًا، وخاطرت وذهبت بسيارتي لأغسله متوقعًا أن أراه مقتولًا برصاصة أو شظية فهو لا يزال شابًا. ذهلت حين عرفت أنه مات بأزمة قلبية وكانت المنطقة بالقرب من بيته تشهد اشتباكات عنيفة منعته من الذهاب إلى المستشفى حتى مات.

- كما قلت أنت "لقد نزفنا ونحن نزحف من بركة الوحل التي عشنا فيها ما يقارب نصف القرن لكننا خرجنا منها لمستنقع تختبئ تحت مياهه الراكدة وحول أكثر عمقًا وظلمة".

١٨

جلست جانيس في غرفتها تقلب هاتفها وهي تأمل في أن تتلقى رسالة من حسن إلى أن قذفت به بعيدًا في يأس. كانت تشعر بظلم شديد وبأنها أعطت لكن ما أخذت في المقابل. آخر لقاء لهما كان من أسبوعين، وكانت ليلة قضتها معه اعتبرتها أجمل ليلة مرت عليها في حياتها.

حين افترقا في صبيحة تلك الليلة تركت يده وهي تشعر لأول مرة بأنه صار ملكها، وأنه لا داعي للقلق بشأن مستقبلها معه. طلبت لقاءه بعدها بيومين لكنه تعلل بحجج واهية والتمست هي له العذر، ثم مرت عدة أيام صار لا يكلمها إلا لمامًا ولا يرد على أغلب رسائلها ولم يوافق على طلبها المتكرر بأن تراه. في الأسبوع الثاني توقفت عن إرسال الرسائل إليه وتوقف هو أيضًا.

بالرغم من أنها عانت من إهماله في كثير من الأحيان إلا أن هذه المرة تختلف تمامًا، فبعد أن صعدت معه تلك الدرجة المرتفعة جدًا في سلم علاقتهما صار من الصعب عليها النزول. من العسير أن تستجدي مكالمة أو رسالة من إنسان كان بالأمس بين ذراعيك جسدًا وروحًا.

- أما زلت مهمومة بشأن ذلك المصري؟

سألتها روز صديقتها وهي واقفة بباب الغرفة. كانت روز لا تستريح لعلاقتها به وتقول لها إنها علاقة محكوم عليها بالفشل. نظرت إليها جانيس دامعة وهي تقول:

- لم أشعر بمثل هذا الشعور وتلك الحسرة منذ اكتشفت خيانة زوجي.

دخلت روز من الباب وجلست جوارها ثم احتضنتها وهي تقول:

- يا إلهي! إلى هذه الدرجة؟

يوم اكتشاف جانيس لخيانة زوجها كان منعطفًا شديد الانحراف في حياتها. زوجها ديجو كان حبها الأول، ارتبطت به وهي في المدرسة الثانوية ومن أجله أوقفت تعليمها عند ذلك الحد رغم تفوقها. حين أخذت القرار بتغيير خطتها في الحياة من أجل زواجها بديجو حاولت أمها أن تثنيها عن هذا القرار بقولها "يمكن للمرأة أن تتنازل للرجل عن أشياء كثيرة كأن تغير من طباعها قليلًا أو تغير تسريحة شعرها أو تغير وزنها، بل يمكن أن تتنازل وتعطيه ما يشاء من متعة، لكن لا يصح أن تتنازل عن أحلامها لأجله. لا يمكنك أن تغيري ماهيتك من أجل الحب فهي ما سيبقى لك سواء عاش الحب أو مات".

أصرت رغم ذلك على الزواج، وبعد مرور السنين وإنجابها طفلتين أدركت أن أمها كانت على حق، وأنها دفنت نفسها في قريتها الصغيرة تزرع أرضًا لا يكفي ريعها أي شيء.

قررت السفر حين رأت ابنتيها تكبران وأحست أنها تريد أن توفر لهما تعليمًا يرتفع بهما، لتحقق فيهما الحلم الذي وأدته والذي كانت تلوم ديجو على تشجيعها لوأده. كانت تريد أن تكون بناتها في وضع مختلف حتى إن كان ذلك يعني أنهما ستكبران بعيدًا عن حضنها.

سافرت، وبعد عامين من الهوان عادت في إجازة واكتشفت أن زوجها على علاقة بأخرى. أول ما عرفت قالت لها أمها "ماذا كنت تظنين، هل هناك رجل يظل عامين دون أن يمس امرأة". هل كان يمكن لتلك الحجة أن تخفف من وطأة إحساسها بالخيانة؟ لم تعرف لأنها اكتشفت ما بدا لها الخيانة الأسوأ، وهي أن زوجها كان ينفق على تلك المرأة من النقود التي ترسلها ولم يرسل البنتين إلى المدارس التي اختارتها واكتفى بالمدارس المجانية.

في الصباح التالي كانت أهدأ، واتخذت أولى خطواتها بأن فتحت لنفسها حسابًا بنكيًا وقدمت أوراق بناتها في المدارس التي تريدها، واتفقت مع زوجها أنها سترسل الأموال اللازمة للإنفاق على ابنتيها عن طريق شقيقتها كريسيلدا، وأنها لن ترسل إليه ولا بيزو واحدًا.

لم يملك زوجها حق الاعتراض. في الحقيقة كان ضعيفًا وكانت متأكدة أن المرأة الأخرى استغلته، لكنها وجدته يدافع عنها ومتمسكًا بعلاقته بها وهذا جعلها تصر على قراراتها. حين عادت للكويت عاشت كامرأة عزباء ووجدت لنفسها صديقًا تعيش معه. بعد مضي عام آخر بدأت في إجراءات طلاقها منه مع استمرار ترتيباتهما لرعاية البنتين.

قالت لها روز وهي تخرج بها من هذه الذكريات لتعيدها إلى مشكلتها الحالية مع حسن:

- لا تمنحيه أكبر من حقه.
- لا أعرف لماذا أحبه، هو ليس مميزًا ولم يعطني شيئًا يستحق ذلك الحب.
- دعك منه وسوف أعرفك إلى صديق جديد.
- كلا لقد كرهت الرجال.
- إذن سوف أعرفك إلى صديقتي جوسيل فهي تكرههم هي الأخرى.

ضربتها على كتفها وهي تضحك وقد فهمت تلميحها، وعندها رن هاتفها بنغمة رسالة فقامت متلهفة لتراها. حاولت روز أن تشاكسها فأمسكتها من ذراعها فجذبت جانيس نفسها من يدها بقوة وأمسكت بالهاتف، لكنها وجدت رسالة من أحد زبائنها فتمتمت ببعض اللعنات على حسن وعلى الحظ الذي وضعه في طريقها.

١٩

"كل ما سأقوله قديم وقاله الكثيرون قبلي، لكنهم قالوا أيضًا إن النساء لا تمل من سماع كلام الحب مهما كان معادًا. أنا أحبك يا نهلة ولا أصدق أنني استطعت أن أخرجها من صدري أخيرًا. أعلم أنك تعلمين أني أعلم أنك تعلمين أني أحبك، ما هذا الهذيان الذي أكتبه. لا تهتمي، خلاصة الكلام أنني أحبك، وأن خوفي من المستقبل كبلني كثيرًا ولكني اليوم بدأت عملًا أفضل، ولذا قررت أن أصارحك بحبي ورغبتي في أن تكوني لي".

"تأخرت كثيرًا في قولها يا حسن".

"أعرف ولكنني قلتها، وأعلم أنك لم ترتبطي بأحد للآن".

"أجل، ولكن تغير الكثير، تغيرت مشاعري ونظرتي للحياة وطريقة حكمي على الأمور".

"أيعني هذا أنك ترفضين حبي؟"

"لا، بالعكس أنا ما زلت أحبك، لكن الحب جزء من الصورة وليس الصورة كاملة، فقد أدركت أن بنائي للمستقبل معتمدة على الحب وحده حماقة لن أتحمل الخوض فيها".

"ليكن، أنا لا أقدم لك الحب وحده، أنا أعرض عليك مستقبلًا أيضًا لا بأس به".

"أي مستقبل ذلك، أن آتي لأعيش معك في الكويت، ويعمل كلانا بأجور زهيدة ونقيم في شقة ضيقة، ونعيش على الكفاف كي نوفر نقودًا نرسلها إلى مصر لنشتري شقة نستغرق أعوامًا في سداد أقساطها. تريدني أن أنجب أطفالًا يكبرون أمام عيني أغرابًا في بلد غريب يحلمون بالعودة لوطن لفظهم قبل أن يولدوا. تريدني أن أعيش القصص التي كنت أرثي لأصحابها كل يوم، هل هذا هو المستقبل الذي تعدني به؟"

"هل لو أنجبت أولادًا في مصر لن يحسوا بالغربة في بلدهم، هل تستطيعين أن تقسمي على أن غالب أهل مصر لا يعيشون في بلدهم مواطنين من الدرجة الثانية؟"

"قد تكون على صواب، لكن الهم هنا يشترك فيه الجميع وهذا ما يخففه، ثم إنك هنا في بلدك وسط أهلك، ولا تنكر أن الحياة في الغربة تجعلك غريبًا في البلدين".

"إذن ترفضينني".

"لا؛ لكن أعطني فرصة للتفكير وأعط نفسك فرصة لإثبات أن المستقبل الذي تتحدث عنه موجود".

كانت تلك نهاية المحادثة التي وسمت وجه حسن بالكآبة على مدى الأيام الماضية. كان يجلس على الخليج في بقعته المفضلة، وقد قص

فحوى تلك المحادثة على هشام حين سأله عن سبب انزعاجه، فكان رد هشام أن الفتاة تتعامل معه بواقعية كعريس تقدم لخطبتها وهذا يعني أن اعتبارات الحب والعاطفة لن تلعب دورًا كبيرًا في قرارها. قد يكون ذلك بسبب أن الشرارة التي اشتعلت بينهما حين كانت هنا قد خبت جذوتها.

- لكن جذوتها عندي صارت أعظم. أحيانًا أحس أنني أعشقها ذلك العشق الصوفي الذي ينسحق فيه قلب العاشق تحت ثقل مشاعره.

نظر إليه هشام باستنكار وهو يقول:

- عشق صوفي، هذا شيء خيالي يا صديقي لا يصح أن يكون مصدرًا لقرار تأخذه في حياتك. الصوفية أدركوا حقيقة أن العشق بين البشر وهم كبير، وأن ما ينطوي عليه من إيمان العاشق المطلق بمعشوقه سذاجة كبرى، وأن تسليم القلب له مخاطرة تنتهي دومًا بكرب فاجع. ولذلك لجؤوا إلى حيلة نفسية يتمكنون بها من ممارسة طقوس العشق دون معاناة من مثالبه. حين يكون الله هو المعشوق يكون الخضوع عزًا والذل جاهًا وذرف الدموع بين يدي المعشوق شرفًا ما بعده شرف. المشكلة أن مذهبهم لا يخلو من الغلو وطقوسهم قد ركبها الشطط، ومع ذلك لا تستطيع أن تمنع نفسك من الإعجاب بأشعارهم والاستمتاع بفنونهم. خذ منها يا صاحبي ما تحب واعتبرها كأفلام الفانتازيا تنبهر بها، لكنك تعلم أن الخيال فيها أكبر كثيرًا من الحقيقة.

لم يعجب حسن منطق هشام ورأى أن فيه الكثير من مجافاة الحقيقة، وأن فكره يقارب أفكار السلفيين في هذه النقطة. هم في رأيه

جامدون اعتبروا أن الدين مجرد أوامر ونواهٍ وعبادات تؤديها، ونسوا أن الروح الحقيقية للدين هي ما ينطوي عليه من سمو للنفس وإشباع للقلب. رد عليه هشام بحزم:

- أنت تعرف كم أنا منفتح، ولكني أنتقي من كل فكر ما يناسب قناعاتي. أنا أحب أشعار الرومي والحلاج تمامًا كحبي لأشعار إليوت وفولتير وطاغور وغيرهم، لكن الدين عندي عباءة محددة المعالم والأبعاد، نعيش داخلها كما هي ولا يجوز أن نضيف إليها زخارف لتبدو أجمل.

ابتسم حسن وقال له مازحًا:

- كلا، أنت متشدد وينقصك جلباب قصير لتظهر على حقيقتك.
- يا رجل، بدليل أني جعلتك تستمع إلى سيلين ديون وفيروز بعد أن كان آخرك حميد الشاعري.

كان السبب الرئيسي لصداقة حسن وهشام هو تفردهما بين زملائهما بذلك النهم للقراءة والأدب وانفتاح كليهما على ثقافات كثيرة. أمضيا أيام الجامعة يقرآن معا ويحضران الكثير من الندوات والأمسيات. شيء واحد كان مختلفًا هو أن هشام كان متحفظًا، يحكم الدين في كل ما يراه فيعترض على أي كاتب يقتحم حرم الدين في كتاباته، أما حسن فكان منفتحًا يرى أن الفن لا يجب أن توقفه أي حدود.

ذلك النقاش ذكر حسن بما دار بينه وبين جانيس حين حدثها عن الإسلام، فقصه على هشام الذي احمر وجهه غضبًا حين سمع ذلك ونهره بشدة ثم قال:

- أتعرف أن السبب في أنك قد لا تنال نهلة هو أنك لم تصبر على ما تحب من الحلال وذهبت إلى الحرام، فابتلاك الله بعشق يكوي قلبك.

- أنت تبسط المسائل بطريقة مملة، لا يمكنك أن تختزل المشاعر الإنسانية وحيرة الإنسان نحو نفسه والآخرين في إطار الحلال والحرام فقط. الشرع نفسه راعى عيوب النفس البشرية وضعفها ونقصها. احكم على الأمور بقليل من التجرد، فما تضعه في إطار الحرام اليوم قد يكون في إطار الحلال غدًا، وخطيئة الفراش كبيرة حقًا لكنها تكون أكبر إذا اقترنت بظلم للإنسانة أو هدم لمستقبلها وتدمير لحياتها.

لم يعجب هشام منطق حسن فهو يرى أن الحرام بين والحلال بين، وأن حسن يناقض نفسه كثيرًا ولا يعرف ماذا يريد. سأله عما قرره بشأن جانيس ناصحًا إياه بالابتعاد عنها ما دام قد بدأ يخطط للارتباط بنهلة. قال له حسن إنه بالفعل توقف عن الحديث معها منذ فترة وإنه أحيانًا تحدثه نفسه بالكلام معها ثانية إلا أنه يمتنع.

- ولماذا تتخذ هذا الطريق المهين؟ الفتاة لا تستحق منك هذا.

- أنت من يقول ذلك؟ وكلامك عن الحرام وحفظ الفرج.

- هذا يخصك أنت، فهي لا ترى أنها تفعل شيئًا خاطئًا بعلاقتها معك. قد تكون إنسانة طيبة وحسنة النية لكن ما يناسب المسلم غير ما يناسبها. هي إنسانة تستحق التعامل باحترام لا أن تهملها هكذا، لا بد أن تصارحها أنك ستتركها.

- أنا أخشى أن ترفضني نهلة وتطير جانيس من يدي، فيضيع مني عنب الشام وبلح اليمن.

- لم يعد هناك شام ولا يمن فلا تضرب بهما مثلًا.

سكت حسن ولم يرد. كان يشتاق إلى جانيس بشدة ويمنع نفسه عنها بصعوبة، يذكر مزاحها النزق وعاطفتها الغامرة وجسدها المشتعل، لكن رغبته في الارتباط بنهلة تمنعه من محاولة الاحتفاظ بها. نهلة هي الحقيقة وهي التي ستبني بيته وتكون أم أولاده، أما جانيس فهي نزوة مهما بلغت متعته معها وشوقه لها.

لا يعرف خطوته التالية معها؛ لو تركته نهلة فستكون جانيس الملجأ المثالي لقلبه، وسيترك نفسه لها وقد تحل محل نهلة وتكون موضوع "عشقه الصوفي" تلك المرة.

كيف لا يفكر بهذا الاحتمال الكارثي، وجانيس لا يمكن أن تكون زوجة وأمًا لأولاده وهي من بلد آخر ولسان آخر ودين آخر. قصص المصريين المتزوجين من فلبينيات ماثلة أمام عينه، وأغلب الأبناء من تلك الزيجات (الذين رأى بعضهم تلاميذَ عنده) أطفال منطوون على أنفسهم وتلاميذ فاشلون في دراستهم وممزقو الهوية رغم أن أمهاتهم مسلمات. اختلاف الدين أمر يزعجه أكثر من غيره ويرى أن لجانيس من قوة الشخصية ما يمنعها من تغيير دينها لأجله، وربما عقله الباطن هو ما أوحى له بأن يكلمها عن الإسلام.

٢٠

كان يوم عودة راجو هو آخر يوم عمل لهشام كحارس أمن. كان اللقاء بينهما جياشًا ومشحونًا بالعواطف، وكم كان الرجل سعيدًا حين علم أن هشام قد انتقل للعمل بالجريدة بشكل رسمي، فهو منذ رآه للوهلة الأولى وهو يعلم أن هذا الشاب يستحق الكثير.

- لا أعرف كيف أكافئك على ما فعلته من أجلي.

- لم أفعل شيئًا، فالأستاذة شيخة جمعت لك القدر الأكبر من النقود.

- هي أيضًا تستحق الشكر، فهي مثلك تمتلك قلبًا كبيرًا، وإني صليت لتكونا معًا.

ارتبك هشام لأمنية الرجل تلك، وقال له إن شيخة زميلة وصديقة وإن الأمر لا يتعدى ذلك، ثم غير مجرى الحديث وسأل الرجل عن أحوال ابنته وكيف كان عرسها. انطلق الرجل في الحديث بانفعال أضاع الكثير من تفاصيل كلامه، إلا أن تعابير وجهه كانت تحمل من المعاني ما يعوض حاجز اللغة بينهما.

قص الرجل عليه كيف بدت ابنته حين اكتملت زينتها، وكيف كان الساري الذي ترتديه وما رصع فوقه من الزينة. كانت ضفيرتها ملفوفة بعنقود من الزهور زادها جمالًا، وقد استقرت على رأسها حلية ذهبية يتدلى منها جزء يزين أعلى جبهتها. الذهب الذي كان يزين نحرها ويديها وملابسها كان يتألق ويخطف الأبصار بطريقة أنسته كم تكلف من أجل شرائه لها.

- لم يكن في بالي غير حجم الجميل الذي فعلته من أجلي يا بني حين استقبلنا عريسها وأهله بالمصابيح في أيدينا، وحين أمسكت بيدها وهي في قمة بهائها وأجلستها إلى جواره.

- كنت أعرف أنكم تحملون العروس على محفة صغيرة حتى تصل إلى عريسها.

- هذا في مناطق أخرى، لكن عندنا في كيرلا نكتفي بالمشي إلى جوارها، وهذا أجمل كثيرًا أن تمسك يد ابنتك وتمشي بها هكذا حتى تجلسها إلى جوار عريسها.

أخذ الرجل يقص عليه مراسم الزفاف وكيف كان قلبه يخفق وهو يعطي بركته لابنته وعريسها، وشعوره وهو يرى ابنته تلبس عريسها طوق الزهور وهو يلبسها قلادة الزواج ثم يضع عليها طوق زهور هو الآخر.

كان هشام يشعر بأن الرجل يحكي عن زفاف في حكايات ألف ليلة وليلة. رغم بساطة المكان وقلة التكاليف، لكنه جو خلاب ذلك الذي تتخيل فيه العروسين يجلسان أمام شعلة صغيرة ويلبسان بعضهما

أطواق الزهور وعيون كل منهما مثبتة على عيون الآخر، والموسيقى الهندية الساحرة تملأ المكان.

- من الذي يضع تلك النقطة الحمراء على جبهة الفتاة.
- زوجها بالطبع، دوري بعد ذلك أن أمسك يدها وأضعها في يده، وكأني سلمتها له ليرعاها بقية عمرها.

هذه الجملة الأخيرة لمست هشام بقوة وذكرته بوعده لوالد زهراء، حين أوصاه على ابنته وقال له إنها وحيدته وقرة عينه وإنه لا يطلب منه أكثر من أن يصونها ويرعاها. تذكر أنه ما رعاها حق رعايتها وتركها تموت دون أن يحميها.

علت سحابة الذكرى وجهه وكسته بتعبير جامد، وتذكر للحظة أن الرجل معه يحدثه عن عرس ابنته فاستل من روحه ابتسامة وضعها على وجهه، وهنأ الرجل ثم تركه واتجه للمصعد وقد وضع ثقل الذكرى وزنه بأكمله على كتفيه.

أخذه من دوامة الذكريات وصوله إلى مكتبه وانضمامه لزملائه الجدد في الجريدة، والذين بدأ في التعرف إليهم. كانت خطوته القادمة هي تغيير مهنته في الأوراق الرسمية ليحق له استقدام أمه وأخته للحياة معه. فليس مقبولًا في عرفه أو عرف أهله أن يترك امرأتين هكذا دون رجل.

بعد قليل جاءته رسالة من شيخة تطلب منه الحضور إلى مكتب رئيس التحرير لمقابلته، فأرسل يرد عليها طالبًا أن ترسل إليه مساعِدتها لتستدعيه ليكون الشكل لائقًا أمام زملائه، فردت عليه:

"كما تشاء يا صديقي، لا بد أن نعطيك شكلًا رسميًا بالطبع".

عندما وصل استقبلته بترحاب، ثم طلبت منه أن ينتظر عدة دقائق حتى يأذن أبو مشعل له بالدخول. جلس بتحفظ صامتًا في انتظاره ثم قال:

- عم راجو يشكرك كثيرًا على مساعدتك لحضور عرس ابنته.

- لا شكر على واجب.

ساد الصمت بينهما بلا مبرر واضح. قامت مساعِدتها وخرجت من المكتب، واستمر صمتهما دقائق قطعه هو بالسؤال عن حالها وأجابته هي إجابة مقتضبة. حوار قصير أشبه بحوار بين غريبين، وفي قرارة نفس كل منهما سؤال عن السبب الذي يجعل الكلام عسيرًا. رن الهاتف الداخلي فأشارت له بالدخول.

قام لمقابلته وجلست هي تفكر كيف تكسر هذا الجليد الذي طرأ بينهما منذ تغير وضعه بالجريدة. صار هو أكثر تحفظًا حين يدخل مكتبها وجعلها ذلك تتحفظ هي الأخرى في فتح مواضيع للحديث معه.

خرج من مكتب أبي مشعل وأخبرها أن الرجل كلفه بعمل تحقيق صحفي بالاشتراك مع اثنين من زملائه، على أن يتولى هو الصياغة وإعداد الشكل النهائي.

- شيء جميل.

وقف لحظات منتظرًا أن تقول شيئًا آخر لكنها ظلت صامتة تنتظر منه أن يتكلم، وفي النهاية انصرف. أمسك هاتفه وكتب لها:

- لم أعد أستطيع التحدث معك في الجريدة، أشعر أن الكل ينظرون إلينا.

- يخالجني الشعور نفسه.

- إذن تريدين أن تتناولي معي قليلًا من الآيس كريم في مكانك المفضل.

- بالطبع، متى؟

قال لها إن الليلة موعد مناسب له، ووافقت هي ثم أغلقت الهاتف وابتسامة عريضة تملأ وجهها، وهي تتخيل رأي سلوى في هذه اللحظة مؤكدة لنفسها أن صديقتها لن تستوعب احتياجها لهشام كصديق وليس كحبيب أو مشروع زوج مستقبلي.

٢١

- أنا حسن صديق جانيس.
- وماذا تريد؟
- أحاول أن أصل إليها منذ أسبوع دون جدوى، هل يمكن أن تبلغيها أني أريد أن أحدثها في أمر هام؟
- أنا لم أعد أسكن معها، إذا صادفت ورأيتها فسأبلغها.

أقفلت روز الهاتف مع حسن، ثم نظرت إلى جانيس وهي متبرمة تسألها ما رأيها في هذا الكلام، فنظرت إليها جانيس باستنكار فهذه المكالمة لا تستحق التعليق. كانتا جالستين في صالة الطعام في مركز مارينا التجاري والمفترض أن روز ستعرفها اليوم إلى شاب آخر. لم توافق جانيس على تلك المقابلة إلا بعد إلحاح روز الشديد.

كانت تعلم أن دافع روز ليس التسرية عنها في تلك الفترة التي تعاني فيها من آلام إهمال حسن لها، أو إعطاءها دعمًا من علاقة جديدة لتمكنها من التغلب على رغبتها في العودة إلى علاقة قديمة لم تجد فيها غير الاستهانة بمشاعرها.

- ها هما ذا قد وصلا.

قالتها روز وهي تشير إلى شابين عربيي الملامح يبدوان في الثلاثينيات من عمرهما. كانت تعرف أحدهما وهو صديق روز (وهو مصري بالمناسبة). كان دافع روز الحقيقي لمحاولة إدخال جانيس في علاقة مع صديق فتاها هو أنها تريد أن تترك الشقة المكتظة التي يسكنان فيها هي وجانيس والاستقلال معها في شقة صغيرة لهما فقط. كانت الخطة أن توافق جانيس على مصادقة الشاب الثاني، وحين ينتقلان للعيش معًا في الشقة الجديدة يدفع الشابان الجزء الأكبر من الإيجار مقابل أن تكون هذه الشقة مكان لقائهم.

امتعضت جانيس من الفكرة أول الأمر، لكن روز قالت لها إن الموضوع لا مشكلة فيه وإنها لن تكون فتاة رخيصة كما قالت. الموضوع هو أن صديقها يجب عليه أن يدعمها ويوفر مكانًا لعلاقتهما يليق بهما بدلًا من الذهاب لفنادق غير آمنة.

جلس الشابان على الطاولة معهما وتبادلا ابتسامات مرحبة، ثم قامت روز وصديقها لإحضار الغداء من مطعم إيطالي مواجه لطاولتهم. اقترب الشاب بمقعده محاولًا الحديث مع جانيس. كانت إنجليزيته ضعيفة ومهتزة مقارنة بحسن الذي كان يتكلم بطلاقة. أخذ يتحدث معها ويحاول أن يجرب أكثر من محور للحديث عله يكسر الجليد وتبدأ هي في مبادلته الحوار. حاولت هي جاهدة لكن الكلام كان يخرج منها بصعوبة. قطع كلامهما مجيء روز وصديقها بأطباق البيتزا.

بينما بدؤوا في تناول البيتزا استأذنت جانيس واتجهت نحو "غرفة الفتيات"، وهناك أخرجت هاتفها المحمول ثم بدلت الشريحة التي يملك حسن رقمها بالشريحة الموجودة به، ثم أرسلت رسالة تقول إنها اكتفت منه وإنها قد صادقت شابًا آخر وتطلب منه ألا يحاول الاتصال بها ثانية.

ابتسم حسن حين وصلته الرسالة وقد اعتبرها دليلًا على أن جانيس لا تزال متعلقة به، فأرسل إليها طالبًا لقاءها ومعتذرًا عما بدر منه وأنه سيشرح لها كل شيء حين يراها. قبل أن يتلقى ردها دخل علاء شريكه عليه وهو جالس في المحل، وقال والجدية ترتسم على ملامحه:

- حسن، هناك أمر هام أريد أن أتكلم معك به.

- خيرًا.

قال إن حسن لا يأخذ عملهما بجدية كافية، وإن أغلب المجهود والعمل يقع على عاتقه هو وإنه مع ذلك يأخذ النسبة نفسها التي يأخذها حسن من الربح. لم يفطن حسن لمقصده في البداية ولذا اعتذر عن انشغاله وقال إنه سوف يتفرغ أكثر لعملهما بالمحل.

- لا يمكن أن تقوم بكل ما أقوم به، فأنا لدي الخبرة ولي علاقات وزبائن وأنت لست كذلك.

- ماذا تريد إذًا؟

أفصح له علاء عن رغبته في أن يزيد نسبته من الأرباح أو أن يتم تخصيص راتب ثابت له هو مثل رواتب العاملين غير الشركاء في المشروع. لم يعجب الكلام حسن ونهر علاء وقال له إنه شاركه رغم أن الكثيرين حذروه من طمعه. انتاب الغضب علاء وبدأ يرفع صوته في الحديث:

- انظر إلى كل تلك البضاعة، من الذي اتفق عليها ومن اختبر جودتها ومن الذي ضمن حقوق تجار الجملة وكتب على نفسه أوراقًا بثمنها.
- أنت تقول أي كلام لتبرر طمعك.
- أنا لست طماعًا.
- لا أنكر أنك صاحب الخطة، لكنك حملتني معك المخاطر نفسها وجعلتني أضع كل ما ادخرته بين يديك حين قلت لي إننا شركاء متكافئون. لم تقل إنك ستأخذ نسبة على الإدارة أو مقابل خبرتك وكل هذا الهراء، وما أوله شرط آخره نور.

ارتبك علاء في الرد لكنه أصر على أنه محق، وأنه في البداية لم يكن يعلم أنه سيبذل كل هذا المجهود وأن حسن سيكون بلا فائدة. استثارت تلك الكلمة حسن وأمسك علاء من ياقة قميصه وهو يقول له أن يركب أعلى ما في خيله، وإن هناك بينهما عقودًا وأوراقًا، ثم تركه وانصرف غاضبًا لكن علاء ناداه وهو يقول إن الكلام لم ينتهِ بعد. عاد حسن أدراجه وقال بحزم:

- إياك أن تظن أنني غافل عن الطريقة التي تدير بها الأمور هنا، أنت ترفض أن تعرفني إلى الموردين أو الوكلاء أو المقاولين الذين نتعامل معهم، ولم أحاول أن أثير شكوكك بطلبي أن تدخلني في العمل أكثر لأنك في الأصل سيئ الظن.

تلعثم علاء وقد فوجئ بهجوم حسن المعاكس، ولم يستطع أن يبرر طريقته فاكتفى بمعاتبة حسن لوصفه إياه بسيئ الظن، لكن حسن رد قائلًا:

- أنا وافقت على مشاركتك رغم تحذيرهم لكني لم أكترث فليس بيننا ملائكة. كل منا على استعداد لفعل الكثير لاقتناص لقمة عيشه والغربة تجعلنا أكثر انتهازية وتوحشًا، أعرف ذلك وشاركتك، وليس لدي استعداد للتنازل عن أمل خاطرت من أجله.

قالها وانصرف ولم يعد رغم أن علاء حاول أن يناديه ثانية. ذهب ليركب التاكسي وهو يتصل بخالد صديقهما ويقص عليه ما دار بينه وبين علاء على اعتبار أنهما من القرية نفسها. حاول خالد تهدئته وقال له إن علاء يجس نبضه فقط وإنه سيتحدث معه.

هدأ انفعال حسن قليلًا بعد محادثة خالد، ثم انتبه لرسالة من جانيس فوجدها تقول له إنها قد أغلقت صفحته في حياتها وإنها الآن تقابل شابًا آخر وإنها تتناول الغداء معه في مارينا الآن.

عقد حاجبيه في شك وقلق وهو يعيد قراءة الرسالة ثم اتصل بها، استمع بتوتر إلى النغمة التي تميز رنين الهاتف لديها (وهي أغنية أجنبية

يكرهها بشدة). تحول توتره إلى غضب حين لم ترد فعاود الاتصال ثانية لكنه وجد هاتفها مغلقًا. انطلق بالسيارة متجهًا إلى حيث قالت إنها تتناول غداءها، وهو يقول لنفسه إنه فقط يريد أن يتأكد فعلًا أنها أنهت علاقتها معه.

تناثرت في رأسه الأفكار وهو في طريقه لها. تداخلت أفكاره عن جانيس بأفكاره عن نهلة. اضطربت روحه بطريقة لم يعهدها. "ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت"، حكمة تصف عكس ما يمر به الآن، فبالنسبة له "فرجت فلما استحسنت ضاقت ثانية". شريكه يريد سرقته وحبيبته تركته في حيرة وجانيس تركته ومع شاب آخر.

لم يتكلم مع نهلة منذ حوارهما الأخير الذي زادت به جنونه حين قالت إنها تحبه لكنها لا تستطيع التصرف على أساس ذلك الحب. هو يعرف يقينًا أنه ما من امرأة تحب حقًا وتتخلى عن حبها أو تضعه في الميزان بتلك الطريقة.

"ماذا لو فقدت جانيس؟ وما المشكلة فلتذهب في داهية فهناك منها الكثير". يقول لنفسه وهو ينعطف بسيارته ليصفّ سيارته بالمرآب. ترجل وهو يسأل نفسه هل هناك الكثير منها فعلًا. هذه الفتاة مختلفة تمامًا، لها روح شفافة وقلب نظيف وخفة دم لم يعهدها في بنات جلدتها، كما أنها تحبه جدًا. هي معذورة لو تركته فقد عاملها بمنتهى الفظاظة.

صعد قفزًا على السلم المتحرك الذي يفضي إلى قاعة الطعام. أخذ ينظر حوله ثم خطر بباله أن ينظر بالقرب من المطعم الإيطالي، وانتابته نوبة من آلام معدته حين وقعت عيناه عليها وهي تجلس مع صديقتها ومعهما شابان والأربعة منهمكون في الحديث.

وقف مثبتًا عينه عليها ومر شريط سريع من ذكرياتهما معًا. اكتشف وهو يراها الآن جالسة مع غيره أنه عاش معها حياة بالفعل وأنه يرى احتضار تلك الحياة. كانت بالنسبة له مضمونة أكثر من اللازم وكان تفكيره في تركها لا يؤرقه رغم ثقته أنه لن يكمل معها. تفكيرنا نفسه حين نتذكر أن حياتنا ستنتهي يومًا ما لكن التفكير في تلك النهاية لا يشغلنا قدر ما يشغلنا استغلال الحياة نفسها.

ظل واقفًا ينظر إليها وهي تبدو في عينيه أجمل من ذي قبل، إلى أن تلاقت عيونهما ورفعت هي حاجبيها في دهشة. أفاق لحظتها من أفكاره وأدار ظهره لها وانصرف طاويًا صدره على بحر من الأفكار والآلام.

٢٢

"دعني أعترف بالحقيقة للمرة الأولى. في قلبي الكثير له رغم أنني يوميًا أردد على نفسي أنني لا أكن له غير ود الصداقة. الرجل حين يكون صديقًا يكون أروع وأهدأ وأنقى، تستطيعين أن تقصي عليه ما شئت دون خجل ودون أن تخافي من احتمال أن يسيء فهمك.

الرجل الصديق يريح أعصابك حين تتحدثين إليه وحين تختلفين معه. لا يحملك هم الاشتياق المقبض حين يغيب. الصديق يكون أكثر صدقًا في النصح من الحبيب وأكثر إخلاصًا لعلاقة الصداقة. على عكس الحب فإن الإخلاص للصداقة لا يتطلب من الرجل ألا ينظر إلى أخرى وهو ما يفعله أغلب الرجال بشكل اعتيادي عمل. يتقربون من النساء في أوقات فراغهم وينظرون إليهن في أوقات عملهم ويفكرون بهن حتى في أثناء صلواتهم.

هو لا يبدو لي من هذا النوع من الرجال، وليس ذلك لأنه متدين فقط، إنما لأنه أحب امرأة ذات يوم سكنت قلبه ولم تغادره رغم مغادرتها هذا العالم.

فيه بداوة تسحر لب العربية الكامنة في داخلي، المختبئة خلف ثياب من جوتشي ونظارة من بولجاري. على كفه ترتسم خطوط يملؤها عبق الصحارى تعانق خطوط كفي التي ما زال يسكنها العبق ذاته، حتى إن تزينت بساعة من سواروفسكي أو حملت حقيبة من شانيل".

رفعت سلوى عينها عن هاتفها اللوحي وابتسمت وهي تسأل شيخة بتهكم:

- هل هذه مقالة عن المشاعر أم معرض للماركات التي تتسوقين منها؟
- كفي عن الاستظراف وأكملي.
- هذا ليس مقالًا هذه قصتك الشخصية، هذه محاولة للبوح له بشكل غير مباشر.
- تعنين أن الكلام لا يفهم في العموم؟
- قد يفهمه الناس في العموم لكنه هو سيفهمه في الخصوص، وقد يستجيب لهذا الكلام ويبدأ في النظر إليك بشكل مختلف. سيتحرك قلبه نحوك أو مبتعدًا عنك، لكنه لن يظل ثابتًا بعد أن يقرأ هذا الكلام.
- كلا الاحتمالين مرعب بالنسبة لي.

فتحت سلوى هاتفها وألقت نظرة عابرة عليه، ثم نظرت إلى صديقتها بغيظ وهي تتساءل عن سبب الرعب في ذلك. الشاب ممتاز ويحبها رغم كتمانه، مستقبله جيد فهو استطاع في فترة قصيرة أن ينتقل من عمله كحارس أمن إلى صحفي في جريدة محترمة، ومن يدري ماذا

سيفعل غدًا. كونه لبيبًا سيفرض تعقيدًا على الارتباط بينهما، وقد تضطر لمواجهات مع من حولها لفرض احترامهم لتلك العلاقة، لكن الأمر يستحق إذا كان هو المنشود.

- أنت لا تخشين حب هشام وما سيجلبه من مشكلات. أنت تخشين الحب بصفة عامة، وهذا الخوف سيلازمك مع أي شخص يحاول التقرب منك.

كان رأيها حاسمًا في هذه النقطة، وكانت وجهة نظرها تلك هي عيبها الشخصي من وجهة نظر شيخة؛ هذا الاندفاع والتسرع في اتخاذ القرارات سبب لمتاعبها الكثيرة. كانت سلوى ترى أن الحياة أقصر من أن تضيع في التردد في اتخاذ القرارات، فأن تمر سنة من عمرك وأنت تخوضين تجربة فاشلة تتعلمين منها خير لك من أن تمضي السنة نفسها وأنت مترددة لا تفعلين شيئًا.

رن هاتف شيخة، وكان المتصل هو أبا مشعل رئيسها في العمل يخبرها أن التحليل السياسي الذي كان يفترض به أن يملأ مساحة في الصفحة الأولى تم حذفه نظرًا لمخالفته للخط السياسي للجريدة، وأنها لا بد من أن تتصرف وتوفر بديلًا يتم به ملء هذه المساحة. أغلقت هاتفها وزفرت وهي تقول:

- انتهى حديث الفتيات وبدأت هموم المهنة، أكثر شيء يثير استيائي في منصبي الحالي هو مثل هذه المواقف، أن أكون مسؤولة عن عمل

غيري وعن قرارات لرؤسائي يفترض بي أن أبررها وأنا غير مقتنعة بها من الأصل.

- على الأقل ستأخذك من دوامة أفكارك وتبعدك قليلًا عن التفكير بهشام.

زفرت شيخة ثم أمسكت هاتفها وطلبت مساعدتها. أمرتها بالتوجه نحو الجريدة وبالاتصال بأحد المحررين لحل تلك المشكلة، وإخبار الديسك والمخرج بهذا القرار، ثم قبل أن تغلق الهاتف طلبت منها أن تطلب من هشام الحضور أيضًا.

- كما ترين هو موجود في هذا أيضًا وهو...

توقفت عن إكمال جملتها وبدا أن ثمة فكرة خطرت برأسها فجأة، وارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة.

٢٣

دخل هشام للمكتب وكان هو آخر الحاضرين، ووجد شيخة مشغولة بإخبار المخرج عن خطتها بنقل موضوع من الصفحة الثانية للصفحة الاولى مع إضافة إعلان يكمل باقي المساحة.

- أهلًا هشام، أريد منك أن تجلس الآن وتعصر رأسك وتكتب لنا تقريرًا عن الوضع الحالي في ليبيا، وليكن بعنوان "ليبيا بين آفاق الحل ومخاطر المماطلة".
- في ذلك الوقت القصير؟
- أنا أثق بك.

قالتها بطريقة احمر وجهه لها خجلًا كأنها لا تتحدث عن العمل بل تتحدث عن علاقة شخصية، عن ثقة امرأة برجلها. أحس أن الجميع قد لاحظ فوضع قناع الجدية على وجهه وطلب منها أن تمهله نصف ساعة قبل أن يرد عليها.

"آفاق الحل ومخاطر المماطلة" حقًا؟ هل هناك حل غير أن يرسل الله ملائكة من عنده تضرب على يد الجميع وتلزمهم بدورهم ثم تضع

واحدًا على رأس البلد، تأمر الجميع بالسمع والطاعة له. يبدو أن القدر فعلًا هو البحث عن مخلص ينتشلنا من كل هذا العبث، فلسنا أهل توافق وتفاهم بل أهل جبر وتسيير.

جلس في حيرة يكتب ويمسح ما يكتبه عدة مرات. في النهاية بدأ بكتابة ملخص للوضع الحالي في ليبيا. ثم كتب تحليلًا أنهاه بقوله:

"الحرب ليست فقط ما ترونه من بيوت مدمرة وأشلاء ممزقة وجثث مكدسة. ليست فقط انقطاع الكهرباء والماء ونقص الغذاء، الحرب أكبر من ذلك بكثير. إن تشوه النفوس الذي تحدثه الحرب أسوأ وأعمق من تشوه الأجساد. الحرب في بلادنا لها مفهوم إضافي آخر لم أره في بلدان أخرى. فلأنها بدأت بين أبناء عمومة تحولوا إلى أعداء متقاتلين بين ليلة وضحاها، ترى الناس بعد أن انتهت الحرب صاروا معتادين أكثر على استخدام السلاح والقتل لتصفية أبسط الخلافات. صار من العادي أن تطلق الرصاص اليوم على من كان يحمي ظهرك بالأمس".

- لكن هذا المفهوم موجود في بلاد أخرى قامت فيها حروب أهلية.

فوجئ هشام بشيخة تقف وراءه مبتسمة تنظر إلى ما يكتبه على الشاشة فرد قائلًا:

- هذا المفهوم أوضح في بلدنا، لأن الحرب تفرعت عنها حروب فرعية لا تحصى. إن الأطفال عندنا صاروا يتحدثون عن القتل عندما يختلفون في اللعب.

- وأنت يا هشام، كيف غيرتك الحرب؟

صمت قليلًا وهو ينظر إليها مليًا ويسترجع الكثير من ذكرياته. هم بأن يرد عليها بجفاء كعادته حين تمر في باله ذكريات كتلك، لكن صفاء عينيها ونظرة الاحتواء العميقة فيهما أوقفته. لف بكرسيه وهو يشيح بوجهه عنها وينظر إلى الشاشة أمامه وهو يقول بمزاح مصطنع:

- لا بد أن أنهي التقرير سريعًا وإلا فستغضب رئيستي في العمل.

ابتسمت بحبور وهي تقول له:

- دعك من رئيستك في العمل الآن وأجبني حقًا، أنا صديقتك المقربة.

أخذ نفسًا عميقًا وقال في اقتضاب:

- أنا مثلهم تغيرت، وانكسرت في نفسي حواجز كثيرة.

- مثل ماذا؟

- أبسطها أنني صرت لا أبالي بأي شيء أو أي شخص حولي. الموت رغم أنه الحقيقة اليقينية الوحيدة يظل هو المأساة الكبرى والفاجعة التي تدمي قلوبنا. حين تدهس تلك المأساة قلبك يوميًا يصير بعدها كل شيء تافهًا.

ربتت على كتفيه وقالت إنها ستتركه يكمل التقرير. لم تمض ساعة حتى أنهاه وكانت هي تراجعه. أرسلت نسخة إلى رئيس التحرير لأخذ موافقته عليه ولاستئذانه في أن يتم نشر المقال تحت اسم هشام.

بعد قليل جاءها الرد منه موافقًا ومثنيًا على التقرير. نادت على مساعديها وأنبأتهم أن الشكل النهائي للصفحة الأولى سيظل كما اتفقوا عليه، وأن تقرير هشام سيتم نشره في الصفحة الثانية وبذلك تكون المشكلة قد حلت. أخذت حقيبة يدها وانصرفت وهي ترسل إلى هشام تستعجله أن يتوجه إلى حيث سيتقابلان لتناول العشاء.

في المطعم فاجأته بخبر الموافقة على كتابة اسمه على المقال. علت الفرحة وجهه وشكرها بحرارة، ولكنها أكدت أن صاحب القرار هو أبو مشعل، وأنه أعجب بالتقرير بشدة وطلب منها أن تخبر هشام بأن هذا يعني ألا ينشر أي كتابات له في أماكن أخرى. عقد هشام جبينه وسألها:

- هل هذا شرط؟
- ليس بالمعنى المباشر، ولكن لا يصح في عرفه أن يوضع اسمك في جريدته وتكتب في غيرها.

هز هشام رأسه موافقًا وإن بدا عليه قليل من التردد، فقالت له إن الموضوع لا يستحق أي تردد. حين يتوقف عن الكتابة للمجلة الأخرى فلا يعني ذلك أنه تخلى عنهم، فهم بالأساس لم يفعلوا شيئًا لأجله. شرد ببصره وهو ينظر إليها فارتبكت وهي تسأله لماذا ينظر إليها هكذا.

- أنت امرأة رائعة، استثناء حقيقي في كل شيء.

احمر وجهها خجلًا وهي تسأله عن مناسبة كلامه هذا، فصمت ولم يدر ماذا يقول وقد أحس أنه تسرع في قوله، فحاول أن يبرر لكن الكلام خرج منه متلعثمًا ومضطربًا فقاطعته وهي تسأله:

- هشام، هل نحن أصدقاء فقط أم هناك شيء آخر تريد قوله لي؟

صمت هشام وهو يفكر في ما يقوله ردًا على سؤالها. ثمة شيء آخر يريد أن يصارحها به قبل أن تربط نفسها به.

- نحن الآن نقف أمام طريقين ولدينا الاختيار أن نظل أصدقاء للأبد أو ننقل علاقتنا لمستوى آخر.
- بالمستوى الآخر أنت تقصد...
- دعيها مبهمة الآن فهذا أفضل.

قالها وصمت. لم ترد هي وأخذت تداعب طرف كوبها بملعقة صغيرة وهي تنظر إلى الكوب دون أن تنظر في عينيه. أخذ نفسًا عميقًا وهو يفرك أنامله قبل أن يقول:

- لك عليّ حق قبل أن ننقل ما بيننا إلى مستوى آخر أن أكون صريحًا معك، وأن أفتح لك ماضيّ على مصراعيه قبل أن أطلب أن تفتحي قلبك لي.

أثار كلامه فضولها وقلقها فهي كانت تحسبه شخصًا مباشرًا ليس خلفه أسرار. محارب خذله سيفه وترك أرضه حين يئس من التغيير، رجل عاشق فقد حبيبته وحزنه ما زال يغلف تصرفاته وحديثه. حنون رقيق حينًا، بدوي غليظ حينًا، وهادئ متزن دائمًا، هذا هو هشام الذي تراه فماذا عساه أن يكون غير ذلك.

لم يتركها تفكر كثيرًا بل مضى يحكي لها عن سره. بعد موت زهراء أراد أن يترك البلاد كلها ويأخذ أمه وأخته ويسافر لأي مكان. أرجأ

فكرة السفر قليلًا لأنه مشغول بفكرة أخرى وهي الانتقام لموت زهراء. صارح أقرب أصدقائه بذلك فنهره وقال إنها مهما كانت غالية فقد ماتت خطأ لا عمدًا وسط صراع بين طرفين، وليس هناك أحد يستطيع أن يجزم باسم القاتل أو القتلة.

لم يثنه ذلك عن عزمه. كان له ود كبير مع الكثير من الموجودين في ساحات القتال. كان يجلس إليهم كثيرًا ويحاول استنتاج معلومة من هنا أو من هناك بلا جدوى، حتى تحدث إليه أحدهم بشكل مباشر وقال إنه يعرف دوافعه. حاول في البداية الإنكار لكن ذلك الشخص أكد له أنه سيساعده لأن هشام قاتل إلى جانبه وحمى ظهره ذات مرة.

استطاع الرجل أن يدله على معلومة هامة عن الشخصين المتورطين في القتال ذلك اليوم. بعد أن أخبره باسميهما قال له إنه فعل ذلك من أجل أخوة الدم بينهما، ولكنه رجاه ألا يحاول قتلهما لأنه قد يتم قتله أو الانتقام منه لو نجح فالموضوع ليس سهلًا.

شكره هشام ووعده أنه سيعيد التفكير ولن يقدم على فعل خاطئ. أمضى بعد ذلك شهرًا تقريبًا في تتبعهما والاستعداد لتنفيذ انتقامه، وفي الوقت نفسه باع بعض ممتلكاته ليستعد للسفر إلى عمان مع أمه وأخته.

كان القاتلان صديقين وفي كثير من الأوقات كانا يتحركان معا. ترصد لهما ذات يوم في طريق خال وأطلق عليهما الرصاص من بعيد. عندما سقطا على الأرض اقترب منهما. وجد أحدهما ميتًا وكان الثاني مصابًا فأجهز عليه.

كان الرصاص حقًا هو ما شعرت به شيخة ينهمر على رأسها وهي تسمع هذا الكلام. كيف يتحدث عن تلك الوحشية التي فعلها باعتبارها من المسلمات، وكيف طاوعته نفسه على أن يقتل جريحًا وسألته هل نظر في عينه قبل أن يجهز عليه، هل توسل له الرجل ألا يفعل.

- قلت لك إن الحرب تغير البشر. منذ اشتركت في القتال أول الثورة سقط أمامي ذلك الحاجز، رهبة الموت وسيلان الدماء ومشاهد الاحتضار لم تعد تثير في نفسي شيئًا. أنا نفسي احتضرت وعدت إلى الحياة فلم يعد الموت يرهبني.

"كيف يصلي ويتحدث دومًا بلسان من يزن أمور حياته بميزان الحلال والحرام؟" سؤال جال بخاطرها وهو يدافع عن نفسه. كيف قتل رجلين بلا بينة قوية سوى مجرد خبر نقله أحدهم، كيف وقد قتلاها خطأ لا عمدًا. هشام هذا يقتل جريحًا؟ أي كابوس ذلك الذي تعيشه في هذه اللحظة.

- كان من حقها ومن حقي أن أنتقم. أنا ولي دمها وهذا قصاص عادل وقد قال تعالى "كتب عليكم القصاص في القتلى"، أي واجب علي وليس ترفًا.

- لا تدخل القرآن في فعلك هذا.

- قال أيضًا "وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا"، وأنا وليها.

- ليس هناك شرع يبيح ما فعلت، لا تكن منافقًا.

كانت الرصاصة من نصيبه هو تلك المرة من حدة لهجتها حين نعته بالنفاق. صمت قليلًا وتناول بعضًا من الماء وهمت هي بطلب المغادرة لولا أنه رجاها أن تنتظر. لم ينكر أن الانتقام كان دافعه الأول. انتقام رجل لدم زوجته وحبيبته وكل ما تمناه من الدنيا.

كان لومه لنفسه على وفاتها مضاعفًا، فقد كان مخططًا أن يسافرا لأهلها في ذلك اليوم وألغى السفر لارتباطه بواجب عزاء، وهو الذي رفض أن تذهب إلى عملها وأصر على أن تبقى بالبيت وتنتظره حتى يعود ويمضيا اليوم معًا. تتابع للأحداث (كان هو المتسبب فيه) أدى إلى بقائها بالبيت لحظة سقوط القذيفة التي قتلتها.

تلازمه صورتها والغبار يعفر جثمانها المسجى أمامه في ثلاجة المستشفى التي كانت تنقذ هي أرواح الناس فيها. عيناها المسبلتان وذرات الغبار تتخلل رموشها وشعر حاجبيها وتملأ فرقة شعرها الجميلة مشهد يشكل خلفية للكثير من الأوقات في حياته. إيمانه القوي بالله لم يفلح في إزالة إحساس الندم والتوقف عن كلمة لو "لو أننا سافرنا"، "لو تركتها تذهب للمستشفى لكانت تعالج من ينام على طاولة الاستقبال بدلًا من أن تكون هي النائمة عليها"، "لو لم أتركها وأذهب لكنت تلقيت الصدمة عنها".

- كنت أبحث عن راحتي، عن شيء يبرد حر قلبي. عندك حق سأكون منافقًا لو قلت إني قتلتهما بدافع إقرار القصاص العادل فقط، أنا

فعلتها ظنًا مني أن دماءهما ستعيد ضخ دمائها في عروقي لكنني كنت واهمًا.

- أسوأ من القتل تبريره. لو أنك واثق تمامًا من أنك على حق لما اعترفت لي. اعترافك هو شعور مستتر بالذنب.

- لم أكن أعترف بذنبي، بل كنت أطلعك على أسرار حياتي السابقة لأنني لا أحب أن نرتبط وبيننا أسرار. لم أقتل بريئين؛ بقتلي لهما أنقذت حياة آخرين. كانا من أسوأ المقاتلين الذين لا يفكرون أن نيرانهم قد تطال أبرياء.

قامت منهية لقاءهما وتاركة إياه يفكر هل خسرها للأبد أم أن ثمة أملًا أن يظلا -على الأقل- أصدقاء برغم كل شيء. ركبت المصعد ونزلت به إلى المرآب ومشت مسرعة إلى سيارتها. ما إن فتحت بابها وجلست على مقعدها حتى انفجرت باكية وهي تشعر كأنها تعرضت للخيانة.

"لماذا لم يخبرني قبل ذلك"، قالت لنفسها بصوت عال ثم ردت "طبيعي جدًا فهو لن يصارح كل فتاة يقابلها بأنه قاتل يسفك الدماء بالظن". قالت لنفسها في النهاية إنه مهما كانت مبرراته أو مزاياه الأخرى فلن يشفع أي شيء أبدًا لفعلته الشنعاء.

"نقطة في آخر السطر وحان الوقت لأن أقلب الصفحة". كانت تلك هي الكلمة الأخيرة التي قالتها لنفسها قبل أن تركب سيارتها لتمضي، قالتها على استحياء وبتصميم يبدو طفوليًا أكثر من كونه

جادًا. الحقيقة الوحيدة التي هي متأكدة منها الآن أن التفكير في هشام كحبيب انتهى إلى الأبد. قد تتألم قليلًا أو كثيرًا وقد تجتر الكثير من الذكريات وقد يمزقها الشعور بالحنين أو بالندم، لكن ما بينهما لن يعود أبدًا كما كان.

٢٤

قبل أن يركب حسن سيارته أمسك هاتفه وطلب رقم جانيس، وكالعادة لم يجد هاتفها متاحًا ففتح باب سيارته وقذف الهاتف بفراغ صبر على الكرسي المجاور. انطلق نحو فندق شيراتون الكويت، حيث ينتظره إياد زبونه اللبناني الذي يعمل مسؤولًا هامًا بإحدى الشركات الكبرى التي لها فروع في دول الخليج كلها. يأتي إلى الكويت كل شهر أو اثنين، يمكث أيامًا قليلة ويتخذ من حسن سائقًا خاصًا له مدة تواجده في الكويت.

أول لقاء له بإياد كان مصادفة، فشركة إياد تخصص له سيارة فاخرة يتنقل بها في المعتاد، وركب مع حسن أول مرة حين تأخر عليه سائقه. من ساعتها وهو يفضل الركوب مع حسن ويحب مبادلته الحديث والمزاح معه طوال وجوده في السيارة، ساعد على ذلك أنه وجد حسن جامعيًا مثقفًا يجيد الإنجليزية والفرنسية.

ركب إياد جواره وأمسك الهاتف الذي رماه وأعطاه له مستفسرًا عن سبب وضعه على الكرسي، لكن حسن تجاهل السؤال وسأله عن وجهته.

- اذهب بي إلى أي مكان، فأنا أشعر بملل شديد وأنت ستكون رفيق الملل.

- ولكن المفترض أن أوصلك إلى وجهتك وأوصل زبونًا أو اثنين ثم أعود إليك.

أصر الرجل على أن يرافقه حسن. قال له أن يعتبر كل الوقت الذي سيقضيه معه مدفوع الأجر. حاول حسن أن يتملص منه دون فائدة. أحس بنبرة في صوته توحي بأن الرجل متعب من شيء ما. المشكلة أن مزاجه كان عكرًا والرجل يحب التحدث بلا كلل.

استسلم حسن في النهاية. عرض على إياد أخذه إلى مكان على ذوقه فوافق. كان المكان هو المقهى الذي يجلس فيه مع أصدقائه. نظر إياد إلى المكان والطاولات والنادل ثم قال لحسن:

- لست في حالة تسمح لي بنزلة معوية، اسمح لي أن أختار المكان.

تضايق حسن من ردة فعله وقال إن هذا مكانه المفضل هو وأصحابه، فاعتذر إليه وقال إنه غير معتاد على هذه الأماكن، وطلب منه أن يذهبا إلى برج الحمراء حيث مكانه المفضل.

ركبا التاكسي ثانية، وبينما هما في الطريق بدأ الرجل بالكلام قائلًا إنه يشعر باكتئاب فظيع. قال حسن في سره "أي اكتئاب وأنت تتقاضى شهريًا ما يكفي ليزوج خمسة شبان مثلي"، ثم سأله عن سر اكتئابه متصنعًا الاهتمام.

- لا يوجد شيء جديد في حياتي. دورة رتيبة تتكرر، لا شيء يحفزني أو يسعدني، عمل ثم عمل ثم صراعات في العمل وضغوط من رؤسائك ومرؤوسيك والمساهمين. ليس لدي هدف أسعى إليه، فأنا موضوع في شريحة استقررت بها لا أستطيع أن أكبر أو أحقق إنجازًا ما، وفي الوقت ذاته لا بد أن أعيش الروتين نفسه والصراعات نفسها لأحافظ على وجودي فيها. هل تفهمني؟

هز حسن رأسه بطريقة توحي أنه يتفهم ما يعانيه وهو في الحقيقة لا يأبه لهمومه "الزائفة"، فهذا الرجل لو فقد شيئًا لأدرك قيمة ما لديه. ثم أي شريحة يتحدث عنها، لديه مليون دولار في البنك مثلًا ويحزنه أنه مهما فعل فلن يجعله عشرة. فكر حسن بشيء يقوله ثم اقترح عليه أن يذهب في رحلة إلى جزر المالديف (فهي أغلى رحلة يفكر فيها). رد عليه الرجل:

- ذهبت إليها و...

سكت الرجل وبدا أنه لا يريد أن يكمل كلامه، وسادت دقائق من الصمت. أمسك إياد بهاتفه وشغل أغنية ورفع صوتها. أخذ يردد كلماتها ثم أوقفها وهو يعيدها على حسن:

- هذه الأغنية تشرح إحساسي.

"في أي لحظة الآن ستصل سفينتي

سأظل أراقب الأفق

سأقف على الشاطئ وأستشعر اهتزاز الأمواج

وهي تتحطم عليَ

وأنت يا حبيبتي تقولين انتظر.. افتح قلبك ودع الضياء يدخل

لكنك لا تفهمين

فأنا أنتظر أن تبدأ حياتي الحقيقية"

هذا شعوري يا حسن، أنا أشعر بأن حياتي الحقيقية لم تبدأ بعد، وما زلت أنتظرها.

مست الكلمات قلب حسن، فهو أيضًا لا يزال ينتظر أن تبدأ حياته الحقيقية، لكنه كان متخيلًا أن العائق الوحيد لبدايتها هو المال. اتضح له الآن أن الحياة الحقيقية حلم بعيد المنال عن الجميع مهما اغتنوا.

حسن في داخله غير مقتنع بفكرة أن الرزق مقسم بالتساوي، وكان يقول لنفسه دومًا إن السعادة تركة على الأرض يأخذ البعض منها أكثر من الباقين. لكن أمامه الآن مثالًا لرجل لديه كل شيء ويشعر بالتعاسة بلا مبرر من وجهة نظره. قال ذلك فرد إياد عليه قائلًا:

- في رأيي أسباب السعادة مقسومة بالتساوي وإن كان الرزق غير ذلك. هذا النادل مثلًا تسعده سهرة مع أصدقائه تكلفه خمسة دولارات بالقدر نفسه الذي تسعدني به سهرة تكلف خمسمائة دولار.

- قد تكون على حق، لكن هناك شيئًا جديدًا اليوم فجر نوبة اكتئابك.

قص عليه إياد موقفًا حدث له في الصباح وهو يتناول إفطاره في الفندق حين شاهد زميله في الجامعة والذي كان أقل منه في التقديرات.

سلم عليه وتحدثا، عرف أنه يعمل مديرًا إقليميًا لشركة ضخمة متعددة الجنسيات، ودخله السنوي لا يقل عن عشرة أضعاف دخله هو. له بيت في كاليفورنيا وشقة في دبي وقصر في بيروت وتنتظره طائرة خاصة لتقله إلى الرياض ليكمل اجتماعاته.

ابتسم حسن وهو يسأله عما لديه هو مقارنة بزميل دراسته.

- أقل كثيرًا، لدي بيت في بيروت وشقة صغيرة في نيس بفرنسا، وبدلًا من الطائرة الخاصة أركب معك التاكسي. وأنت يا حسن ما الذي يضايقك هذه الأيام؟

- يضايقني حين يدخل لي من التاكسي في اليوم عشرون دينارًا ويقول لي عبدالعزيز صديقي أنه كسب خمسة وعشرين، تصدق بالله يا باشا أنا باق لي خمس دقائق وأخلع بنطالي من الغيظ.

ضحك الرجل بصوت عال حتى دمعت عيناه ولفت انتباه الحاضرين، وحين هدأت نوبة ضحكه قال لحسن:

- المشكلة أن كل واحد يقارن بما يراه وبالوسط الذي يعيش فيه. دعك مني، أنت تبدو متجهمًا، قل لي ماذا يضايقك، دعني أخمن، هناك امرأة في الموضوع.

- الحقيقة امرأتان.

انفجر الرجل ضاحكًا ثانية، فقام حسن متصنعًا أنه سيغادر وهو يقول للرجل إن شكلهما بات محرجًا. أمسك الرجل بيديه ليجلسه وهو

يقول إنه لن يكررها ويطلب منه أن يحكي. تحرج حسن وحاول التهرب لكنه قال:

- أعرف أنها أمور شخصية، ومن المرجح الآن أنك تراني رجلًا غريب الأطوار، لكن صدقني أنا خير من ينصحك.

- أعرف ولكن...

قاطعه الرجل واستحلفه بأن يحكي له، وأكد له أنه سيساعده مهما كان المطلوب.

- حسنا سأحكي لك يا حسن عن أهم امرأة في حياتي. امرأة أحببتها وأنا متزوج وقضيت معها أجمل أيام عمري، وفي النهاية تركتني لأن حبي خطيئة ولأنها شعرت أن الرب يعاقبها بسببي، وطلبت مني أن نصير أصدقاء وأن أبارك زواجها بآخر. تمنيت ساعتها لو أننا مسلمون كنت سأتخذها زوجة ثانية.

ضحك حسن وقال له إن الموضوع لم يعد بهذه البساطة، وإن النساء الآن يذبحن أزواجهن عند التفكير في الزواج بأخرى.

- ما زلت أراها لليوم، وما زالت تتقطع رئتي كلما رأيتها معه في أي مناسبة. ما زلت أفتش عن ابتسامتها في وجه كل امرأة أخاطبها، بل أفتش عن حرارة لمستها كلما لمست امرأة أخرى.

اتسعت عينا حسن في دهشة وهو يستمع للرجل، وبالفعل حكى له كل شيء عن نهلة وعن جانيس وكل ما يدور برأسه وحتى كلام هشام معه.

- دعك من صديقك هذا، فهو يشبه صديقًا لي يدعي دومًا أنه أقرب للرب، وأن مكانه في الجنة سيكون فاخرًا ونحن في أدنى منزلة.

- أعرف سيكون هو في بيفرلي هيلز الجنة وأنت في باكستان.

انفجر إياد ضاحكًا ثانية فأقسم حسن إنه سينصرف إذا كررها، فهدأ الرجل من ضحكته وبدأ يلتقط أنفاسه وهو يقول:

- نهلة بالنسبة لك قصة حب ومشروع زواج والحب فيها عليه الكثير من علامات الاستفهام. قصة حب الوهم فيها أكثر من الحقيقة، فقاعة كبيرة امتصتك داخلها وهي في الحقيقة لا شيء.

حك حسن رأسه بسبابته وهو يستمع إلى هذا الكلام من إياد وهو غير مقتنع. يقول هذا الرجل إن حبه كفقاعة، أليس كل الحب كذلك. أليست علاقة الحب في حد ذاتها فقاعة ضخَّمها وهم الشعراء وخرافات الرواة ودندنات المطربين. ألا يجوز أنه لا يحب جانيس بل أحب صحبتها والمتعة معها وإحساسه بتملكها.

- لا تغالط نفسك أنت تحب جانيس؛ تتحدث عنها بطريقة هائمة متلهفة وتحكي عن لقاءاتكما معًا بسعادة طفل. أنت تحفظ كل تفاصيلها، أنت مفتون بها دون أن تدري.

- لكن نهلة تصلح زوجة أما جانيس قصة مختلفة.

- الزواج مرحلة تالية يكون لها حسابات أخرى، وستكون طريقة التخطيط لها لا تعتمد على الحب فقط بقدر ما تعتمد على استعداد كل منكما للتنازل لبناء زواج يرضيكما معًا.

بدت ملامح التفكير العميق على وجه حسن وهو يقلب الوجهين في رأسه. المشكلة في كلام الرجل أنه يقيس العلاقة بمنطق لا يناسب خلفيته الاجتماعية في مصر.

- أنا عربي مثلك يا حسن وعندنا تفكير شبيه بما تقول، لكن الدنيا اختلفت. لو جئت بعد عام وأخبرت أهلك أنك وجدت عروسًا مناسبة هنا فسيوافقون حتمًا، ولا يهم أن تعطيهم تفاصيل كثيرة. من سيرفض سعادتك وحياتك مع امرأة تحبها؟

ابتسم حسن وهو يذكر رأي خالته في الفلبينيات حين تكلمت معها امرأة تغار على زوجها الذي يعمل في الخليج من الفلبينيات اللواتي يعملن معه. كان ردها "هؤلاء لسن نساءً أصلا، ليس لديهن نهود ولا أرداف". فكر أن يحكي ذلك لرفيقه لكنه تراجع فضحكته هذه المرة ستلفت نظر كل من في المبنى.

- وكيف سأستعيدها وهي غيرت هاتفها وصديقتها لم تعد ترد عليّ؟

- لا تقلق لدي خطة.

استغرب حسن من حماسة الرجل واستماته في مساعدته، لكنه عزا ذلك لكونه مكتئبًا ويبحث عن شيء يقوم به ليخرج من كآبته، ففي حياة الكثير منا فترات يتعلق فيها بأشياء غريبة عنه ليغير بها من رتابة يومه.

أخذ إياد منه رقم روز صديقة جانيس وطلبها، بدأ الحديث معها معرفًا إياها بنفسه وبأنه صديق حسن. كانت المرأة متحفظة في البداية،

إلا أنه استمر في الحديث معها بطريقة أدهشته وعرض عليها خمسين دينارًا إذا هي استطاعت أن ترتب لقاءً بينهما. ذهل حسن من كلام الرجل مع روز متوقعًا أن تغلق في وجهه، لكن الحديث استمر وبدا له أنهما قد وصلا لاتفاق ما.

- اسمع، سنذهب الآن أسفل البناية التي تسكنان بها وستقابلنا روز تلك، هناك سنعطيها نصف المبلغ لتتأكد من جديتنا.

- من قال إنني على استعداد لدفع مبلغ كهذا، إذا أرادت مقابلتي فسأقابلها وإلا فلا.

قال له الرجل إنه هو من سيدفع المبلغ، لكن عليه أن يهدأ ويتفهم ما جعله يعرض عليها مبلغًا كهذا. هو يعلم يقينًا أن جانيس لا تزال تحب حسن وأن لصديقتها دورًا في شحنها ضده. الشخص الذي يتعرض لجرح من حبيب يكون ضعيفًا جدًا وقابلًا للقيادة، وطريقة رد روز عليه أكدت حدسه هذا. لم تقل له "سأسألها" أو "أعتقد أنها لا ترغب في الحديث لحسن"، بل ردت بطريقة قاطعة تنبئ بأن لها غرضًا في إنهاء تلك العلاقة.

- أي غرض؟

- لا أعرف، المهم أن لدي خبرة كبيرة في قراءة البشر وأستطيع أن أعرف ما يحركهم، ولذا عرضت عليها المال، ورغم تمنعها في البداية إلا أن جديتي في عرضه وشرحي لها ما يمكن أن تفعله به سهل الأمر.

كان حسن معجبًا بطريقة تفكيره وتحليله للنفوس، وقال في باله إن هذا الصنف من الناس ناجحون ليس لمهاراتهم العملية بقدر مهاراتهم في التعامل مع البشر والتنبؤ بأفعالهم. قام إياد باستدعاء النادل وأعطاه بطاقة الائتمان ليدفع بها الحساب، وسرح تفكير حسن وهو يخمن الحد الائتماني لمثل تلك البطاقة.

قاما معًا وقاد حسن السيارة تجاه البناية التي يقطن فيها جانيس وروز، وحين وصل أسفل البناية كانت المفاجأة أن روز لم تكن وحدها وإنما كانت جانيس معها في انتظاره.

٢٥

روز تلقت مكالمة إياد في وقت كانت تجلس فيه مع جانيس. عندما ردت روز على المكالمة وعرفت من يخاطبها ولماذا، عمدت إلى فتح الصوت الخارجي للهاتف لتتمكن جانيس أيضًا من سماع المكالمة، وحين عرض الرجل عليها النقود مقابل أن ترتب لقاء حسن بجانيس ابتسمت الأخيرة لذلك العرض السخي من حسن لمجرد أن يراها فأشارت لروز بأن توافق على الفور.

- ما الجديد الذي جعلك تتراجعين بتلك السهولة أيتها الحمقاء؟

- لا أعرف، ربما الفضول لأعرف ماذا يريد أن يقول، أو لجعلك تحصلين على الخمسين دينارًا.

ضحكت روز وهي تقول إن النقود قد تكون هي السبب الوجيه الوحيد الذي يجعلها توافق على تلك المقابلة، لكن أي فضول ذلك الذي تحس به تجاه مقابلته. حسن سوف يكرر الكلام ويتحجج بالحجج نفسها. هو لا يطلبها لأنه يفتقدها بل لأنه يفتقد فراشها.

- لا أعتقد أنه سيضحي بهذا المبلغ ليراني فقط أو ليفعلها معي، أشعر بأن الأمر سيكون مختلفًا هذه المرة؛ لهفته على العودة لي تنبئني بذلك.

لا تزال تحب حسن ولكنها آثرت الابتعاد عنه في الفترة الأخيرة لأنه يواصل إهمالها متعمدًا. هي امرأة قوية حفرت السنون في روحها الكثير من الأخاديد وصقلتها وجعلتها تملك نفسها أغلب الأحيان. مع ذلك مهما كنا أقوياء ومتحكمين في أفعالنا تأتينا لحظة استسلام يكون سببها ضعف من نحب لا قوته. حين نتخذ قرارًا بالبعد والتخلي عن قصة حب تعذبنا ونبني قلاعًا تحمينا من أي شيء يعيدنا إليها، لا تتحطم هذه القلاع إلا حين نبصر ألم الطرف الآخر واحتياجه لنا.

ارتدت روز ملابسها ونزلت لانتظار حسن بالأسفل لإبلاغه بموافقة جانيس على مقابلته ظهر اليوم التالي. مرت دقيقة على جانيس وهي جالسة مسمرة والفضول والحيرة يأكلانها ثم قامت مرة واحدة فارتدت ملابسها على عجل وخرجت من شقتها. استدعت المصعد ولما أحست أنه سيتأخر فتحت الباب المؤدي للسلالم ونزلتها قفزًا وخرجت من باب البناية وهي تدعو ربها أن تراه.

أخذت تهدئ أنفاسها المتلاحقة حين رأت روز لا تزال واقفة في انتظار وصول حسن، ورأت سيارته قادمة وإلى جواره إياد. كانت دهشته كبيرة حين رآها في انتظاره. ترجل من السيارة ودعاها هي وروز للركوب فنظرت روز إلى جانيس بغيظ وكأنها تسألها ماذا سنفعل.

- روز ستبقى وأنا سآتي معك، أعطها ما اتفقت معها عليه.

أخرج النقود من جيبه وأعطاها لروز وأجلس جانيس في المقعد الخلفي. أدار حسن سيارته فقال الرجل:

- اتجه بنا إلى الفندق فهناك مقهى جميل جدًا وهادئ.
- إذا كان ذلك الفندق بعيدًا فدعنا نجلس في أي مكان قريب، فلن تستغرق جلستنا وقتًا يذكر.

ضحك الرجل ضحكته الصاخبة ثانية، مما أغضب جانيس وهي تستفسر عن سبب ضحكته تلك، فاعتذر إليها وهو يقول إن الفندق قريب ولا داعي للقلق.

- لكنني لا أفهم ماذا أضحكك بهذه الطريقة.
- لا شيء يتعلق بك، وإنما تذكرت شيئًا ما.

لم تقتنع بإجابته لكنها لاذت بالصمت في مقعدها وألف فكرة تدور برأسها. نظرت إلى المرآة فوجدت حسن ينظر إليها فأشاحت بوجهها للناحية الثانية. بعدها قال الرجل لحسن كلامًا بالعربية ورد عليه حسن وهي لا تفهم فيم يتحدثان، وإن أنبأها حدسها بأنها هي موضوع الحديث. همت بأن تطلب منهما أن يكفا عن الحديث بالعربية لكنها تراجعت.

في الحقيقة كان إياد يطمئن حسن أنه لاحظ أن المرأة تحبه، وأنها تحاول أن تداري ضعفها وتلهفها للقائه بهذا التجهم. أخبره أيضًا أنه سيتركهما معًا وسيصعد إلى غرفته. شكره حسن فقال:

- بل أنا الذي أشكرك، لقد غيرت مزاجي إلى الأحسن بالفعل، وأريدك أن تكمل الجميل وتنال رضا تلك المرأة حتى أشعر بأنني فعلت شيئًا.

تركهما وانصرف وجلس حسن ينظر إليها وهو محتار في ما يقول. بدأت هي أولًا بسؤاله عن ذلك الرجل، فأخبرها حسن أنه صديق وأنه من اقترح عليه فكرة أن يطلب روز ويعطيها نقودًا لترتب لقاءه بجانيس. ابتسمت حين قال ذلك، ولكنها أخفت ابتسامتها سريعًا وهي تسأله ما الذي يجعله يضحي بمبلغ كهذا لمجرد أن يقابلها وهو قد رآها مع آخر.

- لم أقتنع بأنك صرت مع ذلك الآخر، لكن على أية حال كان كل ما أريده أن أقدم اعتذاري وأشرح حقيقة موقفي، ولن أطلب منك أكثر من ذلك.

لم يخبرها طبعًا أن إياد هو من دفع النقود، فقد أحس أن فكرة أنه ضحى بهذا المبلغ قد راقت لها ولم يرد أن يفقد هذه النقطة التي اكتسبها للتو. كان متوقعًا أنه حين سيقول ذلك -إنه لا يريد سوى الاعتذار- ستضعف هي مباشرة، وأن أي تبرير تافه يقدمه سيتم قبوله، لكنها فاجأته بالرد عليه بجمود:

- تفضل اشرح حقيقة موقفك.

ألجمت طريقتها لسانه فتلعثم وهو يرد، وأخذ يحاول أن يسوق الحجج التي جهزها سلفًا وهو يشعر بأن الكلام خارج من فمه يفوح

برائحة الكذب. بعد أن انتهى فوجئ بها تقف استعدادًا للانصراف وهي تقول:

- للأسف أضعت وقتي معك، كنت أظن أنك ستقول لي الحقيقة لكني لم أجد منك إلا الأكاذيب.

قام وأمسك يدها لتجلس ثانية فنزعت يدها منه بقوة، وجلست وهي تطلب منه أن يبدأ بإخبارها الحقيقة وإلا فستنصرف. صمت حسن قليلًا وهو ينظر إليها كأنه لا يعرفها، وبدلًا من أن يقول الحقيقة سألها عن السبب الذي يجعلها تعامله هكذا، ما الذي غيرها.

استفزها سؤاله فخرجت كلماتها سريعة متلاحقة كأنها تستبق أي رد سيقوله لها. كأنها تتسابق مع نبضات قلبها التي تضغط عليها بقوة للاستسلام والعودة إليه دون ضمانات أو شروط. كانت تدافع عن كرامتها ونبل آلامها ضد ما تبقى في روحها من خضوع له وفي أنفاسها من لهفة إليه وضد ما في جسدها من عطش للمساته. لم يجد أمام ذلك السيل الجارف من كلماتها سوى أن يرد بشكل عكسي وهو يقول:

- النساء يبرعن دائمًا في لعب دور الضحية، والقول دائمًا إنهن من يقدمن الحب ويبذلن العواطف، والرجل في قاموسهن كائن أحادي التفكير لا يهتم إلا بالأكل والنوم والشهوة ومباريات الكرة. دعيني أعطِك مثالاً، لو حكيت لك عن رجل وامرأة وقعا في قصة حب يرفضها المجتمع ثم انفصلا. لو مضى الرجل في حياته بعد ذلك ستملأ المرأة الدنيا عويلًا قائلة إنه اعتبرها نزوة ومجرد رقم في دفتر

نسائه. ماذا لو افترضنا العكس، هل تخيلت مرة وقع المأساة على قلب رجل أحب امرأة ثم تركته بحجة أنه كان الخطيئة التي تريد التبرؤ منها وأنه هو الذنب الفظيع الذي يجب أن تتوب عنه. هذا يمزق الرجل من داخله، ولكنك بالطبع لن تتخيلي لأن الرجال لا يشتكون، يطوي الواحد منهم كبرياءه على أحزانه ولا يتكلم.

استفزها رده أكثر فقالت:

- خطبة عظيمة تستحق التصفيق، لكنك تحكي هذا لامرأة سببت أنت مأساتها لا العكس، ولتستطيع إنكار أنك تلاعبت بي.

- أنا لا أبرر، أنت تعرفين ما أعانيه.

- الآن ستقص علي حكاية مأساتك الكبرى والثورة الفاشلة التي اشتركت فيها وانتهت بألم مزمن في ذراعك ومستقبلك المظلم. بحق الجحيم يا رجل انظر إلي وإلى ظروفي، انظر إلى بلدي الأفقر من بلدك، انظر إلى عائلتي الممزقة. ولكن لماذا تنظر، فأنت لا ترى مظلومًا غير نفسك ولا تظن أن هناك بلدًا غير بلدك ولا شعبًا يعاني غير شعبك ولا دينًا منطقيًا غير دينك. حتى في الأشياء التافهة الفلافل المصرية هي فقط اللذيذة واللحم المصري زكي الرائحة وغيره زنخ والسمك المصري والفول المصري، ثم تأتي بعد ذلك وترتدي ملابس المتفتح المتحضر العاطفي وأنت في الحقيقة أناني عنصري ضيق الأفق.

- ما دخل كل هذا بما نتكلم فيه؟

نظرت إليه بفراغ صبر وهي تقول إن كل ما قالته هو لب المشكلة. هو يستهين بها ولا يحترم شخصيتها ولا مشاعرها لأسباب كثيرة ذكرت له بعضها. لملمت حقيبتها ثانية وهمت بالوقوف فحاول أن يستبقيها لكنها رفضت الجلوس ثانية وهي تسأله إن كان سيأتي لتوصيلها أم تحاول أن تعود وحدها. هم بالانفعال عليها لكنه نظر إليها وإلى عينيها المكتنزتين بالدموع واحمرار وجهها ورعشة الانفعال في يديها. طلب منها أن تجلس حتى يحاسب النادل ويمشي معها فأبت، وقالت إنها ستنتظر خارجًا وهي تهم بالمشي فاستوقفها قائلًا:

- أنا أحبك.

تسمرت للكلمة أول وهلة وسألته:

- ماذا قلت؟

- أنا أحبك يا جانيس، أنا حسن المصري المسلم المولود في عين شمس أحب جانيس الفلبينية المسيحية المولودة في أوباي.

جلست غير مصدقة أذنيها، وهي تسأل نفسها هل يعني ما يقول حقًا أم أن تلك مناورة جديدة منه كي يلهيها عن طلبها منه أن يخبرها مبررًا لأفعاله الأخيرة. لم تكذب خبرًا وردت عليه قائلة:

- لا أصدقك، أنت فقط تريد أن تتجاوز تلك الأزمة، وكأنني طفلة بلهاء سأصاب بالدوار حين أسمعك تقول إنك تحبني.

قالتها وهي تتمنى أن يكذبها وأن يؤكد أنه يحبها. كانت تتمنى أي إثبات بسيط. لم يخيب أمنيتها واندفع قائلًا:

- أحب كل لحظة بيننا، أحببت ضعفي وصدقي حين حكيت لك عن كل إحباطاتي وآمالي الممزقة دون خجل. أحببت اللحظة التي قصصت فيها علي ذكرياتك وطلبت مني أن أكون معينًا لك لتتخطي آلامك وإحساسك بالغربة وشوقك لابنتيك. أعشق تلك الضفيرة التي صنعتها لك ذات مرة وما زلت أحب أن أطالع صورتها وهي تتدلى على ظهرك العاري. أحب حذاءك الرياضي بني اللون ذا الرباط المعقد الذي كنت ترتدينه آخر مرة.

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تستمع إليه وأفكارها ذائبة مختلطة. صمت هو ولم تستطع أن ترد عليه. سألها لماذا لا تجيبه فقالت:

- أستمع إليك، أكمل.

- لم أكن أطيق الأغاني الأجنبية في حياتي، ولكني أحببت الأغنيتين اللتين ارتبطتا بوجودنا معًا، تلك الراقصة والأخرى الهادئة. أقول لك شيئًا؟

- قل.

- حين قضينا أول ليلة كاملة لنا معًا، شاهدنا فيلمًا أجنبيًا بين نوبات النشوة، هل تذكرينه؟

- نعم، فيلم Inception.

- هو ذاك. كان كل ما في رأسي وأنا أشاهد الفيلم هو أنني في حلم داخل حلم مثل أبطاله، وأنك أنت كنت النقطة التي تثبتني لعالم

الواقع. لم يخطر في بالي لحظتها إنسان ولا شيء غيرك أنت يا جانيس. في تلك الليلة قلت لك إنني لا أستطيع أن أنام وهناك أحد يلمسني، وكنت صادقًا لكن لو أتيحت لي الفرصة ثانية فسأقضي طيلة الليل وأنت بين ذراعي، حتى لو كان ذلك يعني أن أظل مستيقظًا حتى الصباح.

تحطمت البقية الباقية من قلاعها بعد أن قال جملته الأخيرة، وأحست أنها على وشك أن تقبله أمام الناس. استعادت قليلًا من رباطة جأشها وسألته:

- إذن ما الذي جعلك تبتعد عني؟

- ألا يمكن أن نبدأ من جديد ونترك هذا السؤال لوقت لاحق. اعتبريني شابًا جديدًا يدعوك لأول موعد لكما معًا، وتذكري أنني من أجلك أكلت سمكًا عليه زنجبيل وتمر هندي.

ضحكت على كلمته الأخيرة، لكنها قالت له إنه كاذب في تلك وإنه أكله ليصل إلى جسدها وليس لأنه يحبها.

- عندك حق، كنا لا نزال بالبداية، لكنني الآن أقسم إنني أحبك.

- حسنا سنرى، سأقبل دعوتك للموعد الأول. واعلم أنني سأحتاج وقتًا كي أتأكد من حبك لي. وأنا لست امرأة سهلة المنال، وهذا يعني أننا سنمضي وقتًا طويلًا قبل أن...

- لا تكملي، يكفيني أن تسامحيني، أن تكوني جواري وأن أراك دومًا، ودعي ذلك لوقته.

٢٦

كان اليوم هو يوم العمل الأصعب على شيخة منذ بدأت مسارها المهني. لم تذق النوم طيلة الليل إلا غفوات بسيطة لا تشفي رأسها المكدود. لأول يوم منذ عرفته تتمنى أن يمر عليها يوم العمل هذا ولا تراه، فهي للآن لم تضع تصورًا لكيفية التعامل بينهما.

استدعاها أبو مشعل ليناقشها في الشكل النهائي للعدد القادم بعد التغييرات التي طرأت عليه، وطلب منها استدعاء هشام. لم تطلبه هي وكلفت مساعدتها أن تطلب منه الحضور لمقابلة أبي مشعل ففعلت. قامت خارجة من مكتبها متعللة بالذهاب لشراء قهوتها المفضلة كي لا تلتقيه وجهًا لوجه.

نزلت في المصعد وهي تحاول إخراجه من رأسها دون جدوى. حلقة مفرغة تبدأ بتذكر موقف له ثم تنهر نفسها وتقول لا فائدة من التفكير، فيلتقط عقلها حبل أفكار آخر تمشي وراءه حتى تصادف ذكراه في نهاية الحبل.

لا تنفك تسأل نفسها كيف يرتدي ذلك الهادئ الحنون الوقور مسوح سفاح يقتل بمنتهى الهدوء. تناولت كوب قهوتها من الفتاة الفلبينية التي تقدم الطلب النهائي، وسرح فكرها ثانية وعيناها مثبتتان على وجه الفتاة التي ارتبكت وسألتها هل تريد شيئًا آخر، فقالت:

- لماذا أغلب الفتيات في المطاعم والمقاهي الشهيرة هنا في الكويت فلبينيات ولسن عربيات أو هنديات؟

ابتسمت الفتاة بارتباك دون أن تدري ماذا تجيب، فتركتها وذهبت إلى الطاولة الموضوع عليها الإضافات، وأضافت القليل من مسحوق القرفة وهي مبتسمة تقول لنفسها إن تلك الفتاة أكيد أنها تظنها مجنونة أو خرقاء. رن هاتفها برسالة من سلوى تسألها عن أخبار لقائها بالأمس فأجابت:

- لا أريد الحديث في هذا الموضوع ثانية، فأنت السبب في ما حدث.

رن هاتفها بمكالمة من سلوى التي فوجئت بذلك الهجوم فطلبتها لتفهم السبب. ردت عليها شيخة باقتضاب أن الموضوع لم يكن مناسبًا من البداية، وأنهما من عالمين مختلفين في كل شيء، وأنها اكتشفت أن الزاوية التي تنظر بها للأمور عكس زاويته.

استدارت خارجة من المكان ففوجئت به أمامها. ورد بخاطرها أنه جاء خلفها ليكلمها وليحاول أن يبرر نفسه أمامها، خاطر أرضى أنوثتها رغم كل شيء. همست قائلة "أهلًا" دون أن تتوقف ورد هو

بالسلام دون أن يتوقف، فأكملت طريقها مسرعة وهي تتلظى من الغيظ.

"جاء محاولًا أن يكلمني أم جاء ليظهر وجهه أمامي ليجعلني أبادئه بالكلام. أيكون غاضبًا مني وجاء ليمنحني فرصة لأبدأ معه حوارًا. لا أعتقد أنه بهذا السخف". ما زالت تحاور نفسها وهي تنتظر المصعد. ضغطت زره بعصبية عدة مرات وهي تفكر "ولم لا، الرجال كلهم بهذا السخف يظنون أننا نضخم الأمور، وربما يظن أن تركي له بالأمس هو سوء معاملة مني كامرأة له كرجل".

هشام بدوره كان لا يزال واقفًا في المقهى يفكر في ذلك البرود الشديد الذي نشب بينهما، وهو الذي ظن أنهما ما إن يتلاقيان حتى يتبادلا أطراف الحديث كأن شيئًا لم يحدث. يحاول أن يستوعب ردة فعلتها العنيفة وعذرها في بادئ الأمر. سافر هشام عدة مرات إلى أوروبا وعاشر العديد من الشبان العرب المتأثرين بحضارة الغرب بشدة، ورأى أنهم غالبًا ينظرون للأمور بمنظور غربي دون أن يدركوا، رغم تمسكهم ببعض أعراف بلادهم الأصلية.

شيخة في رأيه من هذا النوع، تربت في مدارس أجنبية أغلب مدرسيها من الأوروبيين وأكملت جزءًا من تعليمها في لندن. ففي رأيه أنك حتى إن ظللت متمسكًا بدينك وتقاليدك لا بد وأن يتأثر اللاوعي عندك ويجعل طريقتك في الحكم على الناس أقرب لهم، فتسامح مع شاذ جنسيًا ولا تسامح مع رجل أخذ ثأر زوجته. يقول لنفسه "إن بلادًا

تفرط في إعطاء البشر حريتهم ثم ترفض عقوبة الإعدام على قاتل ولو قتل ألفًا، هي بلاد معوجة المنطق ولا ينبغي لمسلم أن يحكم على الأمور من منظور أهلها أبدًا".

لم يقتلهما فقط ليشفي غليله، بل لأن ذلك هو واجبه ومصيره الذي يجب عليه أن يقبله. كيف يمشي على الأرض وهو يعلم أن المرأة التي كان يجب عليه حمايتها قد قتلت ولم يأخذ بثأرها. لم يكن في إمكانه أن يعيش مع عبء كهذا يمزق كاهله. بعد قتلهما ارتاح من ذلك العبء حتى لو ظلت ذكراها وألم فراقها يطاردانه ليل نهار.

"ستعيد شيخة التفكير في الأمر وتفهمني وتتقبل دوافعي، ولماذا لا تتقبل مني ذلك وهي التي تقول مرارًا إنه لا ينبغي أن ننصب أنفسنا جلادين ونحكم على البشر ونحن لا نعرف ما يعانونه. ماذا رأت هي من الدنيا لتحكم علي بهذه السرعة، لو قتل عزيز لها لتغيرت نظرتها لفكرة الثأر والقصاص". حين عرف أنها خرجت إلى المقهى خرج خلفها وهو مصمم على رؤيتها، وقال لنفسه إنها فرصة أفضل أن يراها بالخارج فقد يتكلمان معًا.

"سأطلب منها أن نظل أصدقاء، نعم هذا أفضل، صداقتها ثمينة بالنسبة لي، والصداقة لا تتطلب توافقًا في الرأي أو حتى في الدين و..." قطع حبل أفكاره رؤيتها وهي تتكلم في هاتفها وظهرها للباب فوقف خلفها منتظرًا أن تكمل مكالمتها.

تأملها مبتسمًا وهي واقفة ممشوقة ترتدي جاكتًا ورديًا وتنورة زهرية ضيقة تصل إلى ما فوق كعبيها بشبر تقريبًا، وحذاءها ذا الكعب العالي جدًا الذي طالما سخر منه حين كانا يتكلمان بحرية. كان شعرها مهملًا اليوم على غير العادة تتناثر خصلاته بلا ترتيب. اقترب منها دون أن يقاطعها وصكت أذنه كلماتها عنه مع صديقتها. أطارت تلك الكلمات ما كان رتبه في رأسه من أفكار، لدرجة أنها حين التفتت ورأته أمامها لم يستطع إلا أن يرد عليها تحيتها الباردة بتحية مقتضبة بدت أكثر برودًا.

٢٧

- ماذا تعني كلمات تلك الأغنية؟
- ليس من السهل ترجمتها، لكنه يطلب منها أن تأخذه بين يديها وتذهب به إلى قمر في السحاب، وتشفي قلبه بحبها وأن تنسيه سنين التيه والعذاب.
- حقًا؟
- كيف لي أن أعرف؟ حميد الشاعري الذي يقول.
- وأنت، ماذا تقول؟
- أقول إنك سبب شفائي بالفعل، فلن أطلب منك ما أعطيته لي.
- وهي، ماذا تقول له؟
- تكمل كلامه وتطلب منه أن يسرقا ليلتهما تلك من السنين ومن آلام الزمن و... أن يكفا عن الرقص ويذهبا للفراش.
- يا لك من كاذب.

ضربته على صدره وهي تقولها، ثم دفنت وجهها فيه وهي تطلب منه أن يكف قليلًا عن هذا الكلام وأن يكمل الرقص معها.

مضى على عودتهما معًا شهر كامل، تقابلا فيه كثيرًا وذهبا إلى السينما عدة مرات لكنها لم توافق أن يضمهما مكان مغلق حتى اليوم. كانت برغم اشتياقها له واحتياج جسدها لضمة كاملة منه تغالب نفسها حتى تتأكد من إخلاصه في عودته لها.

كان كلما طلب منها ذلك قالت له إن الوقت لم يحن بعد، وترفض أن تعطيه موعدًا محددًا، وكان يوافق بفراغ صبر حتى إنه انفعل عليها ذات مرة ثم اعتذر بعدها مباشرة. من أسبوع صارحها بأنه غير متزوج وأنه كان يكذب عليها.

بقدر ما أسعدها ذلك الخبر بقدر ما ضايقها أنه كذب عليها كل تلك المدة. أخبرها أنه كان مرتبطًا بفتاة مصرية ومتفقًا معها على الزواج، وكان يعتبر زواجه في حكم الأمر الواقع، ولذا قال لها إنه متزوج حتى لا تتعقد علاقتهما. أما الآن وقد صارت هي حبه الوحيد وانفصل عن الفتاة المصرية فقد آن الأوان أن يصارحها.

أخذت يومها تقلب الأمر في رأسها كثيرًا، وفي النهاية اقتنعت بوجهة نظره وبأن ذلك كان السبب في أنه لم يقل لها "أحبك" طيلة الفترة الأولى في علاقتهما رغم طولها.

استراحت أيضًا حين أخبرها بالسبب الذي جعله يتركها تلك الفترة، وهو أنه أحس أنه يقع في حبها كل يوم أكثر من سابقه وأن ذلك أثر على خططه بالزواج بالفتاة المصرية. محاولته للابتعاد عنها كانت

محاولة ليتبين حقيقة مشاعره وحقيقة المرأة التي يحبها، وهل يستمر في زيجته تلك أم ينهيها.

أقنعت نفسها ذلك اليوم بأنها دخلت في صراع على قلبه مع امرأة أخرى، وأرضى غرورها أنها خرجت فائزة. أخبرته بعدها أنها قد انفصلت رسميًا عن زوجها، وأن إجراءات ذلك الانفصال أخذت وقتًا طويلًا وأنها قد تمت رسميًا في الفترة التي ابتعد عنها فيها.

عندما انتهت الأغنية التي يرقصان عليها أفلتت نفسها من ذراعيه وقامت بتشغيل أغنية من اختيارها. رفع رأسه قليلًا وكأنه يحاول أن يفهم ما تقوله الأغنية دون جدوى.

- هل هذه أغنية فلبينية؟
- نعم.
- لم أكن أعرف أن في الفلبين مطربين وشعراء، هل يوجد لهذه اللغة قواعد أصلًا.
- لن أرد عليك.
- كنت أمزح معك، قولي لي ماذا يقول.
- لن أتركك دومًا، ولن أدعك تذهب، ولن يغير الزمن ما بيننا.
- حقًا؟
- لا أعرف، جاي دورياس هو الذي يقول.

قالتها ثم ضحكت وأخذ هو يتأملها. كان وجهها مشرقًا وترتدي ثوب سهرة جذابًا اشترته خصيصًا لذلك اليوم. رتبت لهذا اللقاء بعناية

لدرجة جعلته يشعر بأنها تخطط له طيلة الشهر. شهر مر عليه طويلًا يحاول كل يوم أن يثبت لها حبه، ووسط هذا المجهود بدأ اهتمامه وهوسه بنهلة يقل شيئًا فشيئًا.

حين رآها تتجنب الذهاب معه إلى الفندق وتتجاهل أي تلميح منه لطلب علاقة جسدية ظن أن ذلك بسبب أنه لم يصارحها بسبب ابتعاده عنها. قال لها ربع الحقيقة وغلفه بحكاية كبيرة مختلقة خشي ألا تقنعها، لكنها اقتنعت وصدقته.

أنهى الرقص معها وجلسا يتناولان العشاء أمام الفيلم الذي اختارته. رن هاتفه في أثناء ذلك وكان المتصل إياد يطلب منه أن يمر عليه غدًا. سأله عن حاله مع جانيس فقال له إنهما معًا الآن.

- هل تستطيع أن تغلق هاتفك قليلًا؟

- أمرك يا مليكتي، أغلقته.

ابتسمت بسعادة واقتربت منه وقبلته فأمسك بها وحاول الاستمرار، لكنها نزعت نفسها منه بخفة وقالت:

- بعد الفيلم.

قالتها وهي مصممة وبدأ بالفعل في مشاهدة الفيلم، لكن تصميمها لم يصمد كثيرًا أمام مداعباته التي كررها كثيرًا حتى أشعل نارها فاستسلمت له.

في الصباح ارتدى ملابسه سريعًا ليلحق بزبونه وقبلها على وجنتها مودعًا إياها. أخذه من أمام فندقه واستقبله بحرارة. ركب معه وحسن يحكي له بسعادة عن تطورات حياته مع جانيس.

- تعرف، استخدمت حكايتك عن المرأة التي أحببتها وتركتك لأنها شعرت أن ما بينكما خطيئة.
- أي امرأة؟
- التي حكيت لي عنها، التي أحببتها وقلت إنك لو كنت مسلمًا لتزوجتها على زوجتك.

نظر إليه الرجل بتركيز قليلًا ثم انفجر في الضحك بطريقته وهو يقول:

- هذه كذبة بيضاء، كنت أجرك بها لتحكي لي عما يضايقك.
- يا ابن الـ...

أمسك حسن لسانه قبل أن يخطئ وهو غير مصدق أن الرجل قد "اشتغله" بهذه السهولة. لم يخطر بباله أن يفعلها فيه رجل كهذا يبدو أنه لم يمارس طقوس "الصياعة" المصرية من قبل. وحين قال ذلك رد إياد:

- مشكلة المصري أنه لا يصدق أن هناك عربيًا آخر يستطيع خداعه.

استأذن حسن منه أن يركب معه صديقه في طريقهما، فهو سائق أيضًا ولكن سيارته معطلة والواجب المهني يحتم عليه ذلك. وافق إياد ببساطة، وحين ركب معه عبد العزيز بدأ يتجاذب معه أطراف

الحديث، ويقول إنه يعرف سوريين كثيرين لكن أغلبهم من الشام (دمشق) وقليل من حلب، لكنه لا يعرف أحدًا من الرقة.

- ما أخبار داعش عندكم؟

- يقولون إنهم قد انتووا دخول لبنان.

ضحك الرجل لكلامه، وهو يقول إنه رغم اختلافه مع حزب الله إلا أن وجودهم يجعل داعش تفكر ألف مرة قبل أن تخطو في لبنان. قالها ثم أردف:

- مشكلتنا في الحقيقة هي ذلك الكم الهائل من السوريين في لبنان الآن.

احمر وجه عبد العزيز غضبًا وهو يسأل الرجل وما المشكلة؛ هم حتى الآن لا يقومون بالشيء الكبير، فالسوريون في لبنان لاجئون يعيشون في معسكرات ولا يسمح لهم بالحياة داخل لبنان والاندماج. أحس حسن أن الحوار قد يأخذ منحى حادًا فحاول تلطيف الأمر بقوله:

- إن شاء الله تنزاح الغمة يا عبود، لا عليك يا صديقي.

- أنت تعرف أننا في لبنان كلنا ثلاثة ملايين، فكيف تتوقع أن بلدًا هكذا قادر على احتواء مليوني سوري، أم نسيت الماضي.

- أي ماض ذلك؟

حاول حسن مقاطعة الحديث مخافة أن يتطور، وأخذ يتحدث عن السوريين في مصر، وكيف أنهم استطاعوا بناء أعمال خاصة بهم والتغلب على الكثير من المعوقات في بلد سيئ الوضع. أخذ يتكلم عن

أن مصر تعاني وتتجه نحو هاوية لا يعلم أحد عمقها، وأنه يتمنى العودة لكن لا شيء في مصر يعود إليه.

استطاع بطريقته أن ينقل الحديث لموضوع آخر حتى وصل بالرجل إلى وجهته وأنزله، ثم نقل عبد العزيز إلى الكرسي المجاور له وحيي الرجل وانطلق، ثم قال لعبد العزيز:

- ماذا دهاك يا أحمق؟

- أنا الأحمق أم هو، سأحكي لك لعلك تفهم.

٢٨

"وقد أمرنا بإخلاء سبيل المتهمين الآتي أسماؤهم بكفالة وقدرها مائة دينار كويتي لكل واحد منهم، وهم:

١- سميح فوزي عطا الله، مصري الجنسية
٢- هشام مرزوق بوعتيبة، ليبي الجنسية
٣- خالد محمد عبد الجبار، مصري الجنسية
٤- عبد العزيز عبد الرحيم الجرف، سوري الجنسية
٥- حسن علي أبو اليسر، مصري الجنسية

ويُصرف المتهمون من ديوان المخفر حال سدادهم الكفالة المذكورة، كما توجه المباحث بسرعة استكمال تحريات الواقعة ومخاطبة المعمل الجنائي لاستكمال ملف القضية".

قبل ٢٠ ساعة

كان حسن في مزاج مرتفع هذا اليوم، مزاج يسمح له بأن يستمع إلى حكاية طويلة قصها عليه عبد العزيز حين سأله عن سبب انفعاله مع

إياد. وأيضًا لأنه لم يعد يفتح صدره لعبد العزيز كثيرًا كما اعتادا منذ جاء هشام الذي كان أقرب له نفسيًا.

بدأ عبد العزيز يحكي له كيف أن سوريا كانت طول عمرها ملجأ لكل العرب وما زالت، وذكره بلجوء الفلسطينيين ثم اللبنانيين ثم العراقيين إلى آخر تلك القصص. أحس حسن برغبة في السخرية وهو يستمع إلى هذا الكلام ويقارنه بما يقال في مصر من أنها تحتضن الجميع دون تفرقة، لكنه لم يعلق حتى لا يغضب صاحبه. لاحظ عبد العزيز شبح ابتسامة ساخرة على وجهه فقال في ضيق:

- يبدو أنك غير مقتنع.

- يا رجل نحن أسوأ شعوب الأرض، لا نكف عن المن على بعضنا البعض بما نفعله أو ما ندعي أننا فعلناه رغم أن أبسط قواعد الإنسانية أن تحمي إنسانًا لجأ اليك.

لم يقتنع عبد العزيز، وأخذ يقص له حكايات عاشها عن سوريين فتحوا بيوتهم للاجئين من لبنان، وأسكنوهم معهم في البيت نفسه واقتسموا معهم الطعام والملبس.

حاول حسن أن يلطف الجو ويغير الموضوع لكن عبد العزيز غير دفة الحديث ليلوم المصريين في شخص حسن، وينفي ما قاله منذ قليل عن أن السوريين يعاملون في مصر جيدًا ويفتحون المشاريع الناجحة. من يتكلم عنهم حسن هؤلاء هم السوريون الميسورون الذين لديهم من

المال ما يجعلهم يستثمرون في أي بلد يحلون فيه، أما الفقراء فليس لهم إلا الله. يعاملهم المصريون أسوأ معاملة ويستغلونهم بأي طريقة كانت.

- المصريون يفعلون أسوأ من ذلك في المصريين، البلد صار لا يطاق والناس صاروا أسوأ كثيرًا من ذي قبل. المصري لا يستغل السوري أو يهينه لأنه غريب أو لاجئ، المصري يفعل ذلك لأنه اعتاد على فعله مع الكل، المصري لاجئ في مصر يا عبود.

سكت عبود هنيهة ثم حكى له في حنق عن أقربائه الذين استطاعوا اللجوء إلى أستراليا، وكيف عاملوهم ووفروا لهم مسكنًا وميزانية شهرية لهم.

- عادي جدًا، ما الجديد؟

- نعم عادي، لكن غير العادي أن الرجل اعترض على موظف المعونات حين راجع معه بنود المعونة ولم يجد بندًا للسجائر له ولزوجته، فاعتذر إليه الموظف وصحح له الخطأ وأضاف إلى معونتهم قيمة السجائر.

كانت السيارة قد وصلت لوجهة عبد العزيز، فحاول حسن إنهاء الكلام بطريقة طيبة مع زميله وهو يؤكد عليه دعوته الليلة للمجيء معهم للشواء والسهر عند شاطئ الخليج.

- من سيجهز اللحوم للشي؟

- علاء.

- ألستما غير متفقين هذه الأيام؟

- علاء يمكن أن يختلف مع أي شخص، لكنه ساعة الأكل ينسى جميع خلافاته.

قبل ١٤ ساعة

كان هشام يجلس مع حسن في محله منتظرًا أن يغلق الأخير ويذهبا معًا إلى الشاطئ، حيث تقام حفلة الشواء التي أصر أن يحضرها هشام.

- حسن، أريد أن أحكي لك عن أشياء كثيرة، لكن لي عندك طلبًا.

- أخيرًا ستنطق، موافق على طلبك أيا كان، هيا احكِ وصدع رأسي.

طلب منه هشام ألا يعلق على أي شيء سيحكيه له، وأن ينسى كل ما يقوله بمجرد الانتهاء منه ولا يفتح هذا الموضوع ثانية. أحس حسن بأن هناك حملًا كبيرًا على صدر صاحبه يريد أن يتخفف منه فطمأنه.

- نحن لسنا مجرد صديقين، انظر لقد مرت سنون طويلة منذ افترقنا، ولكن حين جمعتنا الدنيا ثانية عدنا وكأننا لم نفترق.

ابتسم هشام بامتنان وبدأ يقص عليه تفاصيل مقتل زوجته وانتقامه لها. حكى تفاصيل دقيقة لم يقصها حتى على شيخة، واعترف لحسن بأنه حين قتل الرجل الثاني -والذي كان جريحًا وتوسل إليه ألا يقتله- كان ملبوسًا برغبة جامحة للانتقام.

إذا كان ثمة ندم يعتريه مما فعله في ذلك اليوم فمنبعه الوحيد ذلك الشعور. هشام يؤمن بأن النية في أي عمل مهمة للغاية وعليها يتحدد بنسبة كبيرة شر ذلك العمل من خيره. هو حين ذهب لقتلهما كانت نيته القصاص ولكن حين قتل ذلك الثاني كان يقتل لإشباع رغبته.

كان حسن مذهولًا وهو يستمع إلى تلك التفاصيل من صديقه السمح رقيق الجانب. لم يكن يتخيل ذلك. نوبات الغضب تعتري هشام كثيرًا لكنه غضب حميد يزول سريعًا ويصفو قلبه في لحظات.

حاول أن يقاطعه لكن هشام أوقفه واستمر يحكي عما حدث عندما قص ذلك على شيخة. أخذ يحكي له عن رد فعلها العنيف وابتعادها عنه، وكيف أنه أيضًا لم يحاول أن يكلمها خجلًا منها وحفظًا لكرامته. مر أكثر من شهر وهما كالغريبين كأن أوقاتًا جميلة لم تمض بينهما وكأنهما لم يقتربا إلى أعماق بعضهما. قبل ذلك اليوم كانت جلستهما تفوح برائحة الحب وتمتلئ ببوح لا يحدث إلا بين عاشقين رغم الإصرار الظاهري على مسمى الصداقة. كان يقنع نفسه أن لا مكان لغير زهراء في قلبه وأنه لن تحل أخرى محلها، لكن منذ ابتعدت شيخة عنه وهو لا يستطيع نسيان لقاء واحد جمعهما.

- أتكلم الآن أم لا يزال لديك المزيد؟

أومأ هشام بالإيجاب فقال حسن إنه يشعر بذهول من الكثير من التفاصيل التي قصها هشام عليه لكنه لا يملك إلا أن يعذره. "لا يمكن أن تنتقد إنسانًا وأنت لم توضع في ظروفه نفسها"، جملة قالها هشام وأمَّن

عليها حسن، لكنه زاد من عنده أنه حتى إذا وضعنا في الظروف نفسها لا يمكن أن ننتقد غيرنا لأنه تصرف بشكل يخالف قناعاتنا. الحقيقة أننا لم نؤت القدرة نفسها على التحمل ولا نملك القيم ذاتها أو القدرة نفسها على رؤية الأمور. جيناتنا مختلفة وتنشئتنا أيضًا مختلفة. كل ذلك يؤثر في النهاية على تصرفنا واختياراتنا في الحياة.

- ماذا أفعل معها إذن؟

ضحك حسن وهو يقول له مازحًا إن إجابة هذا السؤال هو ما جعله يقص كل هذه القصة الطويلة ويفشي له سرًا خبأه عنه طيلة عام.

- الحقيقة أنك تصرفت بطريقة خاطئة حين تقيدت بخجلك وحرصك على كرامتك. الفتاة تعيش مرحلة اضطراب لأنها تشعر بأنها أحبت شخصًا غير ذلك الذي ظهر أمامها، ووظيفتك أن تثبت لها أنك الشخص نفسه.

يرى حسن أن على هشام أن يعاود مكالمتها حتى إن صدته مرة بعد المرة، وأن يشرح لها ما في قلبه وأن يعترف لها بحبه، ولا بأس من أن يكذب ويقول إنه ندم على فعلته.

- أنا ما زلت في حالة لا تسمح لي أن أطلب منها أن تحبني. لا تنس أن ظروفي ما زالت صعبة.

- لن تطلب منها أن تحبك فهي تحبك بالفعل، وظروفك تتحسن يومًا عن يوم فدع هذا لوقته. ثم إنه حتى إذا تحسنت ظروفك فارتباطك بها سيحتاج الكثير من الإصرار والمواجهة، فهي كويتية وأنت ليبي.

أنهى كلامه ونظر في هاتفه فوجد الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل، فقام قائلًا:

- هيا ستضيع علينا الليلة، فما زلت سأذهب لإحضار عدة الشواء ثم أمامنا طريق طويل لشاطئنا السري الذي سنشوي فيه.

٢٩

"أبشروا يا جماعة الخير، فقد أصدر المحقق قرارًا بالإفراج عنكم بكفالة مائة دينار لكل واحد. وأعتقد أنه لن يكون من العسير عليكم تدبير مثل هذا المبلغ ليتم الإفراج عنكم بأسرع وقت. أرى البهجة ملأت وجوهكم جميعًا، لكن نصيحتي لكم ألا تعتبروا هذا الإفراج دليلًا على أي شيء، فقضيتكم تلك قد تؤدي إلى ترحيلكم. دعكم من هذا المحامي العقيم الذي وكلتموه وابحثوا لكم عن واحد أفضل إن كنتم تفضلون البقاء في هذا البلد".

قبل ١٢ ساعة

التأم شمل الليلة، وكان الحاضرون هم حسن وعلاء شريكه وزميليه خالد وسميح من مصر وعبد العزيز وحماد ابن عمه من سوريا وهشام من ليبيا. حفلة شواء لشي الهموم قبل اللحوم كما قال حسن، ورد عليه عبد العزيز بأنه ينقصهم يمني وعراقي حتى تجتمع الخيبات كلها. كان لهذا التعليق الساخر أن يبدأ نقاشًا حامي الوطيس حول سبب الخراب، هل من ثاروا أم من قمعوا أم من تآمروا على الثورات.

حسن وهشام وحماد كانوا يلومون على الطغاة الذين فرغوا البلاد من عقولها، وتركوها ترفل في ظلام الجهل الذي أخرج أجيالًا لا تعرف شيئًا ويسهل اللعب بعقولهم باسم الدين أو باسم الوطن، أما عبد العزيز وسميح وخالد ومعهم علاء فيرون أن الثورات كانت وبالًا، وهي أس الخراب وصنيعة الأغراب.

الكل كان منهمكًا في محاولة إعلاء وجهة نظرة باستباق الحديث ورفع الصوت، بالرغم من قيام بعضهم بإيقاد الفحم أو عمل السلطة إلى آخر ذلك، إلا أن هذا لم يشغلهم عن النقاش. علاء لم يشترك بالنقاش إلا لمامًا فقد كان مشغولًا بشدة بوضع قطع الدجاج بترتيب محكم داخل الشواية وترتيب قطع اللحم في أسياخها. داعبه خالد قائلًا:

- من يراك يظنك تجري عملية جراحية، لماذا لا تدافع عن رأيك؟

- رأيي الأهم أن هذا الدجاج البلدي واللحم البتلو الواردين من مصر بالأمس كنز يجب العناية به وشيه بطريقة تبرز طعمه الرائع. أنتم غير مدركين لأهمية الحدث، لحم ودجاج طازج من مصر. فليحترق الثوار والحكام والغرب والشرق فلن يجدي كلامكم شيئًا.

سأله عبد العزيز متهكمًا عن الفارق الكبير بين اللحم والدجاج القادمين من مصر وغيره. استنكر علاء السؤال واعتبره دليلًا على الجهل بكيفية الأكل أساسًا وقال كلمته الشهيرة "أنتم لا تأكلون، أنتم تحشون بطونكم. وهناك فارق كبير بين الاثنين".

- لكن الجميع يحب الطعام الذي يأتي من بلده ولا يوجد أحد غيركم يبالغ هكذا.

- هذا لأننا نفهم في مذاق الأكل.

تدخل حسن في النقاش الذي تبدل اتجاهه بشكل كامل حين تكلم علاء. قال لنفسه إن الحقيقة أن النقاش في الطعام قد يكون أكثر أهمية وفائدة من النقاش حول مستقبل بلدانهم.

- كلامك صحيح يا علاء، لكني حتى الآن لا أستطيع أن أفهم ما دفع والدتك لتحميل خالد حقيبة تزن عشرين كيلو جرامًا من الأكل، ما الفائدة ما دام سينفد وستعود لأكل المتاح هنا.

لو قيل هذا التعليق من أحد غير حسن أو من حسن نفسه قبل ذلك لرد علاء ببساطة، لكن النفوس بها ما بها من الغبرة والكدر. رد عليه علاء بحدة بأنه لا شأن له وأن خالد قام بالواجب المعتاد من حمل أغراض لبلدياته.

- وحدوا الله يا شباب.

- أنا أتكلم معه على طبيعتي لكنه كما ترى سيء الظن.

أغضب رده علاء أكثر فرفع صوته محتجًا، وكادت الأمور تتطور بينهما لولا أن وقف خالد بينهما وأقسم بصعيدية حاسمة إنه سيكسر رقبة من يرفع صوته ثانية. تدخل الباقون تباعًا محاولين أن يهدئوا من حدة التوتر بينهما. حاول حماد أن يتدخل أيضًا لكن عبد العزيز أمسكه من يده وأجلسه كي لا ينخرط في الشجار وينفعل على أحدهم أو ينفعل أحدهم عليه فيأخذ الموضوع أبعادًا أخرى.

- هم هكذا دومًا يعلو صوتهم وينتهون إلى لا شيء.

بالفعل هدأ الجميع وتراضى حسن وعلاء -ظاهريًا على الأقل- وأكملوا طقوس ليلتهم المعتادة. هشام كان مشتركًا في الحوار بحماس في البداية، لكن حين بدأ الحديث عن الطعام انتحى جانبًا وأمسك بهاتفه يقلب فيه.

فكر أن يرسل إلى شيخة يحاول أن يبدأ معها حوارًا، إن لم يكن هناك مستقبل لعلاقة حب فعلى الأقل يظلان صديقين. حين راجع أفعاله في الفترة السابقة اكتشف أن حسن عنده حق، فهو لم يحاول بجدية أن يعيد حبال الود بينهما.

فتح الواتس آب ونظر قليلًا إلى صورتها عليه وإلى الجملة التي عنونت بها حالتها "ارتد ما شئت من أقنعة فالحقيقة خلفها ثابتة لا تتغير". جملة أحس أنه المقصود بها. أهكذا تراه؟ منافقًا يرتدي أقنعة يزيف بها حقيقته. زادت تلك الجملة من تردده لكنه حسمه في النهاية ورأى أن يجرب، فقد تكون تلك الكلمات صادرة من قلب جريح ولا يعول عليها.

"مساؤك خيرات".

أرسل رسالته وانتظر لحظة وظهرت علامة "صح"، ثم مرت ثوان ثقيلة وظهرت العلامة الثانية. ظل ينظر إلى الشاشة مترقبًا أن يتحول لون العلامتين للأزرق معلنا أنها قرأت الرسالة. عشر ثوان، عشرون... دقيقة كاملة ثم مرت بعدها ثوان أخرى قبل أن تزرق.

زاد توتره وهو منتظر، والشاشة تعطيه تنبيها أنها تكتب ثم تقف عدة مرات أوحت له بأنها مترددة. استبق هو ترددها وكتب "أردت فقط أن أطمئن عليك" ردت قائلة إنها بخير وأتبعتها بكلمة شكر ألجمته

وجعلته لا يكتب ردًا ثانيًا وإن استمرت عينه مسمرة على الشاشة. مرت دقائق قبل أن يضع الهاتف في جيبه بيأس.

الآن فقط عذر حسن حين كان يحكي له عن مراسلته لنهلة، وكيف كان يؤلمه تجاهل رسائله أو الرد عليه باقتضاب. الآن أحس بلعنة تلك المواقع التي تتيح مراسلة من نحب وتتيح للمحبوب صنوفًا جديدة من العذاب يذيقها لحبيبه بقصد أو بدون قصد. البعد المتشح بلمسة من القرب والقرب الممتلئ بالاغتراب، هذا هو حال المتحابين الذين يتواصلون بهذه الوسائل، يتلاقون بلا لقاء ويهجرون وهم أصلاً في هجر حقيقي لا يزيله افتراض الوصال. هجر قد يقتل الحب أو يزيد جذوته لا أحد يستطيع أن يحكم.

جلس حسن إلى جواره سائلًا إياه عن سبب اختلائه، فحكى له ما حدث وما كان يفكر فيه. كانت وجهة نظر حسن أنه لا خلاف بين الحب قديمًا وحديثًا، وقد كان مجنون ليلى يلفق أسبابًا ليراها مثل التي تلفقها الآن لتراسلها.

- لكن لا تنكر أن الحب اليوم يبدأ بسهولة أكثر ويقع الناس في حب أشخاص لم تكن الدنيا لتجمعهم لولا تلك المواقع. الناس يعشقون صورًا غير حقيقية وأرواحًا لا يظهر لهم منها إلا القليل.

هز حسن رأسه موافقًا وهو يقول أيضًا إن التخلص من الحب والمضي قدمًا صار أكثر صعوبة من ذي قبل. كيف تنسى فتاة أحببتها وأنت ترى قطعة منها كل يوم في منشور أو تعليق. كيف تنسى وأنت

حين تقابلك أغنية أو صورة تحمل ذكرى لكما تجد نفسك تشاركها على صفحتك رغمًا عنك، ورغمًا عنك تنتظر أن تراها هي وأن تبدي إعجابًا بها. تريد فقط أن تثبت لنفسك أن ما بينكما كان حقيقيًا وإن لم يكن لديك أدنى أمل في استرجاعها.

رن هاتف هشام برسالة من شيخة ففتحها سريعًا.

"كيف حالك أنت"

"لست على ما يرام"

"لماذا"

"حياتي فارغة بشدة"

"؟؟"

"لأن من كانت تملؤها آثرت أن تغادرها"

توقف سيل الرسائل وتعلقت عيناه بالهاتف أكثر منتظرًا ردها، ورائحة الشواء التي بدأت تتصاعد تملأ أنفه.

"ربما رأت أنك من يريد المغادرة"

"مخطئة جدًا، خشيت أن أكون متطفلًا"

"من المفيد أحيانًا أن تتطفل على صديق مقرب"

تهللت أساريره عندما رأى ذلك الرد، وبدا له أنهما سيعودان إلى سابق عهدهما، فطلب منها أن يقابلها في المقهى الذي تحبه، لكنها رفضت وطلبت أن يكونا أصدقاء في العمل ويتبادلان الرسائل لكن دون لقاءات خارجية. رغم أن ذلك ضايقه قليلًا لكن كفته بهجة الحديث معها.

٣٠

نصف الفرحة يكون أحيانًا مقبضًا للقلب أكثر من الحزن، نصف الأمل كثيرًا ما يكون مؤلمًا أكثر من اليأس، ونصف الفراق أسوأ دومًا من الفراق. حال من تلقى خبر الإفراج بكفالة يشبه إلى حد كبير هذه الأحوال، فكونهم سمحوا لك بالحرية مؤقتًا قد يعطيك بصيصًا من الأمل لكنه يحاصرك بوجود الاتهام. في حالة كحالتنا الآن كان الخوف الأساسي هو شبح الترحيل والعودة إلى البلد الأم أو ما تبقى منها، فرب حرية منقوصة أسوأ من السجن.

قبل ١١ ساعة

كانت قطرات من عصارة ودهن تتساقط من اللحوم فوق الفحم، فتصدر صوتًا مصحوبًا بتصاعد لسحب إضافية من الدخان الذي ملأ الجو، وقد انهمك كل واحد منهم في مهمة كلفه بها علاء قائد هذه الأوركسترا.

كانت دهشة هشام كبيرة حين وجد علاء قد أخرج من حقيبته الأرز المتبل وأوراق الكرنب وورق العنب، وأصدر أوامره لسميح

وخالد بأن ينضما إليه في لف المحشي. لم يكن يتخيل أن يقوموا بعمل وجبة معقدة كتلك وتسويتها على الفحم، وهو ما فسر له أخيرًا وجود حاملين للفحم، واحد للشواء والآخر للمحشي.

حدث بعض احتكاك خفيف بين علاء وحسن، لكن تدخل عبد العزيز بينهما ووقف مع حسن يشويان بعيدًا عن علاء وهو يقول:

- أريد أن أحكي لك عن موقف طريف حدث لي.

نظر إليه حسن بشك وهو يكرر كلمة "طريف" بكثير من الارتياب. عبد العزيز منذ عودته من زيارته إلى سوريا منذ عام تقريبًا وهو لا يحكي له إلا عما رآه في سوريا. ما رآه من داعش ومن أمن النظام والحواجز والدمار الذي حل. صار حسن يشعر بالملل من ذلك كله ولا يريد أن يسمع المزيد.

آخر مرة قص عليه حكاية ابن عمه الذي اعتقلته قوات حماية الشعب الكردية، بدعوى أنه هارب من التجنيد وأنه لا بد أن يؤخذ وينضم إلى الجيش النظامي لمقاتلة المعارضة. "هذا حكم بالإعدام تلقاه الشاب دون ذنب"، كانت تلك وجهة نظره فالفتى سيوضع في خطوط المواجهة الأمامية وسيقتل حتمًا.

كان حسن يستمع له بفراغ صبر، فهو لا يريد أن يمنعه من الكلام حتى لا يخسر صداقته فقد كان لعبد العزيز معه الكثير من المواقف الرجولية التي لا تنسى. زيارته لسوريا على الرغم من قصرها بدلت فيه الكثير وقللت من مرحه المعتاد. بعدها أيضًا صار شرهًا للنساء

والعلاقات الرخيصة وكأنه يفرغ همه فيهن وحسن يحاول نصحه بالتقليل من ذلك دون فائدة، حتى اقترح عليه ذات مرة أن يرتبط بصديقة لجانيس بدلًا من الذهاب مع عاهرة مختلفة كل يوم.

كان هشام حاضرًا حين قال حسن تلك النصيحة وقال له "أحسنت يا رجل، تطلب منه استبدال الزنا المجاني بالزنا المدفوع، ألم يخطر ببالك أن تأمره بالمعروف وتبعده عن الزنا كله وخاصة أنه متزوج". ضحك يومها عبد العزيز وقال له إن زيجته لا تزال موقوفة التنفيذ، فبينه وبين عروسه آلاف الأميال، ثم إن حسن آخر شخص ينصح بالعفة.

لكن ما كان عبد العزيز بصدد أن يقصه على حسن غير ما توقعه الأخير، ولم تكن سوريا طرفًا في الموضوع.

- لقد تم ضبطي مع فتاة سريلانكية في الفندق.

- ماذا؟ كيف حدث ذلك، وكيف خرجت منها، ثم سريلانكية يا نتن ألا تستنظف؟

- أنت تدعي الفهم وأنت أحمق يا حسن. السريلانكيات فيهن فتيات جميلات كتلك التي ضبطت معي. كانت لذيذة فوق الوصف وكنت مندمجًا معها حتى فوجئت بطرق على الباب يحذرني من الشرطة.

قص عليه كيف ارتدى ملابسه على عجل لكنهم ضبطوه هو والفتاة، وقبل أن يقتادوهما إلى مخفر الشرطة جاءت مكالمة هاتفية

للشرطي المسؤول وتركهما دون أن يفعل شيئًا، وانصرف بعد أن عنف صاحب الفندق شفهيًا فقط.

- أكيد صاحب الفندق له واسطة قوية.
- لا، ليس صاحب الفندق بل الفتاة.

اتهمه حسن بالكذب لكنه أقسم إنه حقيقي، وإن الفتاة أرسلت رسالة حين تم تحذيرهما من وجود الشرطة. لم تشرح له الفتاة كيف استطاعت تخليصهما ولا من الذي هاتفته، لكن النتيجة النهائية أنه حر الآن بفضل مكالمة أجرتها هي.

- احذر إذن ولا تكررها وإلا تم ترحيلك.
- لا يهم، فأنا أفكر أصلًا في الفرار والذهاب إلى تركيا لأخذ زوجتي والهجرة بها للسويد.

فوجئ حسن بكلامه وهو يسمع كل يوم عن أناس ماتوا وهم يحاولون الهجرة، وعن معاناتهم حتى لو استطاعوا الوصول. ماذا يريد ذلك الأحمق أن يفعل بنفسه وهو يعيش هنا حياة كريمة. يريد أن يكون لاجئًا يستجدي لقمة يأكلها وسقفًا يحميه.

- هذا البلد يا عبود رغم العيوب إلا أنه وفر لنا حياة كريمة.
- أنت تقول ذلك لأن بلدك سليم.

كانت تلك دومًا نقطة الاضطراب الأساسية في أي حوار بينهما. حسن يرى أن مشكلة بلده أعمق بكثير من الظاهر وأنها لا تقل عن

مشكلة بلد مزقته الحرب. الناس صاروا مشوهين من تشوه النظام الذي يحكمهم. لم يقتنع عبد العزيز أبدًا بمنطقه ذلك في أي نقاش دار بينهما وقال له تلك المرة:

- لا تخش شيئًا، أنا لا أحسدك يا صاحبي.
- تحسدني، وهل يحسد القرد على حمرة مؤخرته يا أحمق.

قالها فضحك عبد العزيز وقال إنه لم ير لونها ليحسده عليها. تجاهل حسن مزحته وقص ما قاله صديق من أن البلاد التي دمرتها الحروب ستتعافى وقد تعود أفضل كثيرًا من ذي قبل، كالمريض بمرض حاد شديد يقترب من شفا الموت لكنه في النهاية يعود سليمًا معافى كما كان. مصر على العكس كمريض مزمن ينهش السرطان جسده ويزحف على كل ما هو فعال فيه ويفسده شيئًا فشيئًا حتى يموت تمامًا. هذا المريض لا حل له إلا استئصال ذلك الورم.

سعل من دفعة دخان دخلت رئته فجأة حين قلب الفحم، وحين أخذ نفسه ثانية أردف قائلًا:

- لا يبدو لي أن هناك في مصر من لديه النية أو القدرة على استئصال السرطان الذي سكن كل شبر فيها.

كان سميح مقتربًا منه يريد أن يطمئن على جودة الشواء فسمع جملته الأخيرة فرد بحدة:

- أنت فقدت الانتماء لبلدك يا حسن. صرت تكرهها وتتمنى الخروج منها للأبد، فلا تتكلم عنها بهذه الطريقة. أنتم يا ثورجية تريدون أن تنجحوا في مسعاكم ولو كان الثمن تدمير البلد.

- أنت لا تفهم يا سميح، أنت وأمثالك تعيشون في شعارات فارغة تجاوزها العالم، حاول أن تستوعب الأمر.

- اشرح لي يا أبا العريف.

قلب حسن الشواية التي معه والتي تحتوي على قطع دجاج استوت جيدًا، ثم وضع عدة قطع أخرى وتركها على الفحم ثم قال:

- افترض معي أنك أحببت امرأة لدرجة الاستغراق، وهبْها تعيش حياة مليئة المشاكل وارتضيت أن تكون الفارس النبيل الذي يمسح دموعها دون أن تنتظر منها المقابل، تحاول أن تنال رضاها صباح مساء دون أن تحاول هي أن تنال رضاك ولو بشيء تافه. أتعرف ما النتيجة، سيذوي حبك مهما كان كبيرًا ويتحول مع الوقت إلى لامبالاة.

- وما دخل هذا بمصر؟

- هذا بالضبط هو حالك مع الوطن. فأنت إن فكرت فيه بتلك الطريقة الأفلاطونية الساذجة فاعلم أنه سيأتي عليك يوم تشعر نحوه بلا مبالاة عجيبة. لا بد لكي تظل تصرخ بكلمة يحيا الوطن أن تشعر بأن الوطن يعطيك جزءًا من تلك الحياة. لستُ ضابطًا ولا قاضيًا

ولا رجل أعمال ممن يعطيهم الوطن بالمغرفة، ولست طبيبًا أو مهندسًا أعطاه الوطن شهادة مجانية يتقاضى بها الألوف في بلاد النفط. أنا من السواد الأعظم الذي قرضه الفقر في بلده فلما تركها سعيًا للغنى وجد الفقر يكبل أحلامه أينما ذهب. أنا في الغربة التي كنت أحلم أنها سترسم مستقبلي فوجدتها تمسح ما رسمته منه.

٣١

- أين أنت يا حسن من الأمس وهاتفك مغلق، هل ستهجرني ثانية؟
- أنا في مخفر السالمية.
- ماذا حدث؟ أقلقتني.
- لا شيء، سأراك في المساء، إلى اللقاء الآن.

أغلقت معه وهي تشعر بأن ثمة خطبًا كبيرًا هذه المرة لا يريد الكلام عنه. كلامه مقتضب ومهذب على غير العادة. حين قالت "هل ستهجرني ثانية" توقعت منه تقريعًا، توقعت أن ينعتها بالحمقاء كعادته لكن رده المختصر يدل على أنه مكروب. فكرت أن تطلبه ثانية لكنها أحجمت عن ذلك، فقد علمتها الأيام أن الرجل حين يكون مستاءً من شيء أو يمر بأزمة ما يفضل أن يترك في حاله.

قبل ٩ ساعات

بعد ساعتين ونصف من العمل الذي يتخلله الكثير من النقاش والمشاكسات صارت الوليمة جاهزة. أبخرة المحشي المتصاعدة كانت

تنافس في لذتها رائحة المشاوي، وعلاء مزهو بشكل الوليمة كقائد مظفر.

كان هشام أكثرهم سعادة بهذه الوليمة، وقد أحس لأول مرة منذ زمن طويل بهذا الجو من النشوة الجماعية التي تحدث في موقف كهذا. على النقيض كان حسن تخالط بهجته الكثير من الكآبة في تلك المواقف. حسن يحب المزاح وجلسات الشباب المليئة بالصخب، لكن حين يزيد ذلك عن حد معين ينقلب عنده إلى غيمة تغلف روحه. يشعر بأن هذا الكمال ينقصه الكثير، وأن البهجة مزيفة تغطي طبقات متراكمة من الهموم، وأن كل من حوله يتصنعون المرح كي لا يموتوا كمدًا. يقلقه أكثر ما يقلقه الوقت الذي سيأتي بعد ذلك حين يختلي بنفسه ويشعر بأنه لا يملك شيئًا يسعده.

"دوامة الحياة تطحن الهموم وسط المشاغل فيبدو فتاتها ضئيلًا لا يزعجنا، لكن حين نوقف تلك الدوامة في لحظات المرح يتجمع هذا الفتات ويصير كيانًا ضخمًا يشاغلنا ونحن في عز متعتنا، ويهاجمنا بقسوة حين تنتهي هذه المتعة"؛ حكمة قالها له زبون في عمر والده حين باح له بما كان يضايقه. كان حسن يجد فرصة في البوح عن همومه مع بعض الزبائن الذين يوحي مظهرهم بالطيبة والحكمة. فضفضة لن تضر، ففي الغالب لن يقابل ذلك الزبون ثانية ولن يحزنه أن يفشي ذلك الغريب سره لزوجته ليلًا.

في دقائق صارت الآنية فارغة إلا من بقايا وعظام، وصارت الأنفاس ثقيلة من ضغط المعدات التي اكتنزت، وهنا تصاعد صوت

علاء موجهًا بالمهمات الجديدة وأهمها إعداد الشاي. لاحظ خالد أن حسن يبدو عليه الوجوم فحاول أن يلاطفه قائلًا:

- مالك يا حسن، هل تناقص عدد النساء في دفترك أصابك بالاكتئاب؟

رد سميح:

- أكيد حزين لأنك وصفت ربيعهم بالخراب.

لم يعلق حسن فقد اكتفى من الجدال هذه الليلة. وصل الشاي فبدأ كل منهم في تناول كوبه الذي يفوح منه عبق الفحم ونكهة النعناع. أخذ أول رشفة ثم قال:

- كل ما أطلبه منكم احترام ذكرى الشباب الذين ماتوا سعيًا وراء حلم كان يراودكم جميعًا ولم يحرك أحدكم ساكنًا لتحقيقه. حين تصف ربيعهم بالخراب فهذا قمة الإهانة.

رد عبد العزيز:

- الموت لا يعطي صاحبه كرامة إضافية يا صديقي. هم ماتوا في أثناء سعيهم الخاطئ لغاية حمقاء من فرط نبلها، ولن أحترم ثورة دمرت بلدي لأنهم ماتوا.

تدخل هشام هذه المرة محاولًا أن ينهي ذلك النقاش دون جدوى، ثم قال في النهاية:

- من منكم هنا حمل السلاح ورأى الحرب حقيقة؟

رد عليه خالد:

- عندنا في الصعيد نحمل السلاح منذ طفولتنا.

رد حسن:

- الرجل يتكلم عن حمل السلاح في الحرب ليس لإطلاق نار في عرس خالك.

قبل أن يرد خالد على سخريته أكمل هشام الحديث عن وجهة نظره، وهو يشرح لهم كيف أن كل من يدافع عن فكرة لم يضحِّ من أجلها فمن الأفضل أن يلتزم الصمت. كان يظن أن كلمته تلك ستسكت الباقين لكنه وجد الجدال تجدد ثانية.

أشار عبد العزيز لسميح فقام وذهب إلى سيارته وجاء بلفافة في يده. قام بفك اللفافة وهو في وسط الحلقة التي اجتمعوا فيها، وأخرج زجاجة خمر من الحجم الكبير وهو يقول:

- دعكم من هذا الهراء وتناولوا قليلًا من هذا النبيذ الفاخر.

كان أول رد من عبد العزيز الذي قال له:

- من أين لك بزجاجة غالية الثمن كتلك؟

- أهداها لي أحد زبائني المهمين.

في المقابل تعالت كلمات الاستنكار من آخرين. قال هشام إنه سوف ينصرف إذا تم فتح هذه الزجاجة، وقال علاء إنه سينصرف على أي حال فوجود زجاجة كتلك "ينجس" جلستهم. خالد لم يمانع في

وجودها لكنه لن يشرب، فهو يرى أن الخمر سيئة وأنه لو تسنى لهم إحضار قطعة من الحشيش لكانت الليلة أفضل. حسن قال:

- كل واحد حر يشرب أو لا. أنا عن نفسي لم ولن أشرب خمرًا أو مكيفًا في حياتي.

رد عليه خالد بتهكم قائلًا إنه آخر شخص يلعب دور التقي.

- هذه مسألة مبدأ، فإذا كنت سأعصي الله فلا بد أن أعصيه من أجل شيء أحبه. متعة المعصية تبرد إحساسك بالذنب، أما أن أعصيه لمجرد أن أجاريكم فهذا غباء.

نظر إليه هشام شذرًا وهو يستغفر الله من ذلك الإفك الذي يردده صديقه ويؤكد أنه سينصرف لو تم فتح تلك الزجاجة. بعد دقائق من اللغط، وافق هشام على البقاء ووافق سميح وعبد العزيز على احترام رغبة الآخرين وعدم فتح الزجاجة. مع ذلك كان لعلاء رأي آخر وقال بإصرار:

- أنا عن نفسي لن أبقى، ولن أخاطر بأن أضبط مع شيء كهذا وأرحل إلى بلدي بفضيحة.

قالها وهو يلملم الأشياء التي تخصه. طلب منه حماد أن يأخذه معه فهو متعب ولا يستطيع إكمال السهرة معهم. بعد أن انصرف أخذ حسن يكيل له السباب ويقول لهم إنه سيكون معذورًا إذا قيده ووضعه في جوال وألقى به في الخليج، فرد هشام عليه:

- مهلًا يا نبع المثالية، كل واحد منا فيه ما فيه، فترفق بالرجل.

لم يعجب كلامه حسن، فهو يرى أن علاء به مسحة من الخسة تغطي على صفاته الطيبة وأنه مهما بلغت عيوبه فهي ليست كعيوب علاء. اعترف له على سبيل المثال أنه في بعض الأحيان يشعر بالغيرة منه، وهذا عيب فيه لا يستطيع إنكاره، لكنه على استعداد أن يبذل الغالي ليخدم صديقه وليفديه بحياته لو اقتضى الأمر.

- أنا لم ولن أشك في ولائك وصداقتك يا حسن، ولا أخفي عليك سرًا أنا أيضًا أغار منك أحيانًا، فأنت تستطيع أن تدخل قلوب الناس بسهولة. أنت ماهر في كل شيء تفعله، وفي رأيي أن حظك سيبتسم ذات يوم.

تدخل عبد العزيز قائلًا إن هشام محق في كلامه، في ما عدا موضوع الحظ الذي سيبتسم لحسن فهذا الفتى سيئ الحظ على الدوام. ضحك حسن وقال:

- أحرقك الله بنار هذا الفحم يا بعيد، قم ضع لنا دور شاي آخر.

أوقفه خالد وقال إن صنع الشاي على الفحم اختصاصه هو فقط. وجد الفحم قد هدأت جذوته فقام ببعض المحاولات لإزكائها ووضع الشاي على النار، ثم عاد للجلسة وهو يقول:

- الأحمق علاء يخشى أن يتم ترحيله لو اكتشفوا معنا زجاجة خمر، ولا يعرف أنه لو تم ضبطنا نشوي في شاطئ كهذا فقد يتم ترحيلنا فعلًا حسب قانون البيئة الجديد.

رد سميح:

- المحشي ينسيه كل المخاطر.

- هل أنتم أغبياء، لا أحد يتم ترحيله بسبب الشواء. هذا كلام جرائد.

قالها حسن ثم غير مجرى الحديث متحدثًا عن أسعار العملات التي تضطرب يوميًا، وعن طريقة جديدة لتحويل النقود لمصر مع تحقيق أفضل سعر للعملة. قاطعه سميح قائلًا إن هذا يضر مصر ويعصف بسعر الجنيه المصري.

- وإذا كنت ستربح مئتي جنيه في كل ألف تحولها؟

- أنت متأكد من الرقم؟ لو كان صحيحًا فمعي ثمانمائة دينار أريد تحويلها.

- ومصر يا رأفت، مصر يا جمعة، مصر التي صدعتنا بها.

- أنت لا تفهم، مصر لها حدود في التضحية. سميح وطني حتى نسبة خمسة بالمائة، أما عشرين بالمائة فلا مجال للوطنية.

رد سميح مدافعًا عن نفسه:

- ليس ذلك فقط، ولكن الوضع تغير واللصوص عادوا ثانية، ثم إن ثلاثة آلاف دولار لن تفرق مع مصر شيئًا لكن معي سيختلف الأمر. وكفى حديثًا فضحتمونا أمام الأشقاء العرب.

ضحك عبد العزيز وقال له "كلنا في الهم عرب". استمر حديثهم بعض الوقت ثم قام خالد ليصب الشاي، وبينما هو يفعل لمح أضواء

سيارة شرطة قادمة فأمسك حامل الفحم ورفعه واتجه به ناحية البحر ليلقيه بعيدًا. نسي في تلك اللحظة أن هناك حاملًا آخر بعيدًا عنه كان فحمه منطفئًا، وحين عاد لرفاقه كان هناك شرطيان يتكلمان معهم، واتجه أحدهما ناحية حامل الفحم المهمل وأثبتا عليهم مخالفة الشواء في مكان غير مصرح.

حاولوا جميعًا إقناع الشرطيين بالعدول عن المخالفة، وبدا لوهلة أنهما أوشكا على الاقتناع لولا أن أحدهما أخذ يقلب في أغراضهم ووجد زجاجة الخمر. انفعل عليهم بشدة وقال لهم إنهم ليسوا هنا لمجرد الشواء بل للعربدة أيضًا، ولا يستبعد أن يكون هناك ساقطات قادمات في الطريق.

- يا باشا الزجاجة مغلقة وليس لنا علاقة بهما.
- لست باشا يا... ما اسمك؟
- سميح يا باشا.

نظر إليه الشرطي بغيظ وأشار لزميله بأن يتخذ إجراءاته ويستعد لاصطحابهم لمخفر الشرطة وتحرير محضر بالتهمتين: الشواء في شاطئ عام وحيازة مشروب مسكر.

٣٢

في عام ٢٠١٠ بدأ هشام الدراسة للحصول على دبلوم في علم النفس ليتمكن من المساعدة في تأسيس برنامج طموح لتعليم ذوي الإعاقات الذهنية في بنغازي.

كانت في نظره كل الاضطرابات النفسية التي يقرأ عنها موجودة في من حوله من الأصحاء وفيه هو شخصيًا، وكان يرى أن المريض النفسي قد اختار اضطرابًا معينًا ليكون هو صاحب اليد العليا بينها. بمعنى آخر "جميعنا مرضى نفسيون، لكن هؤلاء اختاروا مرضًا واحدًا هيمن على صورتهم الخارجية، فظهروا مختلفين عنا وبدا لنا وكأنهم مرضى ونحن أصحاء".

ثمة اضطراب واحد أثار اهتمامه أكثر من غيره وهو الاضطراب ثنائي القطب (وهو الذي يتناوب فيه على المريض شعور الاكتئاب والبهجة الزائدة) لأنه يرى أن الحياة نفسها مصابة بهذا الاضطراب. ذلك التناوب بين الفرح الخالص والهم القاتم لا يكون من بني البشر قدر ما

يكون من الدنيا وتقلباتها. وإذا كانت الحياة نفسها اضطرابها ثنائي القطب فلماذا نعتبر الإنسان الذي يكون مثلها مضطربًا.

كان يجتر تلك الذكريات وهو يجلس في غرفة النظارة (الحجز) بمخفر الشرطة ومعه رفاقه الأربعة، محاولًا تحليل الوضع المؤسف الذي وجد نفسه فيه دون ذنب. كانت الدنيا قد بدأت الابتسام له على أكثر من صعيد، فقد استقر ماديًا ومعنويًا وأحس أنه استرد كيانه بعد تعديل وضعه في الجريدة، وأمه وأخته على وشك أن تعودا معه ثانية. آلام قلبه وحسرته على فقد زهراء لم تعد تسيطر على يومه كما كانت من قبل، وحتى علاقته المضطربة بشيخة شهدت تحسنًا وإن كان طفيفًا.

في لحظة كان يشرب كوب شاي باستمتاع في جلسة مبهجة، وبعدها بساعتين صار محتجزًا في المخفر متهمًا ومهددًا بالترحيل إلى مكان ومصير غامضين. دنيا مصابة باضطراب ثنائي القطب من النوع الحاد الذي يتعذر علاجه.

جلس حسن إلى جواره بعد فراغه من نقاش طويل مع الباقين لترتيب ما سيقولونه للمحقق حتى تتسق أقوالهم وتقلل الضرر إلى أقل حد. سأل هشام عن سبب اعتزاله النقاش، فقال إنه غير راغب في الكلام وإنه سيلتزم بما يتفقون عليه، ثم تحدث معه بما كان يدور في خاطره.

- أنا عن نفسي حياتي تتعامل معي تعامل المريض بالوسواس القهري. دومًا تخاف من أن تتركني في حالي أو أن أرى يومًا حلوًا، وتفكر في

صنوف من النكد تذيقني إياها كلما أحسست بأقل قدر من الراحة والبهجة. بل إنها تضعني في المصيبة ثم تنسى ما فعلته فتبعث لي مصيبة أخرى بعدها مباشرة.

ضحك هشام على طريقة حسن في التشبيه وهو يقول له إن شر البلية ما يضحك. ربت هشام على كتف صديقه ثم قال له:

- لا تبتئس يا حسن، ستتغلب على ذلك الحظ صدقني.

ابتسم حسن بسخرية ثم قال:

- أتذكر أيام الجامعة حين اشتركت في خمس مسابقات وحصلت على المركز الثاني فيها جميعًا.

- نعم، كان الجميع يتكلم عن مهارتك.

- أنا على العكس كدت يومها أجن من الغيظ، فقد كان لصاحب المركز الأول في كل مسابقة درع ومبلغ مالي ولا شيء لصاحب المركز الثاني، لدرجة أنني ذهبت لمسؤول النشاط الطلابي وطلبت منه تخصيص درع لصاحب أكبر عدد من المراكز الثانية.

ضحك هشام ثانية وقد تناسى لوهلة أنه في غرفة حجز ينتظر التحقيق معه، ثم سأل حسن عن مغزى ذكر تلك الحادثة الآن فتدخل عبد العزيز قائلًا:

- المغزى أنه منحوس، وربما نحسه هذا هو سبب القبض علينا.

- ربما، وربما كان هناك شخص حقير بلغ عنا.

كان يلمح بشكه في أن علاء ربما بلغ عنهم ليتم ترحيل حسن ويخلص له المحل وأرباحه. نهره خالد بشدة وقال إنه من سوء ظنه، وإن علاء قد يكون بخيلًا أو طماعًا لكنه ليس خائنًا ولا على هذه الدرجة من الخسة.

- حسنًا، لكن هل ستظل تدافع عنه هكذا إذا طلب إخراجي من الشراكة؟
- ساعتها يكون لنا شأن آخر.
- لا ساعتها ستكون أنت من سيقف معي ضده. تعهد لي الآن أمام هؤلاء الرجال وبحق شدتنا هذه.
- وعهد الله لو حاول علاء أن يأخذ حقك فلن يقف له أحد غيري.

كان هشام يتابع حديثهم وهو مستغرب من ظن حسن بزميله، ومندهش من توكيله لخالد ليأخذ حقه إذا حاول علاء ظلمه، فأي سلطة تلك التي لدى خالد وليست لدى حسن. ارتفع صوت الأذان معلنا وجوب صلاة الفجر فقال هشام:

- هيا لنستعد للصلاة، أم هناك من سيتهرب.
- هل تمزح، إن الصلاة الآن أهم من الصلاة أيام الامتحانات.

أمَّهم هشام في صلاة الفجر وأكثر من الدعاء في القنوت لعل الله يفرج كربتهم. خطر له في سجوده الأخير أنه ربما سيكون مخطئا إذا شهد في التحقيق بالطريقة التي اتفقوا عليها، وهي أن ينكروا جميعًا معرفتهم

بزجاجة الخمر المضبوطة، وفكر أن يقول الحقيقة فهو في حل من حماية شخص مخطئ، وكل واحد عليه تحمل عواقب فعله.

ثم إنه لن يتحمل وزر شهادة زور. غرق في لجة أفكاره وهو يتلو التشهد لدرجة أنه قام وكأنه سيصلي ركعة ثالثة، لولا أن نبهه من يصلون خلفه. بعد انتهاء الصلاة سأله حسن عن سبب سهوه فقال:

- لقد قررت أن أقول الصدق في التحقيق.
- أي صدق يا هشام، ستثبت التهمة على سميح هكذا.
- لن أشهد زورًا يا حسن من أجل أي إنسان.

لم يتكلم سميح وانزوى أكثر في الركن الذي كان يجلس فيه منتظرًا فروغهم من الصلاة. تدخل عبد العزيز الذي لم يعجبه رأي هشام وقال بحدة:

- تريد أن تبيع الرجل لتنقذ نفسك هذا من حقك، لكن لا تدخل الدين في الأمر.

- اسمع يا هذا، احسبها كما تحب، شاطره أنت المسؤولية إذا أردت فقد كنت تريد الشرب معه.

تدخل خالد ليهدئ من حدة النقاش بينهم وهو يحاول أن يشرح لهشام أن موقفهم سيكون أكثر قوة إذا أنكروا جميعًا معرفتهم بالزجاجة، ثم إن الزجاجة مستوردة وقد يتورط سميح في قضية تهريب إذا ثبت أنه هو من أحضرها، ولن يتركوه حتى يدل على مصدرها. هنا تكلم سميح بصوت خفيض مضطرب وهو يقول:

- الحقيقة أن الزجاجة ليست مستوردة، بل هي خمر محلية أحضرتها من هندي يصنعها في الحساوي.

تنهد حسن في ارتياح، وسبه عبد العزيز قائلًا إنه يستحق الحبس على هذه الكذبة الساذجة فهو كان سيكتشف أن الخمر مغشوشة من أول رشفة. ابتلع سميح ريقه قائلًا:

- ما العمل إذا؟

رد عليه عبد العزيز:

- لو أصر أخونا الشيخ على رأيه فسأكذبه وأدعي أنني أنا من أحضر الزجاجة. أنا لا أخشى من الترحيل.

أغضبت هشام طريقة عبد العزيز في الحديث عنه وحاول أن يرد عليه، لولا تدخل حسن محاولًا تهدئة الأمور وطالبًا من هشام العدول عن رأيه، إلا أن هشام أبى بشدة. عند هذه النقطة قال خالد إنه إذا أصر هشام على رأيه فسيؤيد رواية عبد العزيز وسيظهر هشام في دور الكاذب الذي يريد اتهام بريء بالزور، وهنا انفعل هشام أكثر وقال لحسن:

- أنت السبب، أدخلتني وسط مجموعة من الأفاقين، أنا لم أكن أريد المجيء لولا إلحاحك.

علت أصوات الباقين اعتراضًا على كلام هشام ولم يوقفهم إلا سميح الذي قام وربت على كتف هشام وقال:

- نحن لسنا أفاقين يا هشام، نحن اعتبرناك واحدًا منا واعتبرنا أنك (كواحد منا) ستساند المجموعة في رأيها.

قالها ثم استدار للبقية معلنًا لهم أنه سيعترف بأنه هو صاحب الزجاجة. حاول عبد العزيز أن يعترض وتمتم خالد بكلام غير مفهوم وحسن صامت لا يريد الكلام حتى لا يغضب أحدًا. أصر سميح على رأيه وأنه لن يسمح لأحد بأن يتحمل ذنبه.

خيم الصمت عليهم وانزوى كل منهم في ركن وحيدًا. بعد بضع دقائق وقف هشام قائلًا:

- أنا آسف يا أخوتي، لم أقصد ما قلت، حقًا لا أعرف ماذا دهاني فأنا في أزمة كبيرة ولكن، من منكم ليس في أزمة. كل واحد منا يعتبر أن ترحيله من الكويت هو أقسى عقاب يمكن أن يوقع عليه.

ابتسم حسن بتأثر ثم حاول أن يخرج الحديث من ذلك المنحنى المأساوي فقال مازحًا متصنعًا البكاء:

- كفى يا هشام، سأبكي من التأثر.

- سأنضم لكم وأنكر معرفتي من أين جاءت الزجاجة، وليسامحني الله.

٣٣

مرت فترات قصيرة جدًا في حياة جانيس شعرت فيها بالسعادة والرضا كما هي هذه الأيام. حسن صار بالنسبة لها حب العمر الذي كانت تتمنى أن تجده. تسرح بخيالها أحيانًا وتفكر في ما لو طلب حسن منها الزواج، ماذا لو صار ملكها أمام الناس، ماذا إذا أنجبت طفلًا في سمرته وحلاوة روحه.

تفيق من أحلامها سريعًا، وتقول لنفسها إن الدنيا لم تعطها طوال ثلاثين عامًا عاشتها سوى أيام معدودة من سعادة مؤقتة، فلماذا تطلب سعادة دائمة. كون علاقتها بحسن دائمة سيقلل من فرص عودتها لابنتيها. في الحقيقة إن افتقادها المستمر لبناتها يشكل خلفية مضطربة لأي سعادة تشعر بها، ففراق الأبناء كلما طالت مدته غرس أوتاد الحنين إليهم أكثر.

تعرف في قرارة نفسها أنها اختارت أحلى المرين، وهو أن تبقى بعيدًا عن ابنتيها لتؤمن لهما مستقبلًا أفضل؛ ستكون ميرلا محاسبة في

أكبر بنك في مانيلا، وستعمل أنجيلا مضيفة طيران أو مذيعة أو ممثلة، فهي أجمل بنت في أوباي بل في بوهول كلها.

ستنفق لتعلمهما في أفضل المدارس ثم في أفضل الجامعات، وحين تعود سيكون لديها المال لتعيش معهما في مدينة كبيرة. لكن، قد لا يعيشان معها إذا نجحت كل منهما في حياتها الخاصة. لا يهم، هذا أفضل من أن تبقيا معهما وتتعلمان تعليمًا متواضعًا وتتزوج كل واحدة منهما مزارعًا أو موظفًا حكوميًا براتب ضئيل كأبيهما.

ـ أما زلت مصرة على أن تقومي بعمل هذه الوجبة السخيفة؟

تصاعد صوت روز من الصالة تناديها بضجر وهي تحاول أن تثنيها عن عزمها بعمل كشري لحسن. كانت قد استقلت هي وروز في شقة صغيرة ويشترك معهما حسن وصديق روز في دفع الإيجار كما كانت روز تخطط.

ـ لا أفهم ما المميز في وضع المكرونة على الأرز على العدس هكذا.

أكملت روز تأنيبها وهي تدخل عليها المطبخ تراقبها وهي تقلب الصلصة التي ستوضع على الكشري. ردت جانيس وهي تهدئ الشعلة قليلًا:

ـ كفاك ثرثرة، هيا ارتدي ملابسك وانصرفي فحسن على وصول.

ـ ألم تعرفي أين كان بالأمس؟

دفعتها جانيس دفعًا نحو غرفتها التي كانت صالة الشقة سابقًا لتجعلها ترتدي ملابس الخروج وتنصرف.

أخبرها حسن على عجالة أنهم كانوا في حفل شواء وضبطتهم الشرطة وقاموا بدفع غرامة وحسب. لم يخبرها عن أن الموضوع على وشك أن يصير قضية قد تؤدي إلى ترحيله من البلاد، لم يرد أن يفزعها على الهاتف وفضل أن يخبرها بنفسه.

بعد أن تم دفع الكفالة وخرجوا من مخفر الشرطة توجه إلى شقته لينال قسطًا من النوم بعد ليلة طويلة لم ينم فيها أحدهم. بدأت رحلته العسيرة إلى كنف النوم في هذا النهار، وهو يمقت دومًا النوم الذي يبدأ والشمس ساطعة. أخذت الأفكار تتلاطم في رأسه منذرة بأن النوم لن يكون سهلًا، ولكنها بدأت تذوب في بعضها شيئًا فشيئًا وتتحول إلى أحلام مشوشة.

استيقظ بعد ساعات قلائل، اغتسل وارتدى ملابسه على عجل متوجهًا لشقة جانيس. كان استئجار تلك الشقة فكرة جيدة أعطتهما أمانًا وحرية أكبر في لقائهما، وإحساسًا آخر يشبه إحساس المتزوجين. لا يعرف إن كان هناك شيء أصلًا بهذا الاسم لكنه بدأ يشعر كأن جانيس امرأته الوحيدة.

وقفت سيارته في إحدى الإشارات وخلفه سيارة رولز رويس تحاول أن تمر منه لتدخل يسارًا. تطلع في المرآة متأملًا مقدمتها التي يراها قبيحة أشبه بفم سيد قشطة، وهو يتقدم بسيارته للأمام قليلًا. على

يساره كانت فتاة في سيارة بنتلي تكتب رسالة على هاتفها. ملايين الجنيهات تقف على جانبيه، سأل نفسه هل لو قرر كلا الشخصين المحيطين بي الاكتفاء بسيارة عادية وإعطائي الباقي، ألن يكفيني ذلك لأعود إلى مصر وأترك الغربة وأعطي جانيس مبلغًا يعيدها للفلبين. ألن يكون ممكنًا أن أتزوج نهلة دون تعقيدات.

نهلة ثانية، ألم يغلق هذه الصفحة ويغرق قلبه تمامًا في علاقته بجانيس؟ هذا صحيح، ولكن الواحد منا حين يحلم بالثروة يميل إلى استخدامها بشكل أكثر إبهارًا يرضي خياله ويجعل الحلم أكثر إمتاعًا بأسهل الطرق. زواجه بجانيس سيجعل الحلم فيه تعقيدات علاقتهما التي لن تختفي بوجود المال.

يدخل بأفكاره في منحنيات مختلفة حتى يتجنب السؤال الملح في الوقت الحالي، وهو ماذا لو تم ترحيله إلى مصر. يهرب ثانية من التفكير فقد وصل إلى الشقة التي اختاروها بعناية في بناية تعج بشقق مشتركة تسكن في الواحدة منها أكثر من عائلة من جنسيات مختلفة، ما يسهل عليه الدخول والخروج دون إثارة شبهة.

دخل الشقة ووجدها جالسة على طاولة طعام صغيرة وهي في كامل بهائها، وقد زينت المائدة بطريقة جعلت طبق الكشري الذي أعدته يبدو كوليمة فاخرة. قامت من الطاولة واستقبلته بقبلة سريعة، وأخبرته أنها مستعدة من الآن لطلب غداء خارجي في حالة إذا لم يعجبه الكشري.

جلس على الطاولة وهو يقول ساخرًا:

- حين تقومين بعمل أكلة مصرية تختارين الكشري.

كان يريد أن يكمل ويقول لها "أنت فقرية" لكن لم تسعفه الترجمة. ضحكت على تعليقه وبررت ذلك بخوفها الذي جعلها تختار أكلة سهلة. تأملها كثيرًا بابتسامة تشي بالامتنان للدنيا التي منحته امرأة تحبه هكذا. امرأة تتجاوز عما فعله في حقها وتحاول أن تعطي الكثير دون أن تنتظر المقابل. امرأة كتلك تستحق العناء من أجلها، تستحق أن يحارب التقاليد العتيقة ليحتفظ بها.

انتهى من تناول الكشري، الذي كان ولدهشته لذيذًا وكانت "دقته" مميزة لم يذقها إلا في مصر. وجدها قد جهزت له الشاي مع نعناع نفاذ الرائحة، وخطر بباله أنها فعلت ذلك لتذهب رائحة الكشري من أفواههما. وضعت رأسها على صدره وهو جالس على الأريكة وفي فمها علكة برائحة النعناع أيضًا وقالت:

- بالأمس كدت أموت من القلق عليك.

- القلق علي أم القلق مني؟

- أقسم إني خفت كثيرًا عليك.

- لا تقلقي، أنا بخير.

قالها وهو يربت على ظهرها ويقبل شعرها الكثيف، قبل أن تقوم وتطلب منه أن يكمل شايه ثم يلحقها في غرفتها، لكن عليه ألا يأتي قبل

أن تناديه. مرت عشر دقائق أو أكثر وهو منتظر بابتسامة عريضة، متوقعًا أنها تجهز نفسها له وترتدي زيًا ساخنًا. نادته بالعربية من الداخل قائلة:

- تعال يا حسن.

قالتها وهي تضغط على الحاء محاولة إخراجها سليمة تمامًا. دخل الغرفة فوجدها مرتدية جلبابًا مخططًا بالطول ومفتوحًا من أسفل حتى منتصف الفخذ، وصدرها مفتوح يحاول إبراز نهديها الصغيرين. أحس بالسعادة لما فعلته واحتضنها بقوة قائلًا:

- من أين جاءتك تلك الفكرة، وكيف اخترت هذا الزي؟
- ساعدتني بائعة مصرية. كنت أريد أن يكون اليوم مصريًا خالصًا.
- أنا أعشقك وأنت فلبينية هكذا.

ابتسمت في زهو وهي تقول:

- أعرف، لكني أردت أن أطهو لك مصريًا وأرتدي مصريًا مع روح فلبينية.

قالتها وانفلتت من بين ذراعيه، وقدمت له طبقًا من قطع المانجو المقطعة على شكل مكعبات، فتناولها وهو يقول في خبث:

- في موقف كهذا ينبغي أن أتذوق المانجو بطريقة أخرى.
- أنت مجنون.

قالتها وهي تقترب منه وتنغمس فيه بعينين مفتوحتين ما لبثت أن أغمضتهما. بدأت تنزع عنه قشوره وتتناول لبه في نهم، وهو مستسلم لها أول الأمر ثم استلم هو قياد رحلتهما وانطلق بها إلى آفاقهما المعهودة، بعد أن نظر في عينيها وسألها إن كانت جاهزة للانطلاق وأومأت له بالإيجاب. في دقائق طويلة جدًا استقى كل منهما رحيق الآخر حتى آخر قطرة متاحة لتلك اللحظة.

بعد أن فرغا كان لا يزال محتضنًا إياها كعادته، لكنه كان ممسكًا بها بقوة هذه المرة. أطال ضمَّته لها وهي لا تسأل لماذا فقد ظنت أنه يريد أن يرضيها أكثر، فلا شيء يسعد المرأة في تلك اللحظة مثلما تسعدها ضمة كتلك تذكرها بأن الرجل يحبها وسيبقى لها رغم إفراغ شهوته.

أحست بقطرات دافئة تسيل على كتفها تزايدت شيئًا فشيئًا وهي تسأل نفسها هل يبكي. جاءتها إجابة سؤالها في صوت نشيج مكتوم يتصاعد منه، فأبعدته عنها برفق لتنظر إليه فوجدته يبكي بقوة. آلمها قلبها عليه وهي تتمنى أن تعرف ماذا دهاه، لكنها لم تسأله عن السبب واكتفت بأن ضمته ثانية حتى هدأ.

- ماذا حدث؟

سألته بهدوء بعد أن توقف بكاؤه فقال لها:

- اتضح لي الآن أني أخشى أن أفقدك أكثر من أي وقت مضى.

٣٤

حاول النوم كثيرًا لكن لفرط تعبه لم يغمض له جفن. صفى ذهنه وصرف كل الأفكار السيئة والخطط التي يفكر كيف يتعامل بها مع وضعه لحالي. طرد من رأسه صورة شيخة وذكرى زهراء وملامح أمه وأخته لكنه لم ينم. عقله منهك ورأسه يؤلمه لدرجة أن دفق الدم في صيوان أذنه كان يزعجه، وحفيف الهواء وهو خارج من أنفه نصف المفتوح كان يسبب له توترًا شديدًا.

سمع أذان العصر فقام وصلى ثم عاد محاولًا النوم حتى أذن للمغرب دون أن ينام. صلى ثم طرق الباب على غرفة حسن فلم يجده فيها وتذكر أن حسن سيذهب إلى جانيس الليلة، فتمتم بالدعاء له بالهداية، فهما في شدة وأبسط شيء يفعلانه هو الاقتراب من رضا الله لا من سخطه.

تناول بعض المخبوزات الجافة التي يستخدمها كمصدر رخيص للإفطار، ثم أمسك هاتفه طالبًا عبد العزيز. كان يريد الحديث مع أي أحد ومعه خصيصًا لأنه يحس أن مصابه أكبر منه. هذا الرجل معدنه

طيب، وانفعاله عليه من أجل سميح الذي لا هو من بلده ولا من دينه ومحاولته حمايته لمجرد حق الصحبة موقف يستحق الاحترام.

خطر له أن الحديث مع عبد العزيز عن خطته للهجرة قد يبعده قليلًا عن جوه الشخصي. قد ينجح في إقناع عبد العزيز بالعدول عن تلك الخطة الحمقاء التي قد تنتهي به غريقًا على شطوط مجهولة. من يدري ربما يحدث العكس ويقنعه عبد العزيز بالهجرة معه فالموضوع يستحق المخاطرة، فبلاد العرب كما يقول "إما مدافن مقفرة وإما أضرحة مبهرجة، وكلها تستوي في النهاية لأن ساكنيها موتى".

- يبدو أنك لم تنم مثلي.

كان سميح هو المتكلم وهو يسكن معهم في الشقة ذاتها. لم يرد هشام فقد كان مغتاظًا منه بشدة ويشعر بأنه سبب تلك الورطة. قال له سميح وكأنه يقرأ أفكاره:

- أعرف أنك غاضب مني فأنا السبب. لكن أعدك أن الأمور ستمر على خير.

- أنت على حق، أنا لم أنم وغاضب منك، وهذا لا يجعلني في مزاج مناسب للحديث معك.

- هل لو كنت مسلمًا كان الأمر سيختلف؟

لم يعجب هشام سؤاله وهم بالرد عليه، لكنه تمالك أعصابه وسأله في هدوء:

- وما الذي سيختلف لو كنت مسلمًا؟

- أشعر أنك متشدد، تعتبر غير المسلمين بشرًا أقل.

لم يكن هشام يريد أن ينزلق في نقاش من هذا النوع يحاول فيه إثبات أنه إنسان منفتح، ولم تكن لديه سعة الصدر اللازمة لإثبات سماحة الإسلام فقال:

- فعلًا أنا متشدد، ولذلك لو كنت مسلمًا كنت سأضربك بالنعال أربعين ضربة تعزيرًا، لكن لأنك مسيحي سكتُّ ولم أتكلم.

لم يفهم سميح الكثير مما قاله لكنه فهم أن الحديث بينهما قد انسد فقام تاركًا إياه. أمسك هشام بهاتفه محاولًا طلب عبد العزيز ثانية. هذه المرة رد عليه:

- أنا؟ تريد أن تقابلني أنا، أنت هشام حقا؟

- نعم، أريد أن أتحدث معك وحدنا قليلًا.

- هذا يسعدني بالطبع. أنا أحترمك يا هشام وأعتز بك رغم سوء التفاهم الذي حدث بيننا.

- حسنا سأنتظرك.

- لا، لنتقابل في التاسعة بعد أن أنهي عملي.

وافق هشام على مقترحه، ثم ترك الهاتف على الطاولة ودخل ليأخذ حمامًا دافئًا في حوض الاستحمام، والذي يعد وجوده استثنائيًا في شقة كتلك. فتح الصنبور وجلس في الحوض والماء يتدفق عليه ويملأ

الحوض بالتدريج. بعد أن غمرته المياه أغلق الصنبور وفرد ساقيه في استرخاء. غلبته غفوة لم يفق منها إلا حين انزلق وغمرت المياه وجهه.

خرج من الحمام ووجد هاتفه يومض منبئًا برسالة. فتحه ووجد أولاها من شيخة تسأل عنه وعن سبب عدم مجيئه للعمل، ثم تلتها ثلاث رسائل أخرى تطلب الاطمئنان عليه وتطلب منه أن يهاتفها. طلبها بسرعة لكنها لم تجبه، فأرسل يطمئنها ويخبرها أنه كان نائمًا.

٣٥

قال حسن لجانيس إنه يخشى أن يفقدها، قالها من بين دموعه وهو بين ذراعيها، قالها وهو في أضعف أحواله والصدق يتقاطر من حروفه رغم اختلاف اللغة. حين فعل ذلك فتح في قلبها بابًا للفرحة أضاء كل جنباته.

كان له أنْ فُتحت مع هذا الباب أبواب أخرى دخلت منها أسئلة عن سبب خوفه من فقدها. هل هناك أي احتمال أن يظل لها حقًا، وهل صدقه الآن مرحلة عارضة، هل وصل لدرجة من الحب تمنعه أن يخونها يومًا ما. هل خانها منذ عرفها؟

- لن تفقدني يا حبيبي.

قالتها دون أن تسأله عن السبب الذي جعله يقول ذلك رغم فضولها الشديد. غادرت ذراعيه وصبت لهما كوبين من عصير التفاح، ثم سألته محاولة أن يبدو سؤالها بعيدًا عن الإلحاح:

- لماذا تخشى أن تفقدني؟

- لأنني أحبك.

قالت لنفسها عيبه أنه يجيد دومًا التهرب والتلاعب بالألفاظ، هو يعرف جيدًا معنى سؤالها. أعادت عليه السؤال ثانية مبينة قصدها منه فقال:

- أقصد أن حبي لك صار من القوة لدرجة أنني أخاف فقده، دومًا تظنين أني أتلاعب في كلامي.

- أقسم إنني...

قاطعها وهو يطبع قبلة على شفتيها منعتها من إكمال جملتها، ثم قال:

- أنت معذورة، لقد كنت سيئًا معك أول الأمر، لكنك أثبتِّ أنك حب حياتي.

زادت ضربات قلبها مع هذه الجملة، وأخذت نفسًا عميقًا ثم أمسكت وجهه بكلتا يديها وضغطت عليه بقوة وكأنها تريد أن تمتلكه للأبد. وضع يديه على يديها ثم قال:

- عرفت قبلك نساءً أكثر من أن أحصيهن، ومررت بأكثر من قصة حب. كل امرأة أحبتني كانت ترى فيَّ شيئًا ولا ترى أشياءً، وكان ذلك يزعجني ويجعلني أرى ذاك الحب منقوصًا. أقول لك شيئًا لم أخبره لأحد من قبل؟

أنزلت يديها بهدوء عن وجهه وهي تومئ له بالإيجاب، فأكمل:

- عندي قدرة أن أبهر أي امرأة أمامي، أريها جوانب مني تجعل رأسها يدور، أقول كلامًا يجعلها تستسلم لي، تعشقني وتصير ملك يدي. لكن حين أخلو لنفسي أراها قد عشقت صورة ظاهرية ولم تعشقني على حقيقتي. لم أعرف لماذا لم أفعل هكذا معك. كنت أتعامل على طبيعتي، كنت أظهر لك بُخلي قبل كرمي واستهتاري قبل جديتي وإهمالي قبل اهتمامي، ومع ذلك أحببتني.

- لأنني حمقاء.

- بل لأنك أحببت روحي الحقيقية، أحببتني مجردًا دون إضافات.

قالها ودارت في رأسه أسئلة عن الغد، وهل يصارحها بأزمته الجديدة الآن أم ينتظر.

- فيم تفكر؟

لم يجبها، وضمها إليه ثانية وهو ينزع عن نفسه تلك الأفكار ويمسد ظهرها بكفيه. قالت وهي تدفن رأسها أكثر في صدره:

- أنا لا أعرف لماذا أحببتك، وجدت نفسي أنجذب إليك كل يوم عن سابقه دون سبب. الكثيرون حاولوا التودد لي قبلك، ومنهم مصريون، لكنك من أول حوار دار بيننا وأنا أراني أتعلق بك. كنت دومًا أشعر بأنك النسخة المذكرة مني رغم الاختلافات الكثيرة، شعرت من البداية بأن روحينا متماثلتان لأقصى درجة.

ضمها أكثر دون أن يعقب، ولم تمض دقائق حتى راح في النوم. حاولت أن تستسلم للنوم هي الأخرى، وبعد غفوة قصيرة سمعت باب

الشقة يفتح منبئًا بعودة روز. قامت من جواره وارتدت ثيابها، وفتح هو عينيه في تكاسل وأغمضهما ثانية. سمع صوتها وهي تتحدث هي وروز بالتاجالو التي لا يفهم منها غير كلمات قليلة.

حدثته نفسه وهو يستمع إلى صوتها المبتهج أن يصارحها بحقيقة ما حدث له، وبأنه على ذمة قضية قد يحكم فيها بترحيله من الكويت. عليه أن يصارحها الآن بدلاً من أن يفاجئها ذات صباح بقرار رحيله.

دخلت عليه وهي ما زالت تضحك من كلام روز معها، لكن الضحكة تلاشت حين رأت تعابير وجهه. سألته في وجل عما ألم به وقد تركته وهو على ما يرام. قص عليها ما حدث الليلة السابقة وقرار المحقق بالإفراج عنهم بكفالة، وما قيل لهم من أن القضية قد تؤدي إلى ترحيلهم. ملأتها مشاعر متباينة بين الحزن من أجله والحزن على حظها والغضب منه ومن زميله الغبي صاحب زجاجة الخمر.

- لماذا تتحمل خطأ زميلك، هشام هو الوحيد الذي كان على صواب.

- لو أصررنا جميعًا على الإنكار فقد تسقط تهمة حيازة المسكر، لكن على أي حال هناك من يقول إنهم الآن يتشددون كثيرًا وقد يتم ترحيلنا لمجرد أننا قمنا بالشواء في هذا الشاطئ.

يتم ترحيله لأنه قام بالشواء. ما هذا الجنون؟ حياة إنسان ومشروعه للمستقبل وكل خططه تتهاوى بتلك البساطة لأنه أشعل بعض الفحم عند الشاطئ. هل هو شاطئ مقدس مثلًا لا يجوز أن يلوثه الناس بفحمهم وطعامهم. الحب الذي أحست أنها وجدته أخيرًا سيتم إنهاؤه لأن حبيبها

تجرأ وانتهك حرمة الرمال المقدسة. هذا كلام غير مقنع ولا بد أنه يبالغ كي يبرر أنه وقف إلى جوار زميله الذي أحضر الخمر.

- ألا يمكن أن يكون الحكم غرامة حتى لو كبيرة، لا يهم، سأساعدك.

ابتسم بحنو وهو يرى الدموع تترقرق في عينيها:

- نصحنا البعض بأحد المحامين الماهرين؛ سيحاول إبعادنا عن الترحيل لكن البديل قد يكون حبسًا لبضعة أشهر.
- لا مشكلة، هذا أفضل من أن ترحل. بضعة أشهر في السجن وتبقى هنا أفضل من أن تعود إلى مصر و...

ربت على كتفيها مهدئًا، وهو يعلم أنها تخشى أن تكون بهذا تطلب منه أن يتحمل السجن كي لا يفارقها. ما لا تعرفه هي أن خيار عودته لمصر الآن أسوأ كثيرًا من أن يقضي بضعة أشهر في السجن. مصر بالنسبة له الآن سجن أكبر لا يريد العودة إليه في الوقت الحالي، سجن من الفقر والعجز وقلة الحيلة.

- نعم يا حبيبتي، أفضل من أن أعود إلى مصر وأفقدك بعد أن عثرت عليك.

أمسكت خديه بيديها وضغطت عليهما ثانية فرفعهما وهو يضحك قائلًا:

- هذه أغبى الطرق في التعبير عن الحب، خدي ظهرت فيه حبوب من ضغطك له هكذا، أغلقي هذا الباب وأخرجي لي منشفة من خزانة ملابسك.

أغلقت الباب بالمفتاح وسمعت صوت روز تكلمها بالتاجالو بما معناه أنها تقول يكفي ما فعلتماه وأنا في الخارج، فردت عليها وهي تشتمها مازحة. تركها حسن تفتح خزانة الملابس لتحضر له منشفة، ووقف خلفها محاصرًا إياها بذراعيه. استسلمت له بنعومة وكأنها كانت تتوقع منه ذلك أو تتمناه، وكأن مزاح روز أجج رغبتها فيه ثانية أو رغبتها في أن تحس أنها تستمتع في حبها أكثر من صديقتها.

هذه المرة ملأ حسن كفيه حبًا وشفتيه مشاعرَ وعنفوانه حنانًا وغلف ضماته بالكثير من غلالات العشق. أذاقها هذه المرة جسدًا يقطر ولهًا بين حبات العرق، توقف أكثر من مرة ليقول لها "أحبك" بأنفاس متلاحقة وكأنه يريد أن يقسم لها قسمًا جديدًا لم يقسم به رجل قبله. دمعت عيناها بعد أن انتهى وهي ترد على قسمه بقسم إنها لن تتركه أبدًا، ثم مسحت دمعتها وابتسمت قائلة:

- بعد أسبوع من الآن سأفاجئك بشيء لم تتوقعه.

- أثرت فضولي.

- شيء من مصر ليس طعامًا ولا زيًا، خمن من الآن ليومها.

٣٦

كانت شيخة برفقة سلوى في زيارة لعيادة تجميلية. لم تكن تهوى الذهاب لهذه العيادات وتعتبر أنها مجرد إهدار لطاقتها في تحمل ألم لا يطاق وإهدار لأموالها في ما لا يفيد. أقنعتها سلوى هذه المرة بأن تأتي معها وتجري تجديدًا لبشرتها باستخدام طريقة ما تتضمن حقن خلايا من دمها في وجهها.

سلوى قالت لها محاولة إقناعها "لا شيء يخرج المرأة من المزاج الكئيب مثل تجميل وجهها"، وكان رد شيخة أن هذا مجرد هذيان يبررن به ما يتحملنه في سبيل تلك الأشياء.

- سآتي معك لمرافقتك فقط ولن أجري شيئًا.
- طبيبي لديه قدرة خارقة على الإقناع.

وهي منتظرة مع سلوى لدورها عند الطبيب فكرت أن تراسل هشام لتطمئن عليه، فهو لم يأت اليوم. سألت سلوى عن رأيها فابتسمت بسخرية قائلة:

- لا بد أن تطمئني على أي موظف تحت إمرتك يتغيب عن العمل.
- يا لسخافتك.

ضحكت سلوى بصوت مكتوم وقالت لها إنها تتهرب من حبه، وإنها إذا دخلت ثانية في فخ الصداقة فستحبه أكثر من قبل.

- هذا إذا كنت توقفت عن حبه من الأساس.

حاولت أن تنفي كلام صديقتها وأن تؤكد أنها عدلت عن فكرة حبه لاختلاف أفكارهما. لم تكن أخبرتها بسبب ابتعادها عن هشام وإن قالت فقط إنها اكتشفت أنهما لا يصلحان شريكي حياة.

- ارتباطي بهشام سيحتاج إلى صراعات؛ سأتحدى من أجله ظروفًا وتقاليد، وقد أخسر أناسًا لن يستوعبوا فكرة زواجي بلبيبي، ولكيْ أفعل ذلك لا بد أن يكون ما بيننا حبًا صافيًا خاليًا من أي شائبة. إذا أردت أن أتحدى العالم من أجل رجل فلا بد أن يكون حبنا على قدر التحدي، أن يكون حبًا يشعل القلب ويرضي العقل في آن واحد.

نادت موظفة الاستقبال اسم سلوى فقامت ومعها شيخة بعد أن أرسلت عدة رسائل إلى هشام ليطمئنها عليه. رحب الطبيب بهما واطمأن على سلوى وعلى نتائج ما أجراه سابقًا واتفق معها على ما سيجريه الآن، وطلبت أن يفعل المثل لشيخة التي قالت:

- كلا، أنا أخاف من الألم بشدة ولا أريد أي حقن.

رد الطبيب قائلاً:

- سنتجنب الحقن، سنغذي بشرتك بخلايا من دمك ونجعلها تمر للبشرة باستخدام عجلة صغيرة تدور على البشرة. سلوى جربتها وتعرف أنها غير مؤلمة وستكررها الآن.

- حسنًا ولكن ابدأ بها أولًا.

حين جاء دورها أخذتها الممرضة لاستخراج عينة من دمها لتصفيتها لاستخدام الناتج في تغذية بشرتها. تنظر إلى الإبرة وهي تثقب جلدها فتخرج منها آهة خفيفة مفعمة بالضيق. تتأمل الدماء المتدفقة من وريدها وهي تسأل نفسها هل هناك جزء من الروح يسكن تلك الدماء ويغادر معها الجسد، أم أنها تغادر الجسد وتغدو جمادًا بعد ذلك. غالبتها تلك الفكرة سابقًا حين كانت ترافق عمتها في لندن وهي تجري زراعة للكلى. هل هذه الكلية الجديدة مسكونة بروح صاحبها الأصلي، أم أنها تغدو جمادًا وهي خارج جسده ثم تلتبس بجزء من روح المتلقي حين تستقر بين أحشائه الأخرى.

كان انتزاع الممرضة للإبرة مؤلمًا أكثر من غرسها ما جعلها تجفل وتخرج من لجة أفكارها. نظرت في هاتفها فلم تجد هشام قد رد على رسائلها بعد، فدخلت على حسابها على الإنستاجرام تتابع ما استجد.

قامت لتقف إلى جوار الطبيب لتراقب ما سيفعله. نظرت بتوجس إلى الأداة لتي يمسكها، عجلة صغيرة مغطاة بمئات الإبر. قالت في نفسها لا بد أن هذه كانت إحدى أدوات التعذيب المستخدمة في العصور الوسطى.

بعد ثوان من بدء الطبيب في تحريك "أداة التعذيب" على وجه صديقتها اتضح لها أن الكريم المخدر الذي وضعته قبلها أكذوبة كبرى. بدأت سلوى تئن بصوت مكتوم، والطبيب يمرر العجلة ببطء والدماء تنز مكان الإبر، ثم ندت من فم صديقتها آهة عالية حين ضغط بالعجلة بقوة أكثر. رفع الطبيب يده وقال بهدوء:

- إذا كانت تؤلمك فلن أضغط وسأمررها بخفة، لكن النتيجة لن تكون مثالية.

لوحت سلوى بكفها وهي تقول:

- لا تعبأ بصراخي يا دكتور وافعل الأفضل.

"يا مجنونة" قالتها شيخة في سرها وهي مندهشة من صديقتها، وابتعدت عنها وقد زاد ترددها في إجراء هذه الجلسة. أمسكت هاتفها فرأت مكالمة من هشام ورسالة فأرسلت إليه:

- لم تقل لماذا لم تأت اليوم.
- حدثت مشكلة كبيرة.
- ماذا حدث؟
- هل يمكن أن نتقابل الآن، فأنا أحتاج بشدة إلى مشورتك.

وافقت على الفور، فقد قالت لنفسها إنها فرصة للهروب من جلسة التعذيب التي هي بصددها. قالت لسلوى إنها لن تأخذ الجلسة واستأذنت الطبيب لتنصرف مسرعة وسط استنكار الاثنين.

وصل هشام أولًا وهو يفكر في ما سيقوله لشيخة عن سبب لقائهما. الظاهر أنه يريد أن يقص عليها ما حدث طلبًا لمشورتها وأنسًا بمشاركتها محنته. والباطن الذي يأباه كبرياؤه هو احتمال أن تعرض عليه مساعدة بواسطة من شخص هام يتدخل لتخليصه من تلك الورطة.

رآها قادمة من بعيد، عينها تتفحص المكان حتى وقعت عليه فابتسمت وأقبلت إليه مسرعة. عاجلته بالسؤال عما حدث له فطلب منها أن تلتقط أنفاسها أولاً وتطلب شيئًا تشربه ثم يتحدثان.

- افتقدت جلستنا.

قالها مترددًا بابتسامة خفيفة فابتسمت قائلة:

- وأنا أيضًا، قل لي ماذا حدث.

قص عليها أحداث الليلة الفائتة ثم خروجه بكفالة. قاطعته مرات قليلة لتستفسر عن تفاصيل أهملها، وفي النهاية كانت مستاءة وقالت له:

- أنت مخطئ جدًا يا هشام؛ كان ينبغي أن تصر على موقفك.

- كانوا سيكذبونني، وفي الحقيقة عندما وجدت أحدهم مستعدًا لتلقي التهمة عن زميله شعرت بالخجل من نفسي، فالرجل لا يبيع رفاقه بتلك السهولة.

ردت عليه بأن كلامه قد يكون صحيحًا إذا كان موافقًا على ما فعلوه، لكنه كان رافضًا، وليس من العدل أن يتحمل وزر عمل كان يرفضه. موضوع الشواء جنحة بسيطة ويسهل جدًا أن يتجاوز القاضي

عنها أو لا يتم إحالتها أصلاً للمحكمة، أما حيازة مسكر وتهمة جماعية فتلك قصة أخرى.

- المشكلة الآن أنني كنت أخطط لإحضار أمي وأختي بعد أسبوعين.

أطرقت برأسها مفكرة ثم قالت له:

- لا مشكلة ما دامت أوراق استقدامهما سارية. هل أختك تعمل؟
- كانت تعمل في ليبيا مهندسة كمبيوتر.
- حسنًا، هناك حل عملي لا بد أن نفكر فيه.

اقترحت عليه أن يأتي بأمه وأخته وكأن شيئًا لم يحدث، وسترتب هي مقابلات عمل لأخته حتى تستطيع أن تعمل بالكويت وتستقر فيها هي وأمه، سواء كان موجودًا أم لا.

كانت فكرتها عملية جدًا ومريحة، لكنها بدت وهي تقترحها مقبضة لقلبه. كانت تتكلم وكأن اختفاءه من حياتها أمر عادي. كان حديثها متعاطفًا وليس جامدًا، ولكنه ذلك النوع من التعاطف البعيد كل البعد عن تعاطف امرأة مع رجل تحبه.

قبل أن يقابلها كانت أفكاره قد وصلت إلى مدى بعيد، لدرجة أنه قرر أن يعود إلى ليبيا بعد أن يطمئن أنه لم تظهر شبهة تربطه بقتل الرجلين اللذين قتلهما. كان في أول فترة له في الكويت يتحسس الأخبار من بعيد، وتكلم مرة مع صديقه الذي دله على أسماء القتلة يستعلم منه عن أحوال بنغازي دون أن يسأله بشكل مباشر.

وجد ذلك الصديق يتكلم بشكل طبيعي، بل ويحسده على أنه وجد طريقًا للعمل في بلد مستقر بعيدًا عن المعمعة. طمأنته طريقة الكلام تلك وقتها، وقال لنفسه إن الظروف إذا لم تتحسن في الكويت فيمكن أن يعود لليبيا في أي وقت.

- أين شردت؟

- لا شيء، أفكر في اقتراحك.

وكأنها أحست كيف ضايقه أنها لم تظهر اهتمامًا بأنه سيبتعد عنها، فقالت:

- لا أريد أن أكون أنانية حين أقول إن كل ما يهمني في هذا الأمر أن تبقى هنا.

فاجأته الكلمة فارتبك، وتندى جبينه بقطرات عرق صغيرة وهو يقول:

- حقًا؟

- بالطبع، هل عندك شك أنك أقرب أصدقائي.

اتسعت ابتسامته وهو يومئ بالنفي وعينه مثبتة على عينها، فارتبكت وحاولت تغيير الموضوع قائلة:

- بالطبع هذا إجراء احترازي، أيا كانت نتيجة القضية فمن الأفضل أن تعمل أختك.

كانت تفكر في مغزى نظرته والرسالة التي يبعثها وفحوى شعورها هي. استأذن منها للذهاب إلى الحمام وجلست هي تفكر ماذا دهاها.

عندما تكلمت معه في البداية كانت تحاول أن تكون صديقة مخلصة وتقدم له حلاً عمليًا. لاحظت أنه شرد وبدا عليه الضيق رغم أنه قال إن الفكرة جيدة. أحست أنها كانت جافة فحاولت أن تصلح الأمر لكنها عقدته أكثر وأدخلت في جلستهما سحابة رومانسية كانت تحاول تجنبها.

"لا أريد أن أترك نفسي أنجرف في هذا التيار"، قالت لنفسها في عصبية وأخذت قرارًا بأن تحاول أن تكون جادة ثانية، لكنه لم يعطها فرصة وقال لها أول ما جلس:

- هناك صديق سأقابله بعد قليل، هل يمكن أن ننصرف الآن؟
- نعم، أنا أيضًا أريد الذهاب لشراء حقيبة يد.
- هل يمكن أن أراك غدًا؟

قالها وتعبير وجهه شبيه بوجه ابنة شقيقتها حين تطلب منها أن تأخذها لشراء لعبة جديدة، ذلك الوجه البريء الذي يطلب منك شيئًا ويعرف أنك لن تخذله وستلبي طلبه. وبدون تفكير وجدت نفسها توافق وتتفق معه على أن تراه غدًا في المكان نفسه.

٣٧

- كان الوزير كلما حدثت مشكلة يقول لعله خير، وكان هذا يغيظ الملك، وفي يوم حصلت حادثة وانقطعت إصبع الملك فقال الوزير لعله خير، فسجنه الملك، وبعدها بفترة ذهب الملك للصيد فأمسكته قبيلة وأرادوا أن يقدموه قربانًا لإلههم، ولكن لأن إصبعه مقطوعة تركوه، وهنا عرف أن الوزير على حق فعفا عنه.

كان خالد يقص هذه الحكاية على حسن وهما جالسان في المحل وحسن يستمع إليه في ضجر، ولما فرغ قال له:

- قصة ساذجة.

- حرام عليك، القصة معناها أن الله يريد لنا الخير دائمًا، وقد أخبرني بها شيخ المسجد في بلدنا.

- يعني الشيخ أقنعك بأن ملكًا بطوله وعرضه وحاشيته سيأسره أهل قبيلة تسكن الأحراش وسيتركونه يمضي لأن إصبعه مقطوعة. ألن يقتلوه ليتجنبوا انتقامه يا ابن المرأة البلهاء.

خبط خالد بكفه على الطاولة وهو يسب حسن، فكل ما أراد أن يقوله إن ما حدث لهم قد يكون خيرًا. حسن جادله وقال له إن الشر شر والخير خير، وكلاهما يحدثان، وحتى لو كانت القصة حقيقية فهذا لا يعني أن قطع إصبع الملك خير، فهو شر ولن يغير من حقيقته أن قبيلة من الحمقى رفضوا تقديمه قربانًا.

- أنا فعلاً أبله وابن بلهاء لأني أصاحب أشكالك.

ربت حسن على كتفه وهو يعتذر إليه، وقام ليصب لهما كوبين من الشاي وهو يشرح له سبب ضيقه. في مرحلة ما من حياته كان حسن مواظبًا على الاستماع إلى محاضرات التنمية البشرية، وكان مؤمنًا للغاية بتعبيرات مثل "الطاقة الإيجابية" و"بناء الذات" و"البحث عن نقطة القوة الكامنة في داخلك". بعدما توالت الضربات عليه من الدنيا ومن فيها كفر بكل هذه المبادئ، وأحس أنها مجرد تبسيط مخل لما يحدث في حياته.

في الأيام القليلة الماضية كان كلما قابل أحدًا أخذ يطمئنه أن قضيتهم لن تحول للمحكمة أساسًا، وإذا حدث فسيكون الحكم بغرامة على الأكثر، ولسان حال القائل يفضح زيف كلامه. الصادق منهم يتلعثم ويقول إن من وضع الرزق في الكويت قد سخره في مصر أيضًا، وليس عليه إن عاد إليها إلا أن يبحث ويجتهد، ثم يقول الجملة التي تثير أعصاب حسن وهي "لعله خير". انتزعه صوت خالد من أفكاره وهو يقول:

- أتعرف يا حسن، كثيرًا لا أفهمك ولا أعرف هل أنت تؤمن حقًا بما تقول أم أنك تسخر منا.

- سأضرب لك مثلًا يوضح لك أن قصتك تلك قصة حمقاء.

رشف خالد من كوبه رشفة من الشاي بصوت عال ثم قال:

- قل يا فيلسوف.

- لو أن راقصة في الموالد طردها صاحب العمل، ثم هامت على وجهها وذهبت إلى أسيوط مثلا تبيع المناديل، ورآها رجل يمتلك ملهى ليليًا في القاهرة كان يزور أقاربه. التقطها الرجل وأخذها معه فعملت راقصة في الملهى، تعرت أكثر مما كانت تتعرى في الموالد لكنها تعيش الآن حياة أفضل. اسأل شيخك هل يمكن أن يقول إن الله عوضها عن عمل حقير بعمل أفضل وإن طردها من الموالد كان خيرًا.

فتح خالد فمه ولم يحر جوابًا، لكن الكلام لم يرحه وأحس أن حسن يسخر منه، فغير مسار الحديث وقال:

- ما أخبار علاء معك؟

أجابه حسن بأن لا جديد. بعد إطلاق سراحهم اتصل به وحاول طمأنته بأن كل شيء على ما يرام. حين قابله وجهًا لوجه سلم عليه بحفاوة مبالغ فيها ذكرته بقول المتنبي "والذل يظهر في الذليل مودة، وأود منه لمن يود الأرقم". ثمة مواساة توجع القلب أكثر من الشماتة، وثمة تربيتة على كتفك تشعر كأنها صفعة على وجهك، وهذا ما شعره مع علاء.

- أدعو الله أن يهدئ النفوس.

قبل أن يرد حسن دخل عليهم رجل ثلاثيني بيده فلتر من الذي يستخدم في تنقية الماء، ويبدو من غلافه الخارجي الشفاف أن قلب الفلتر امتلأ بالشوائب ويجب استبداله. أخذ حسن الفلتر من الرجل وهو يتساءل لماذا خلعه من الأنابيب المثبت بها بدلًا من أن يزيل غلافه الخارجي ويستبدل القلب فقط، فهذا أسهل كثيرًا.

- حاولت ولم ينفع، فقلت أخلعه كله وآتيك به.

هز حسن رأسه متفهمًا، فالرجل غالبًا استكثر أن يستدعي سباكًا، فهو لا يريد أن يكلف نفسه خمسة دنانير إضافية أجرة السباك وفضل أن يقوم بالأمر على طريقته. أخرج حسن من درجه آلة بلاستيكية تستخدم لفك الجزء الخارجي، وما إن رآها الرجل حتى تهللت أساريره وهو يقسم إنه كان يفكر أن من المفترض أن يكون هناك آلة كتلك لفك الفلتر.

- لقد حاولت لساعات أن أفكه دون جدوى.

ابتسم حسن وبدأ فك الفلتر وتغيير قلبه وهو يفكر في حال هذا الرجل. هو يعرفه وقد ساعده أيام تجهيز شقته قبل أن يستقدم زوجته وابنه للكويت. شقة صغيرة جدًا مساحتها أقل من خمسين مترًا. تساءل في سره هل كانت نهلة ترى أن حياتهما ستكون هكذا حينما قالت له إن موضوع ارتباطهما يحتاج إلى التفكير.

"لعله خير"، ضحك في قلبه حين قال لنفسه هذه الجملة وهو الذي سخر منها منذ دقائق. لعل رد نهلة المحبط كان سببًا في اقترابه أكثر

من جانيس وعودته إلى حضنها ثانية. جانيس بلسمية اللمسة، ملائكية البسمة هي جائزة الأيام له بعد ماض مع النساء كارثي لم يورث قلبه سوى الهم وإدمان الشهوة. جائزة يبدو أن الدنيا تستكثرها عليه.

كان قلبه قبل جانيس أشبه بقطة دهستها سيارة على طريق سريع وتركتها ممددة بلا حراك تدوسها السيارات العابرة. جانيس أخذته وأعطته قبلة الحياة وضمدت جراحه حتى شفي تمامًا، ثم أسكنته بين عينيها. فكر فيما لو تم ترحيله أن يأخذها معه إلى مصر، لكنه احتمال بعيد، فهي تنفق على ابنتيها ولو جاءت معه لمصر فمن المرجح أن تحتاج هي لمن ينفق عليها.

أنهى إعادة ربط الفلتر بعد تغيير قلبه وناوله للرجل، ورفض أن يأخذ الدينار الذي أعطاه له الرجل بخجل وطلب منه مبتسمًا أن يستشيره قبل أن يتدخل في أمر من أمور السباكة ثانية. نظر إليه خالد ساهمًا بعد أن خرج الرجل، فسأله حسن عن سبب شروده فقال:

- يا سلام لو يمكن أن نغير قلوب الناس كما غيرت قلب هذا الفلتر، ترمي الوسخ منها وتضع بدلًا منه واحدًا جديدًا نقيًا.
- لا لا لا. ما كل هذا العمق يا صعيدي، هذا كثير على رجل تافه مثلي.
- تصدق أنك ابن مرة.

سكت حسن لوهلة ثم خبط بيده على المكتب بضيق وهو يتأفف، ثم قال:

- لا أطيق التفكير في العودة لمصر يا خالد، لم أعد متخيلًا شكل حياتي فيها. هل أكون جاحدًا إن قلت إني صرت أكره هذه الحروف الثلاثة التي رميت نفسي أمام مدرعة من أجلها ذات يوم، كل شيء أحببناه واحترمناه ونحن صغار صار أمامنا مشوهًا ومكروهًا.

قالها وهو يستحضر في نفسه مثلًا عليا كانت تملأ قلبه منذ الصغر وصارت مشوهة تمامًا بعد ما رآه بعد الثورة. تبدلت في عينه المثل حتى صارت مصر كلها أمامه عجينة غلب طالحها على صالحها فلم يعد يميز وجوده.

- اهدأ يا حسن واستغفر الله، هذا عيب الثورجية من أمثالك؛ إما تكون البلد على مزاجكم وإما تكرهونها.

- ليس في الدنيا أسوأ من أن يقتل أحدهم أملك في المستقبل.

لوح له خالد بكفه غير مقتنع بما يقول، وسكت حسن فهو يعرف أن تفكير خالد بعيد كل البعد عما يفكر فيه هو. خالد هنا في الكويت بتكليف من عائلته وعودته إلى مصر أفضل له من البقاء هنا. لم يندهش حين صارحه خالد منذ يومين بأنه هنا فقط لتجميع العملة وإرسالها إلى عائلته في مصر لتتاجر بها.

لم يعرف بالطبع أن زبائن عائلة خالد الأساسيين هم تجار المخدرات والسلاح، لكن هل سيختلف الأمر لو علم؟ على الأرجح لا، فقد "استوت عنده الأنوار والظُلَم"، فحين قال له أحدهم إن تحويل الدولارات لمصر بتلك الطريقة يضر بها قال "لن يضرها أكثر من الضرر الذي يلحقه بها من يدعون أنهم يرعون مصالحها".

جاءه في هذه اللحظة زبون آخر بقائمة طلبات انشغل في إعدادها له، وهم خالد بالمغادرة لكنه استوقفه حتى صرف الزبون ثم سأله:

- هل في رأيك سيوافق علاء على الاقتراح الذي قلته لك؟

- على الأرجح سيعارض في البداية، لكن لا تقلق فأنا أستطيع إقناعه. علاء طيب القلب بخلاف ما تظن، لكن مشكلته أنه يحس دومًا أن الناس يستغلون طيبته، وأن شخصًا مثلك ذكيًا ومحبوبًا سيأخذ منه حقه بسهولة مما يجعله يتصرف بغباء أحيانًا. مشكلته أنه يشعر كثيرًا بأن الناس لا تعبأ له ويظن أنهم يعتبرونه صيدًا سهلاً ويطمعون فيه، لكن ثق بي سأقنعه.

٣٨

ملست زهراء على وجه هشام وعلى شعره وهو واضع رأسه في حجرها، ثم مسحت الدماء التي تغطي جرحا في جبهته قبل أن تمسك إبرة وتبدأ في خياطة جرحه، وهو مستسلم مغمض العينين. كانت تتمتم بأبيات للسياب وتقول:

"إني تركتك بيد أنك سوف تبقى لن تسير
قدماك سمرتا فما تتحركان ومقلتاك
لا تبصران سوى طريقي أيها العبد الأسير"

فتح هشام عينيه وقال لها:

- تركتك؟ أعتقد أنه يقول "إني لغيرك".
- أنا تركتك، لكني لم ولن أكون لغيرك يا هشام، مثلما تريد أن تكون لغيري.

اعتدل في جلسته ونظر إليها باضطراب وهو يقول:

- أقسم إني...

وضعت إصبعها على شفتيه ومنعته أن يكمل قسمه، ثم تنهدت بعمق وهي تتأمل ملامحه. اقتربت منه وطبعت قبلة على خده، ثم أمسكت رأسه وأراحته في حجرها ثانية وأخذت تكمل خياطة جرحه وهي تقول:

- أنا لا ألومك يا حبيبي، ولكني أردت فقط أن تتذكر أن قلبك سيظل ملكي حتى لو سكنت حياتك ألف امرأة غيري.

- ليس قلبي فقط بل كل ذرة في كياني، لكن لماذا يملأ الحزن عينيك يا حبيبتي؟

قطعت الخيط بعد أن أنهت رتق جرحه ولصقت عليه ضمادة، ثم قالت:

- تريد أن تبتعد عني أكثر يا هشام، بعدك الآن مقدور عليه يا حبيبي فأنت في متناول يدي، لكنك تريد أن تبتعد أكثر، وراء بحر الظلمات يا هشام، سيكون المحيط بيننا ولو ذهبت فلن تعود.

- من قال ذلك، سأعود يا زهراء، لا يختلف إن كنت عند شط الخليج أو بعد بحر الظلمات.

- الفرق كبير يا حبيبي. لو ذهبت فلن تعود، صدقني، لن تعود.

أفاق هشام وهو لا يدري هل كانت زيارتها له رؤيا أم حلمًا من هواجس نفسه. إذا كانت روح زهراء هي من يخاطبه في منامه حقًا فما الذي يختلف لديها إن كان بعده ألف ميل أم عشرين ألف ميل. إنها

هواجس روحه هو واضطراب نفسه منذ جلس مع عبد العزيز ليحاول أن يقنعه بالعدول عن فكرة الهجرة.

كان لقاؤهما منذ أسبوع في اليوم التالي لخروجهم بكفالة من مخفر الشرطة. سأله عن خطته للهجرة، وأخبره عبد العزيز أنه يعرف أناسًا سينقلونه من تركيا إلى السويد عبر عدة محطات، بعضها بري وبعضها بحري. سيدخل تركيا بشكل طبيعي على أنه زائر من الكويت، وسيأخذ زوجته من هناك وينطلقان سويًا في رحلة الهجرة.

حاول هشام أن يوضح له مخاطر تلك الرحلة، وألاعيب المهربين الذين لا يهمهم سوى جني المال ولو على حساب أرواح الناس. رد عليه عبد العزيز ساعتها قائلًا:

- لا تصدق ما تراه في نشرات الأخبار، من يموتون نسبتهم ضئيلة للغاية إذا ما قورنت بالآلاف الذين ينجحون في الوصول إلى بلاد الشمال. كفانا حياة على هامش الدنيا يا صديقي، إما أن ننجح في الوصول إلى بلاد نعامل فيها على أننا بشر وإما أن نموت ونستريح.

- وتخاطر بزوجتك؟

- هي تريد المخاطرة أكثر مني.

حاول هشام أن يفند كلامه دون جدوى. لم يكن يحاول إقناع عبد العزيز بالقدر الذي يحاول به إقناع نفسه. المثير للسخرية أن عبد العزيز حاول بدوره أن يقنع هشام بأن يهاجر هو الآخر وأن يتحمل المخاطر

في مقابل أن يضمن مستقبلًا أفضل، بعيدًا عن أرض العرب المحملة بالتعاسة من المحيط إلى الخليج.

- هؤلاء الناس رغم أنهم لا ملة لهم، إلا أنهم أحرص على أي إنسان من أهله.
- هم ليسوا ملائكة صدقني. أنا تعاملت معهم.
- نعم هم بشر مثلنا، ولكنهم يحترمون قوانينهم التي لا تظلم أمثالنا.

كانت آخر حجة في ذهن هشام هي خوف المستقبل وخوف أن يولد أبناؤك بلا هوية وبعيدين عن دينهم. سمع هو سابقًا أن بعض تلك البلدان لا بد أن تتعهد فيها أنك لا تتدخل في الميول العقدية أو الجنسية لأبنائك.

- يا شيخ هشام الأصل هو تربيتك لأبنائك والهدى من الله، أنا هنا في الكويت عرفت عاهرات عربيات أكثر مما عرفت من أجنبيات. دعك من هذه الحجج الفارغة.

كانت تلك الجلسة لها أثر في نفس هشام جعل فكرة الهجرة تراوده، لكن ما ينقصه هو الجرأة للدخول في مغامرة كتلك. ليس الموت ما يخشاه بقدر ما يخشى على أمه وأخته من بعده.

بقي ثلاثة أيام على وصولهما، وغدًا سينهي تأثيث الشقة التي استأجرها لهما. كان قبل حادثة ليلة الشواء المشؤومة يخطط لاستبقائهما وتحويل زيارتهما المؤقتة إلى إقامة كاملة معه باستخدام واسطة يسرها له

أبو مشعل في أول لفتة له من هذا النوع. يومها قال له إنه لا يجب التدخل في أمور كتلك، لكن أي عربي لديه نخوة يجب أن يساعد في صون الحريم وجمع شملهن بالرجل المسؤول عنهن.

كانت خطة أجمل من أن تكتمل، وهو الآن يفكر في البدائل. شيخة كلمت بعض معارفها لتوفير فرصة عمل لأخته بالفعل، وشيخة تكلمه كل يوم لتطمئنه، وشيخة اليوم رتبت له لقاءً مع ممثل لمجموعة فلسطينية سيعد تقريرًا صحفيًا عنهم، وهو تقرير مهم سينفعه بالتأكيد.

شيخة، شيخة، شيخة! لها الحق روح زهراء في أن تزوره وتلوح بغيرتها، لكن ما أدهشه في هذا الحلم أو الرؤيا هو قولها إنه سيذهب وراء بحر الظلمات. هل هي نبوءة؟ لم يرد عبور الأطلسي في رأسه حتى عندما فكر في كلام عبد العزيز وفكر في الهجرة لأوروبا، فكيف يكون قولها في الحلم من هواجس نفسه، ألا يمكن أن تكون نبوءة من روح تحبه؟

نفض عن رأسه تلك الأفكار، فهو طيلة عمره يكره المعتقدات التي تربط الموتى بدنيا الأحياء. نظر في ساعته ووجد أن الوقت قد حان للتوجه إلى موعده مع شاب فلسطيني ممثل حركة فلسطينية واعدة تعمل للضغط على إسرائيل عن طريق محاربتها اقتصاديًا.

ذهب إلى المقابلة وخرج منها وذهنه مضطرب أكثر من ذي قبل. كانت مقابلة متميزة والشاب الفلسطيني أعطاه أملًا أنه لا يزال في هذه الأمة رمق، وأن هناك من يفكرون بمنهجية ودون الحنجورية العربية التي لا تنفع. أحس بألفة غريبة معه، وبعد أن أنهى الحوار الرسمي جلسا وقتًا

طويلًا يتبادلان الحديث. كل هذا كان عاديًا، لكن غير العادي ما حدث حين قص على الشاب مشكلته وما يفكر فيه من الهجرة والمخاطرة مع عبد العزيز.

- أعتقد أنه يمكننا أن نساعدك في هذه المشكلة يا هشام، ولكن يمكننا أن نوفر لك الذهاب إلى أمريكا وليس إلى أوروبا.

- وكيف ذلك؟

سأله هشام وفي رأسه صورة زهراء في الحلم وهي تقول إنه سيعبر بحر الظلمات. أخبره الشاب أنهم يمكن أن يوفروا له وظيفة هناك، فالعمل الإعلامي جزء أصيل من منظومتهم، وهم لهم طرق كثيرة في استقدام شاب مثله إلى هناك.

- هناك أيضًا طريقة أخرى وهي طلب اللجوء، ولنا علاقات كبيرة تسهل تسيير هذا الطلب لك، خصوصًا لو صدر حكم بترحيلك من هنا.

شكره هشام بحرارة وقال إنه سيكون على اتصال معه لتحديد الخطوة القادمة. كان مضطربًا بشدة وقد تداخلت الأفكار في رأسه. "لكن زهراء تخاف أن أذهب إلى هناك"، خاطر ورد برأسه فنهر نفسه قائلًا "ماذا دهاك يا هشام. هل ستسير خلف هاجس جاءك في المنام". يريد أن يتحدث مع أحد الآن فالأفكار متزاحمة في رأسه بشكل لا يصدق، وليس له أحد يحكي معه سوى حسن أو شيخة، والحديث مع أيهما لا بد أن يتضمن إخفاء بعض التفاصيل.

حسن في أزمة ولا يعرف ما سيحدث له غدًا، فهل من اللائق أن يقول له "أنا أمامي فرصة للذهاب إلى أمريكا ولا أعرف ماذا أفعل". يعرف أن صديقه سيجتهد في إخفاء مشاعره وسيحاول أن يفكر معه، ولكنه يعرف أيضًا أنه دائم المقارنة بين حاله وحال غيره وسيزيده هذا الكلام غمًا على غمه.

وشيخة لا يملك أن يصارحها بهاجس حلمه، فهي وإن كانت تصر على أنهما أصدقاء إلا أن في القلب ما فيه. أمسك هاتفه وكتب لها:

- أنهيت المقابلة والتقرير سيكون جاهزًا في صباح الغد.
- أعرف أنه سيكون مميزًا.
- أحتاج أن أراك لأمر هام.
- حسنا، ستعزمني على الغداء.
- موافق. بعد ساعة في قاعة طعام مول ٣٦٠.
- اتفقنا.

وضع هاتفه في جيبه وغمغم لنفسه "مالي صرت عاجزًا وضعيفًا هكذا. صرت مترددًا كلمة تأخذني للشرق وأخرى تأخذني للغرب وحلم يهز أفكاري. ماذا دهاني". زفر أنفاسه وهو يشير إلى سيارة أجرة تقله إلى مكان لقائه بشيخة، وهو يتساءل متى تحول هكذا، وهل الحرب أم الهروب من الحرب هو ما أفقده قوة قلبه.

٣٩

- الصديق وقت الضيق، وهشام هذه الأيام أشد ما يحتاج إلى صديق يأخذ بيده.

قالت شيخة بحزم لسلوى، وهي ترد على تأنيبها حين عرفت أنها ذاهبة لتناول الغداء مع هشام. هزت سلوى رأسها غير مقتنعة، وهي تحاول أن تشرح لصديقتها أنها ليست ضد ارتباطها بهشام لكنها ضد محاولة التظاهر بعكس ذلك. حديث يتكرر بينهما للمرة المائة، ولا تمل كل واحدة منهما من ترديد الحجج نفسها التي تؤيد وجهة نظرها. تركتها شيخة وتوجهت إلى موعدها وهي تتمنى أن يكون هناك شيء جديد حقًا.

صار قلبها مثقلًا بهمه هذه الأيام، وأكثر ما يحزنها هو أنه لم يعد كما كان. حين عرفته في البداية، ورغم أنه كان يجلس كحارس أمن على باب البناية، كان يبدو عليه الاعتداد الشديد بنفسه والاستهانة بما فعلته به الدنيا، ورغم جديته الظاهرة كان أكثر مرحًا. الآن صار قليل الكلام سريع الحزن يبدو على وجهه الألم كلما حدث موقف يضايقه

بدلًا من الغضب. لكل هذا تسامح نفسها في اقترابها الشديد منه هذه الأيام، وتقول إنها مرحلة مؤقتة وستمر.

سيترك الكويت وسيكون مجرد ذكرى، ولن يختلف الأمر إن كانت ذكرى حبيب أو صديق، فهي في النهاية بقايا تؤرق الروح. أحيانًا تشعر بأنها تتمنى لو يغادر حقًا لكي تستقر وتبدأ في التعود على حياتها بدونه.

"ما هذه الأنانية، لماذا يجب أن تتداعى حياته هو لتستقر حياتي؟ من الممكن أن يظل هنا ويسير في طريقه وأن ننهي ما بيننا جديًا"، تقول لنفسها ذلك ثم تقول بإصرار واهٍ "نعم سأفعل ذلك بعد أن تنتهي أزمته". إنهاء ما بينهما خيار لا بد أن يكون حاسمًا، فهو حتى إن ترك الكويت وهما على تلك الحالة من اللاحب واللا بُعد سيظل بينهما اتصال ورسائل. سيبقى شبحه يطوف حولها كلما كلمت غيره حتى إن كان شبحًا باهتًا، ستسأل نفسها إذا فكرت بالارتباط بغيره إذا كان يجب أن تخبره، وهل من الأخلاقي أن تقول لغيره "أحبك" وهي لا تزال تراسله.

في لحظات الصراحة الكاملة مع نفسها تقول إنها أحبته حقًا وبعمق. أحبته لأنه الرجل الوحيد الذي تعامل معها بحب صاف لا تشوبه تلك الرغبة المقيتة في التملك. الرجل، أي رجل، يعطي للمرأة ويتوقع المقابل دومًا، يقول أحبك فيتوقع في المقابل أن تخضع المرأة له، يهديها وردة ويتوقع امتلاك جزء من عقلها ثمنًا لها، يعطيها وعدًا بالحماية وهو يعني بها حماية السيد لمملوكه لا حماية المحب لمحبوبه.

رجل سيء ذلك الذي يتخلى عنك في أوقاتك الصعبة، لكن الأسوأ منه هو الذي يقف إلى جوارك في أوقاتك الصعبة ثم يذكرك بوقفته ويريد منك أن تظلي ممتنة له. نادر جدًا ورائع جدًا ذلك الرجل الذي يعطي ثم يتضايق منك حين تذكرينه بأنه أعطى، ويثير حفيظته أن يشعر بامتنانك بدلًا من حبك، وهشام كان منهم.

هشام أحبها، أحست به دون أن ينطقها، وعرفت أنه يتمنى لها الخير كل الخير حتى لو لم يمتلكها. مر عليها وقت كانت على استعداد لأن تحارب الدنيا وتقف في وجه تقاليد كثيرة، وتتحمل أي شيء مقابل هذا الحب. لكنها رأت منه وجهًا آخر جعلها تتخلى عن تلك الفكرة حتى إن كانت لا تزال تحبه. تشربت طيلة عمرها بمبدأ أن الحياة أقدس شيء في الوجود، وأن الاعتداء على الحياة ذنب يلغي كل شيء مهما كانت المبررات. ولأنها أضعف من أن تتركه تمامًا اختارت أن تظل إلى جواره كصديقة، خاصة عندما ظهرت أزمته الأخيرة.

دخلت المول الذي تتيه فيه كل مرة على الرغم من صغره. صعدت إلى الطابق الذي توجد فيه قاعة الطعام وبحثت بعينها عن هشام، وفوجئت به واقفًا إلى جوار إحدى الطاولات ومعه فتاة فلبينية تتحدث معه بابتسامة عريضة.

تصاعد الدم في رأسها وانتابها شعور بالضيق والغضب، وهي تتساءل من هذه وما درجة العلاقة بينهما. شيخة شخصيتها متقلبة أحيانًا، لكن أسوأ تقلباتها كان في لحظات الغيرة التي تجعلها تفقد قدرتها

المعتادة على تحليل المعطيات والنتائج. لم تسأل نفسها لماذا تغار أصلًا على هشام وهي منذ دقائق كانت تقرر لنفسها حقيقة أن خروجه من حياتها مسألة وقت.

بدلًا من أن تفكر عن سبب وقوفه مع أخرى والذي قد يكون سببًا عاديًا لا يدعو للغيرة، اندفعت في رأسها أفكار من عينة أنا الثريا وهي الثرى ومن تكون تلك لأغار منها. تتقافز شياطين الأنثى أمام عينيها وتهمس لها بأنه يتكلم مع غيرها بالأسلوب نفسه ويتودد إليها بالطريقة نفسها. الغريب أن أكثر صفة تكرهها في أي رجل هي الغيرة. تشعر بأن غيرة الرجل عدم ثقة وحب تملك وجاهلية ما زالت تسكن قلبه البدائي الذي لم تغيره الحضارة. لم تفكر أبدًا أن غيرة الرجل قد تكون مسًا من الجنون لا يعرف المنطق ولا يلتمس الأسباب تماما كغيرة المرأة.

سلمت الفتاة على هشام وانصرفت باتجاه السينما التي تفضي إليها قاعة الطعام. أثار حفيظتها أيضًا سلامه عليها وهو الذي نادرًا ما يمد يده إليها بالسلام بالرغم من أن تلك الصفة تعجبها فيه. بعد انصراف الفتاة وقف ينظر حوله قليلًا يبحث بعينه عنها "أو يطمئن أنني لم أره"، قالت لنفسها وهي تقترب منه عابسة وما إن رآها حتى مشى نحوها وأخذها إلى طاولة قريبة.

- تخيلي أن حسن وجانيس هنا وسيدخلان السينما الآن.

- وأين هما؟

- دخلا للتو. حسن كان يشتري التذاكر وجانيس كانت واقفة معي حتى أشار لها فلحقته.

نظرت إليه وحاجبها الأيمن مرفوع أعلى قليلًا من الأيسر، وعلى وجهها ابتسامة خفيفة تتصنع عدم التصديق وتسأل نفسها هل قال ذلك لأنه لاحظ عبوسها. نظر إليها مبتسمًا وقال:

- رأيت جانيس وهي معي. أليس كذلك؟

ردت بتردد بأنها قد رأتها تضحك معه وأنها بالفعل تساءلت من تلك فسألها:

- وهل كان هذا سبب عبوسك؟

- كلا بالطبع، ولماذا أعبس لأنك واقف مع فلبينية؟ الحكاية أنني عانيت حتى استطعت أن أجد مكانًا لصف سيارتي.

ضحك حين قالت ذلك ولم يعلق، ثم سألها عما تفضل للغداء.

- سلطات فقط.

قالتها وقبل أن ترد على وجهه المندهش قامت وأخذته أمام مكان للسلطات فقط، وقالت وهي تشير إلى الأواني المتراصة خلف الزجاج:

- هنا يقومون بعمل طبق سلطة يكفي للغداء ويملأ معدتك تمامًا.

وافقها رغم عدم اقتناعه، لكنه حين رأى طريقة إعداد الوجبة وحجمها ومحتوياتها زال عنه عدم الاقتناع. توجه معها بعد ذلك إلى

طاولة جلسا عليها وبدآ في تناول أطراف الحديث، فبدأ يحكي لها عن لقائه مع الشاب الفلسطيني وما كتبه في التقرير.

- دعك من هذا وأخبرني عما كنت تريد أن تحدثني فيه.
- هذا عين الموضوع، فهذا الشاب قد وعدني أنه سيساعدني في توفير عمل لي في أمريكا.
- حقًا؟

قالتها وسرحت ببصرها متخيلة أن هذه الخطوة ستفيده وفي الوقت ذاته ستبعده عنها تمامًا كما كانت تأمل. لكن لماذا انقبض قلبها بهذا العنف وسرت سحابة من كآبة على نفسها. سألته بصوت خافت:

- هشام، هناك شيء يثير استغرابي أريد أن أسألك عنه، ولكني أخاف أن تغضب.

- أنا لا يمكن أن أغضب منك أبدًا.

- لماذا وأنت الثوري الذي حملت السلاح لتغيير بلدك تتخلى عنها بهذه السهولة؟

فتح عينيه بدهشة شديدة من سؤالها، ووضع ملعقته على الطاولة وقال بضيق:

- أنت آخر من كنت أتوقع أن يسأل هذا السؤال، أنا هربت من فوضى وعبث ملأ بلدي ودمر كل ما حاربت من أجله، وجعل من ١٧ فبراير تاريخًا أسودَ بدلًا من أن يكون تاريخًا للفخر. جئت إلى

الكويت ويسر الله لي فيها أناسًا كانوا أقرب لي من أهلي وسخر لي فيها الرزق، ولكنه شاء في النهاية أن أكون مهددًا بالطرد منها. قولي لي أنت ماذا أفعل؟

- لا أعرف، ولكني أحس أنك مختلف هذه الأيام، كأن صلابتك وتصميمك قد ذابا فجأة.

- عندك حق، ضاع مني حضن الوطن الأصلي ومهدد بالطرد من وطني البديل، ماتت حبيبتي وحين يسر الله لي إنسانة تمسح أحزاني وتهديني حبًا يحتويني لم أهنأ بها، لأنها لم تتقبل أفعالي السابقة التي اختلفت معي في مدى أخلاقيتها. أحبتني لكنها لم تتقبلني فاختارت أن تكتفي بدور الصديقة التي تدعم وتواسي، ونسيت أن الحب لا يعوضه شيء آخر.

ملأت وجهها نظرة حزينة وترقرقت في عينيها دموع لا تعرف سببها، فاستدرك قائلًا:

- أنا آسف يا شيخة، أنت حلم أجمل من أن يكتمل. أرجوك أعذريني أنا تائه ومحبط وحزين، وصرت قريبًا جدًا من الكفر بوطني وعروبتي، ولولا تثبيت الله لابتلاني بكفر أسوأ من ذلك. نحن في زمان إذا كان فيه القابض على دينه كالقابض على جمر فالقابض على وطنه كالقابض على سائل حارق يكويه ولا يستطيع أن يمسكه كما يمسك الجمر، يحترق منه ولا ينال منه شيئًا.

٤٠

انتهت صلاة الجمعة في المسجد المزدحم الذي يصلي خارجه عدد من الناس أضعاف العدد الذي يصلي داخله، صفة معتادة في مساجد حولي قد يكون مصدرها المصريين الذين يشكلون غالبية في هذه المنطقة. وقف حسن بفراغ صبر ومعه خالد ينتظران انتهاء علاء من الجدال مع بائع الخضر حول سعر صندوق بطاطس.

بعد دقائق جاءهم وعلى وجهه علامات الظفر، وبيديه الصندوق الذي يبدو أنه اشتراه بسعر يرضيه. توجه نحو سيارته ووضع الصندوق في الخلف وركب معه الرجلان متوجهين إلى المحل الخاص بحسن وعلاء. كان خالد قد رتب هذه الجلسة لمحاولة ترتيب الأمور بينهما في حال إذا ما تم ترحيل حسن.

جلسوا وبدأ خالد بالكلام، وقبل أن يقترح شيئًا قال علاء:

- صلوا على النبي، حسن إذا تم ترحيله لا قدر الله فأنا سأعطيه كل فلس شارك به في هذا المحل، إضافة إلى ما زاد من رأس المال خلال الفترة السابقة، لكن على أقساط.

كان الكلام صادمًا لحسن، الذي تغير لون وجهه وهم بالرد على علاء لولا أن خالد استوقفه. كان هو الشخص الأمثل للقيام بدور الوسيط والحكم في هذه الجلسة لما له من قدر عند كليهما. خالد من قرية علاء نفسها وهو الذي ساعده على المجيء للكويت ويسر له عملاً فيها ووقف معه كثيرًا في البداية. هما صديقان مقربان منذ الصغر وزميلا دراسة، رغم أن خالد أكبر بعامين تقريبًا، ورغم أن أغلب عائلة علاء يعملون لدى عائلة خالد وهي العائلة الأقوى في بلدتهم.

خالد أيضًا ساعد حسن عدة مرات أبرزها حين تحطمت سيارته في حادث، فقد تكفل خالد بإصلاحها عند أحد معارفه وضمن حسن حتى سدد التكلفة بعد شهور. ورغم اختلاف الثقافة والتعليم إلا أن حسن يحترم فيه شهامته ويحب خفة ظله وتحمله لمزاحه الثقيل.

- أنا لي رأي آخر يا علاء اقترحه حسن وأعتقد أنه جيد.
- ولماذا اقتراح حسن هو المفضل؟
- أنا وسيط بينكما ولن أنحاز لك أو له.

قال خالد اقتراح حسن، وهو أن يبقى شريكًا لعلاء حتى بعد رحيله وأن يرسل إليه نصيبه في الأرباح إلى مصر إذا تم ترحيله. استفز الاقتراح علاء ولم يوافق عليه في البداية، بل وعلا صوته معترضًا بشدة. هدأ خالد من روعه وحاول أن يشرح له وجهة نظره في قبول هذا الاقتراح، وحق حسن في أن يستمر في الشراكة فهو قد تحمل مخاطر بدء العمل وساهم في نجاحه، وشيء عادي أن يكون شريكًا وهو في بلد آخر.

تدخل حسن في الحديث، لكنه تكلم بصوت هادئ به مسحة من التوسل لعلاء:

- أنا فقط أريد أن أقول لك إنني لم أجن من غربتي سوى مشروعي معك وشقة صغيرة دفعت ثلثي ثمنها، ولا أعرف ماذا سأفعل عند عودتي لمصر، أريدك فقط أن تضع نفسك موضعي.

أطرق علاء وبدا كأنه تأثر بكلام حسن، ويبدو أن طريقة حسن كانت بسبب ما قاله خالد من أن علاء طيب القلب لكنه يخشى من استغلال الناس لطيبته. أكمل خالد كلام حسن شارحًا له موقف الأخير وظروفه الصعبة.

- حسنًا، لكني سآخذ أربعين في المائة من الدخل مقابل الإدارة، ثم يتم تقسيم الباقي بيننا كشركاء.

هم حسن بالاعتراض لولا أن خالد استوقفه وحاول أن يتفاوض مع علاء على هذه النسبة. استمرت المفاوضات حتى وافق علاء أن يأخذ عشرين بالمائة مقابل الإدارة، وأن يعين موظفًا يقوم بأعمال حسن ويخصم راتبه من الأرباح.

انتهت الجلسة وحسن مختار لا يعلم هل هذا أفضل أم أنه مغبون في هذا الاتفاق. نظرة الظفر التي كانت على وجه علاء كانت وحدها كفيلة بجعله يشعر بأنه لم يخرج فائزًا في هذا التفاوض.

انفضت جلستهم وأخذ هو سيارته للتوجه إلى الفندق الذي يقيم فيه إياد ليقله إلى مرسى اليخوت، فالرجل معزوم على يوم في البحر.

شعر وهو في الطريق برغبة ملحة في أن يتحدث معه ويحكي له عن كل ما حدث ويأخذ رأيه في اتفاقه مع علاء.

منذ أيام قص هشام عليه حكاية الشاب الفلسطيني الذي وعده بفرصة للسفر إلى أمريكا إذا تم ترحيله. كالعادة، الدنيا تنتقي بعض الأشخاص لتعطيهم فرصًا أفضل من الآخرين، وبقدر سعادته من أجل صديقه كان ضيقه الشديد وحنقه على الظروف التي تنتقي له الأسوأ دائمًا. يعود بعدها يرثي لصديقه الذي يحمل هم أمه وأخته اللتين وصلتا للكويت منذ أيام في الوقت الذي يبدو فيه على وشك الرحيل. "على الأقل مصر يمكن العودة إليها بخلاف ليبيا، أعانه الله على بلائه".

وصل إلى الفندق وأخذ إياد وتوجه في طريقه إلى مرسى اليخوت. سأله إياد عن أحواله وعن أخبار صديقته ورد عليه باقتضاب. لاحظ الرجل تجهمه فسأله ثانية، فقال له حسن إن لديه مشاكل كثيرة وإن وقت رحلتهم من الفندق للمرسى لن تكفي ليحكي له عن شيء.

- ما رأيك لو تأتي معي وتقضي معنا اليوم على القارب ونتكلم أكثر؟
- وهل هذا ينفع، أنا لا أعرف أحدًا من أصدقائك.
- ولكنك صديقي وهذا يكفي.

لم يعد حسن يهتم بمصاحبة هذا الرجل لأنه زبون فقط، بل لأنه يعامله كصديق ويحترم تلك الصداقة. وافق حسن وركب القارب مع الرجل، وهناك تعرف إلى ثلاثة رجال آخرين لبنانيين أصدقاء للرجل، وبعض الفتيات من جنسيات مختلفة قيل له إنهن أصدقاء أيضًا.

جلس حسن مع الرجل وبدأ في قص حكايته والحكم الذي ينتظره بالترحيل. استمع له الرجل حتى فرغ ثم قال:

- وما هي خططك البديلة لو تم ترحيلك؟

أخذ يعدد احتمالات فكر فيها ولم يدرسها بالشكل الكافي، واتضح له أمام نفسه أنه بالفعل لم يفكر جديًا بالخطوة القادمة. أحس بالحرج وبأنه لا يجد ما يقول، فأخذ يتكلم عن اتفاقه مع علاء وهل هذا يحفظ حقه أم أن علاء استطاع أن يضحك عليه.

- في رأيي الاتفاق جيد، ولكن لا بد أن يكون مكتوبًا في حضور شخص ثالث توكله أنت فيما بعد بالتعامل مع شريكك، حتى تضمن أن يلتزم بالاتفاق.

سكت حسن وأخذ يتأمل مياه الخليج التي صار القارب في وسطها والشاطئ الذي صار يبدو صغيرًا في نهاية الأفق. فكر في موقفه الآن وقارنه بباقي الموجودين على متن ذلك القارب وأنه أسوؤهم حظًا. حتى هؤلاء الفتيات سواء كنّ مستأجرات لقضاء الوقت أو موظفات صغيرات يعملن تحت إمرة هؤلاء الرجال وجئن هنا للتقرب من مدرائهنّ فهن بالتأكيد أكثر سعادة منه.

تذكر جانيس في تلك اللحظة وحين تركها هذا الصباح، وتمنى لو استطاع يومًا أن يأخذها على قارب كهذا. صارت جانيس الآن مادة أحلامه ولم يعد يفكر في أن يستبدل بها أخرى ليصير الحلم أكثر مثالية.

صارت المثالية في الحلم هي أن تكون جانيس أنثاه وأن يسقط عليها كل شطحاته وأحلامه. أفاق من أفكاره ونظر إلى إياد وتردد قليلًا ثم قال:

- هل يمكن أن تجد لي عملاً في بلد خليجي آخر؟
- بالطبع ممكن، ولكن ما نوع الوظيفة التي تريدها؟
- لا أعرف. أي وظيفة.
- يا حسن كن محددًا. تريد أن أبحث لك عن وظيفة ولا تعرف نوع تلك الوظيفة. هل تريد أن تعمل سائقًا مثلاً أم موظفًا في المخازن أو المشتريات أو الموارد البشرية أم حارس أمن. فكر ماذا تريد.

انقبض قلب حسن من طريقة الرجل، وأحس أنه أخطأ وأن عشمه لم يكن في محله. قد يكون على حق فهو فعلاً مترهل الفكر على حد تعبيره، ليس في رأسه شيء ولا يعرف ماذا يريد، يعرف فقط أنه لا يريد العودة إلى مصر، ويعرف أنه يريد أن يبني مستقبله لكنه لا يملك خطة. أشاح بوجهه وقال وهو يحاول الابتسام.

- دعك من هذا الاقتراح، أنا بالفعل لم أفكر جديًا قبل أن أقترحه.
- عندي لك فكرة، لكن لا توافق عليها الآن، خذ وقتك وقلب الأمر في رأسك قبل أن توافق.

قال له الرجل إنه سيوفر له مهنة للعمل كسائق في فرع الشركة في مسقط لمدة عام براتب بسيط. خلال هذا العام عليه أن يعمل متدربًا في قسم التسويق بدون راتب، وأن يأخذ دبلومًا في التسويق ينفق عليه

نصف راتبه. سيعمل متدربًا صباحًا وسائقًا بعد الظهر ويذاكر في المساء.

إياد قال له إنه لو عمل في مجال التسويق فسينجح، فهو ذكي وموهوب بالفطرة، ولكن عيبه أنه يعتبر ذكاءه بديلاً عن العمل الدؤوب والتدريب الحقيقي. يقول أيضًا إنه بعد انقضاء هذا العام سيدعمه، بشرط أن يظهر الجدية الكافية وأن يرى تقارير من مشرفيه تؤكد ذلك.

- أتعرف يا حسن، أنا لست أعرض عليك هذا لأنني عطوف وأحب مساعدة الناس، بل لأنك إذا استطعت اجتياز هذا العام بنجاح ستصير مكسبًا كبيرًا لي كمدير.

كان هذا رد الرجل عليه حين قال له حسن إنه يستطيع التعلم بسرعة وإن المدة يمكن اختصارها لثلاثة أشهر. قال إن الغرض ليس فقط أن يتعلم التسويق، بل أن يتعلم الالتزام المرهق وتحمل العمل تحت ضغط. زم حسن شفتيه حين فكر في هذه المبادئ التي يراها دومًا مجرد مبادئ نظرية يستخدمها الرؤساء لطحن مرؤوسيهم.

مع الغداء جلس حسن إلى جوار فتاة بيضاء زيتونية العينين في شفتيها امتلاء وفي أنفها رقة. ابتسمت له وعرفته بنفسها، قالت إنها أرمنية وإنها هنا في الكويت منذ خمس سنوات وإنها تعمل مدرسة في روضة أطفال. عرفها هو بنفسه على أنه صاحب مشروع ناجح هنا في

الكويت، وأن له أعمالاً في مصر قد تضطره إلى ترك الكويت وإدارة أعماله بين هنا وهناك.

استمر حديثه معها لما بعد الغداء وبدا أنها مستمتعة بصحبته. حكت له الكثير عن تفاصيل حياتها وعن زوجها الذي أتى بها إلى الكويت ثم أصيب بمرض نادر قضى عليه في فترة قصيرة، وأنها بعد وفاته فضلت أن تكمل حياتها هنا. سألته عن نفسه، قال لها إنه طائر شرود لم يتزوج بعد، وإن أي امرأة تقترب منه لا بد لها أن تعاني في النهاية. ضحكت وسألته:

- هل تريد أن تخيفني من الاقتراب منك؟
- كلا، أنا أحدثك عن نفسي كما طلبت.
- لا شيء يجعل المرأة تعاني غير الحب، وأنا تعلمت ألا أقع في الحب.

قالتها واقتربت بفمها من أذنه حتى شعر بأنفاسها تلفح خده، ثم قالت هامسة:

- أنا أحب أن أستمتع بحياتي وحسب.

ابتلع حسن ريقه وقد أدرك ما ترمي إليه، وقال وهو يبتلع ريقه:

- حقًا؟

ردت عليه بإيماءة من رأسها وهي تقف وتمشي الهوينى ناحية السلم الذي يفضي إلى الدور السفلي من القارب. تأملها وهي تمشي مرتدية زي السباحة وجسدها يلمع وكأن شمسًا مختلفة قد أشرقت في كل جزء

فيه. التفتت إليه بابتسامة خلابة وبعين عابثة وهي تنزل أولى درجات السلم، وبادلها الابتسام والدماء تندفع إلى رأسه.

كعادته حين يرى امرأة جميلة تبدي له هذا القبول، نسي أفكاره وحيرته ولعبت خمر الأنوثة برأسه وانصب تفكيره على كيفية الوصول إليها. فكر في أنه سيهبط هذا السلم خلفها ويتبادل معها حديثًا قصيرًا هامسًا يسمح لوجهه أن يقترب من وجهها تمامًا، ثم تكون قبلة تفتح الأبواب المغلقة وتيسر له أن يطلب منها أن يتقابلا في مكان أكثر خصوصية.

وقف منتصبًا وبدأ يخطو ببطء نحو السلم، لكنه توقف فجأة وقد انطفأت رغبته بلا مبرر. عاد أدراجه إلى كرسيه وهو يحاول تبين ما حدث، فتح هاتفه وأخذ يطالع صوره مع جانيس، وينظر إلى وجهها المبتسم وإلى شفتيها اللتين تطبعان قبلة على خده وهو يقول "ماذا فعلت بي يا ابنة المجانين".

لم تكن صحوة ضمير ما جعله يتراجع عن نزول السلم خلف الفتاة، بل مجرد انطفاء الرغبة دفعة واحدة وكأن أحدًا قد فصل الكهرباء عنها. هو دومًا يعتقد أن الحب لا يمنع الرجل من العلاقات العابرة، ما دامت فتاته لا تعلم فلا مشكلة، ما الذي سيؤذيها أساسًا إذا ذهب إلى فراش امرأة أخرى ليلة واحدة ولم يكررها. وهو متجه إلى السلم لم يتوقف لأنه تخيل حزن جانيس إذا فعلها مع أخرى، بل لأنه أحس أن ما هو على وشك فعله شيء غير ممتع وغير ذي قيمة. توقفت رغبته

دفعة واحدة حين أحس أنه على وشك لمس امرأة غير جانيس. صارت تشعره بشبع غير محدود يصده عن غيرها. أخذه من أفكاره اقتراب صديقه منه وهو يقول:

- أين ذهبت نيكول؟

- نزلت لتحضر لنفسها كوبًا من الكابتشينو.

ضحك إياد ضحكته العالية المعتادة، ثم سأل حسن بخبث:

- ولماذا لم تنزل لتحضره معها؟

قالها وضحك ثانية وهو ينظر تجاه المجموعة الجالسة بعيدًا، وبادلته إحدى الفتيات الابتسام فقال لحسن:

- أول مرة لي أتعرف إلى فتاة مصرية تبدو لي لذيذة للغاية رغم أنها ممتلئة قليلاً.

ضحك حسن وهو يقول:

- هذه عندنا في مصر يقال عنها غزال، فالمرأة في مصر تعتبر بدينة فقط إذا تجاوزت التسعين كيلوجرامًا.

- أنت تمزح طبعًا. ولكن قل لي هل لديك مشاريع بخصوص جانيس؟

قلب حسن وجهه وهو يتساءل كيف يكون له مشاريع وهو للآن لا يعرف ماذا ينتظره ولا ما سيفعله غدًا. هو صار يحبها ولا يتخيل فقدها، ولكن الزواج خطوة كبيرة للغاية، ويكفي ما سيعانيه في إقناع

عائلته، فجانيس مطلقة ولديها ابنتان وفلبينية وهي أيضًا مسيحية. يمكن لو أنها أسلمت ستكون تلك نقطة جيدة تجعل عائلته أكثر تقبلاً لها.

- هل فكرت أن تحدثها عن دينك مثلاً؟

- لمحت لها ذات مرة، وقلت لها إن الإسلام هو أكثر الأديان منطقية.

ضحك الرجل فنظر إليه حسن شذرًا وقد خيل إليه أنه يسخر منه، فقال:

- اسمع يا حسن، كل معتنق لدين يرى أن دينه أكثر منطقية من الأديان الأخرى، وكل دين فيه أمور لا تجري حسب المنطق. أنت مسلم لأن روحك تشبعت بالإسلام قبل عقلك، وأنا مسيحي للسبب ذاته، لكنني مثلاً حين أنحي الروح جانبًا وأفكر بمنطقية أجد أن كل اعتقاد فيه ثغرة لا يمكن تفسيرها. الاعتقاد بأننا أبناء الطبيعة وأنه لا توجد قوى عليا تسير حياتنا ربما أكثر منطقية في رأيي، لكنه يجعل الحياة جحيمًا لا يطاق وينزع عنها روحها.

هم حسن بالرد عليه ولكنه أكمل قائلاً:

- الإسلام مثلاً في رأيي هو أكثر الأديان منطقية، وهذا حقيقي فهو الدين الوحيد الذي سن قوانين لكل شيء في الحياة، ولكنني كما قلت لك مسيحي لأن روحي مسيحية وقلبي يأبى دخول عقيدة أخرى فيه، هل فهمت؟

سكت حسن ولم يرد، فهو ضعيف في النقاشات التي تخص الدين، وتمنى للحظة لو أن هشام موجود فهو قادر على إفحامه. وكأن الرجل أحس ما يدور في رأسه فقال إنه يقول أفكاره الخاصة والتي غالبًا لا يوافقه عليها أحد، وهو لا يريد إقناعه بشيء وإنما يوضح له أن حجة "الدين الأكثر منطقية" حجة غير مقنعة.

- في النهاية يا حسن إذا نويت الزواج بجانيس فلا تخبر أهلك بالتفاصيل، قل لهم إنها عذراء وإنها في الخامسة والعشرين وإنها تفكر في الإسلام لكنها تحتاج وقتًا. في النهاية هذه حياتك أنت وأنت الوحيد صاحب الكلمة الأخيرة.

٤١

تبقت ربع ساعة على موعد هشام مع رئيس التحرير الذي استدعاه دون سبب واضح. كان جالسًا على مكتبه متوترًا وهو يفكر في سبب الاستدعاء ذلك، متوقعًا أن يكون له علاقة بقضيته التي سيحكم فيها بعد ثلاثة أيام فقط. المحامي الذي يتولى القضية قال إن أملهم أن يحكم القاضي بعين الرأفة، فهم كلهم شباب مغربون من بلاد يصعب العودة إليها.

كان في رأيه أن عبد العزيز هو أوفرهم حظًا، فهو قد حزم أمره، وأيًا كان الحكم فهو سيترك البلاد ويتوجه في رحلة اللجوء متقبلاً المخاطر. أخبره أيضًا أن زوجته وافقته وتشجعه على تلك الخطوة هي وأهلها. بدا واضحًا له الآن أكثر من أي وقت مضى أن الحل الوحيد السعيد هو الخروج من تلك الرقعة الكائنة من المحيط إلى الخليج، فهي الآن أتعس أصقاع الأرض.

الترحيل من الكويت هو الحكم الوحيد الذي سيفضي به إلى نتيجة محددة، وهي الخروج مما كان يسميه بالوطن العربي. اطمأن الآن على أمه

وشقيقته إلى حد كبير، فقد تم قبول أخته في الوظيفة التي رشحتها شيخة لها، وبدأت في تجهيز أوراقها لتكون إقامتها بالكويت دائمة ومستقلة عنه.

الحكم بالغرامة أو الحبس لشهرين دون ترحيل - وإن كان أقرب إلى قلبه- سيضعه في قلب حيرة جديدة: هل يغامر ويذهب إلى أمريكا ويترك أهله هنا أم يبقى، وشيخة هل ستكون في اعتبارات قراره أم لا. "هي التي ستضع نفسها في بؤرة القرار أو ستخرج نفسها منها، فقد تعبتُ من المحاولة" يقول لنفسه وهو يأخذ نفسًا عميقًا ثم يخرجه بقوة محاولاً أن يخرجها معه دون جدوى.

منذ يومين قالت له أخته إنها ترى أن شيخة تحبه وإنها تحاول إرضاءه رغم تظاهرها بالعكس. قالت له:

- هذه الفتاة رائعة، وأنا أحببتها بسرعة وأتمنى أن تكون من نصيبك.
- نحن مجرد أصدقاء.

قالها لها بحزم محاولاً إثناءها عن إكمال حديثها حول هذا الموضوع، لكنها فتحته ثانية حين كان يشترى لها البيتزا من المطعم المجاور للجمعية قائلة:

- هل المانع أنها كويتية وأنت ليبي، لا أعتقد أن فتاة في قوة شخصيتها وتفتحها قد يمنعها ذلك من الارتباط بالرجل الذي تحبه.

حاول أن يغير الموضوع دون جدوى. كانت أخته الوحيدة وقريبة إلى نفسه، وكانت ظروفها تشبه ظروف شيخة في أنها لم تتزوج للآن

رغم نجاحها في حياتها العملية. كان لا يضع حدودًا بينه وبينها كعادة الكثير من أقرانه مع أخواتهم، وبسبب ذلك أكملت قائلة:

- سيصير من الرائع أن تتزوجها وتكون سابقة في عائلتنا وعائلتها، أنت ليبي وهي كويتية، وربما بعد ذلك لو تقدم لي شاب كويتي ستقبل أنت.

ضايقه تلميحها ذلك وهم بنهرها لكنه آثر أن يطلب منها السكوت بهدوء. ضحكت حين طلب منها ذلك ثم قالت إنه رغم ثقافته وتدينه لا يزال يفكر بالعقلية الصحراوية التي ترفض أن تتزوج فتاة ليبية بغير ليبي. فطن هو إلى محاولتها في إرسال رسالة من خلال مزاحها، وهو يعترف بينه وبين نفسه أن فكرة أن تتزوج شقيقته بغير ليبي تثير حفيظته. حاول أن يكون متلطفًا لأقصى درجة وهو يقول:

- لماذا تفترضين ذلك وأنت تعرفين أن هناك ألف سبب يمنعه؟ أنا أدعو الله دومًا أن يرزقك برجل طيب يصونك ويحفظك، وابن بلدك هو خير من يفعل ذلك، ولا داعي لفتح هذا الموضوع ثانية حتى لو مزاحًا.

كان هذا ختام نقاشه معها في تلك المسألة، وحين حاولت أن تفتح معه موضوع شيخة في يوم تال اضطر لإخبارها بالسبب وبأنه صارح شيخة بماضيه وبانتقامه لمقتل زهراء. لامته أخته على ذلك، وقالت إنه لم يكن مضطرًا لإخبارها فمن الصعب أن تتفهم دوافعه وهي لم تعش ظروف الحرب مثلهم، ثم أضافت:

- ومع ذلك أنا أرى أن مقدار حبها لك أقوى من هذه الاعتبارات وأن قلبها سيغلبها في النهاية. يا هشوم يكفي نظرتها لك حين تتحدث، عيونها تطفح حبًا ورب الكعبة.

ابتسم وهو يتذكر كلام شقيقته ثم نظر إلى ساعته فوجد أن موعده قد حان مع رئيس التحرير. رحب الرجل به بطريقة لم يعهدها من قبل، وبدأ الحديث معه بود وسأله عن أخباره ثم قال:

- أنت من أفضل الشبان الذين عملوا تحت إمرتي يا هشام، وقد توقعت كفاءتك من أول مرة رأيتك فيها.

تضرج وجه هشام خجلاً من هذا الإطراء المفاجئ.

- أنا أتمنى بالطبع أن تنتهي قضيتك على خير وأن تبقى معنا هنا، ولكن هل فكرت ماذا ستفعل فيما لو تم الحكم بترحيلك؟

- بعض الأصدقاء وعدني بفرصة للسفر إلى أمريكا.

اتسعت عين أبي مشعل في اهتمام وهو يسأله عن التفاصيل. أخذ هشام يقص عليه تفاصيل ما قاله له الشاب الفلسطيني وعن الوسائل التي يمكن له بها السفر. نقر الرجل بأصابعه على المكتب وهو يفكر ثم قال:

- لكن هذه وعود فضفاضة يا هشام، وأخشى ألا تكون جادة.
- لا يا سيدي، لقد أرسل إلي أوراقًا بالفعل وبدأت في إنهائها.
- وماذا لو لم يحكم بترحيلك؟

- ساعتها سأوقف كل شيء.

مط الرجل شفتيه متعجبًا وسأل هشام لماذا لا يغتنم الفرصة سواء حكم بترحيله أم لا، فالعمل في هذه البلاد مليء بالفرص وسيفتح له آفاقًا جديدة. رد هشام عليه بأنه ساعتها سيفكر ويزن الأمور.

- المهم، سواء بقيت هنا أو سافرت إلى أمريكا فأنا أريدك أن تستمر في العمل معنا. إذا سافرت أمريكا فسنعتبرك مراسلاً لنا هناك فهذه فرصة جيدة.

رد عليه هشام بأن هذه ستكون فرصة جيدة جدًا. قام منصرفًا وهو يشعر بأن السبب الرئيسي الذي جعل الرجل يرسل إليه هو عرضه الأخير. أحس أن الرجل كان يعرف أنه يفكر في السفر لأمريكا قبل أن يقابله وقد أرسل إليه بالأساس ليعرض عليه أن يكون مراسلاً لجريدته. ابتسم وهو يقول لنفسه "إنها شيخة، دومًا تفكر في ما يمكن أن تفعله لأجلي".

بعد أن خرج من المكتب سألها بصوت هامس إن كانت أخبرته عن موضوع السفر إلى أمريكا، فارتبكت واحمر وجهها خجلاً وسألته:

- هل قال لك ذلك؟

- لا لم يقل، لكنني خمنت.

قالها وجال بخاطره للمرة الأولى أن خدها المضرج بتلك الحمرة الخلابة يستحق أن يطبع عليه قبلة امتنان. الخاطر أربكه فاستأذن للمضي إلى مكتبه

بسرعة وهو يستغفر الله من هذا التفكير رغم إحساسه ببراءة مشاعره. جلس على مكتبه وقد جاشت مشاعره وملأ قلبه إحساس بالراحة والفرح لوجودها في حياته سرعان ما بدده تذكره أنه سيمضي عنها قريبًا.

في الليل كان على موعد مع حسن. كان في جعبته الكثير ليقوله لهشام، ولم يكن قد حكى له بعد على اقتراح إياد اللبناني أو ما حدث له مع الفتاة على القارب وتراجعه عن الاقتراب منها. لم يقص على أحد الاقتراح بالسفر إلى مسقط والتدرب على التسويق، إلا جانيس التي فرحت جدًا بهذا الاقتراح وشجعته عليه واعتبرت أن هذا حل معقول قد يبقيهما قريبين. قد يبحث لها عن عمل مناسب هناك وتلحق به أو يتقابلان في بلد ثالث من آن لآخر.

رأت أيضًا أنها قد تكون خطوة كبيرة في حياته، وقد يستطيع إثبات ذاته فعلاً وتحقيق أحلام لم تكن تخطر بباله، ومن يدري ربما يصير مديرًا في شركة كبرى. حين قالت له ذلك ضحك ساخرًا وقال إنها تحبه وترى فيه أشياء غير موجودة وقدرات لا يمتلكها.

- هي محقة يا حسن، صدقني أنت لا تعرف قدراتك الحقيقية. أقول لك شيئًا لم أعترف لك به من قبل؟

أومأ حسن بالإيجاب فأردف:

- هناك رجل مصري شهير لا أذكر إن كان مخرجًا أو كاتبًا، كان دومًا يصدعنا بأن المصريين لديهم جينات مبدعة تعود إلى سبعة آلاف سنة، ويمضي يتكلم في شوفينية تثير الغيظ.

- وما علاقة ذلك بي؟

- في كل شعب هناك قليلون يمتلكون تلك الجينات فعلاً وليس المصريين فحسب. المشكلة أن أغلب أصحاب تلك الجينات في بلادنا السعيدة يتيهون في زحام الفساد والاستبداد.

قالها ثم وضع يده عل كتف حسن وقال بلهجة مسرحية إن حسن من هؤلاء.

- حسبتك ستقول أنت من الأحرار يا علي.

ضحك هشام على قوله وهو يؤكد أنه لا يمزح، وأن حسن ينقصه القليل من الجدية والتخطيط وسيصبح حاله أفضل، وربما جاءت هذه الأزمة لتضعه في مواجهة قدراته.

- قدر الله لا يأتي إلا بالخير.

- كف عن هذا الهراء، قدر الله يأتي بالخير والشر، فأنا لا أعرف ما الخير في موت الآلاف في بلداننا من الحروب العبثية وموت ملايين آخرين من المجاعات والأوبئة.

تمتم هشام باستغفاره وحاول أن يفهم حسن أن الكلمة التي تخرج من فمه قد تهوي به في النار سبعين خريفًا. لم يجادله حسن وقص عليه ما حدث مع فتاة القارب. قال إنه حتى الآن لا يجد تفسيرًا لما حدث ولماذا تراجع عن تلك الفتاة، ولم يقتنع للآن أن السبب أنه يحب جانيس، فقد أحب نهلة قبلها وفي مصر مر بقصتي حب حقيقيتين لم يمتنع في أثناء أي منهما عن الدخول في بعض النزوات.

- تزوجها يا حسن.
- ماذا، هل جننت يا مولانا؟
- لقد أرسل إليك الله امرأة أثنتك لأول مرة في حياتك عن النظر إلى غيرها. تزوجها وعش معها بالحلال فقد تكون هي حصنك من الخطيئة، من العنت يا حسن.
- عنت؟
- نعم العنت هو وصف الله للزنا، فهو سبب مرض قلبك، وقد شاء الله أن جعل وقايتك منه على يد امرأة غير مسلمة.
- أف للواعظ الذي بداخلك هذا.

رد هشام بأنه يحدثه كصديق لا كواعظ. حتى لو نظرنا للأمر بمنظور المشاعر فقط فهذا أدعى أن يتزوجها، فهي المرأة الوحيدة التي روضت جموحه ولجمت شهوته. أليس من الأفضل أن يتزوج تلك المرأة بدلاً من أن يرتبط بأخرى ويخونها من الحين للآخر.

لم يعجب حسن هذا المنطق أيضًا، فالزواج بجانيس ليس مطروحا على الطاولة الآن. إنه في مفترق طرق، مهدد بالطرد ويفكر في بدء عمل جديد وسيظل عامًا كاملاً لا يكسب قرشًا إذا وافق على اقتراح اللبناني. هل هناك عاقل يقول له إنه يجب عليه التفكير في الزواج الآن. قام من كرسيه مستعدًا للمشي وهو يقول:

- دعنا من التفكير في المستقبل، سننتظر الحكم أولاً ثم ساعتها يكون لكل حادث حديث.

- تزوجها يا حسن حتى لو حكم عليك بالترحيل، صدقني هذه فرصة عمرك.

نظر إليه مليًا وخالجه شعور في هذه اللحظة بأن هشام يطلب منه أن يتزوج جانيس ليعالج أمام نفسه خيبته في الارتباط بشيخة، ليحقق نموذجًا كان يحلم بتحقيقه وفشل.

٤٢

الساعة الثالثة ظهرًا والمطعم الأمريكي الشهير الذي يطل على هلال المارينا الخلاب كان يجلس فيه عدد محدود من الزبائن. وصلته جانيس منذ عشر دقائق وجلست تنتظر حسن والقلق يعصف بها، فلا تكاد تلتقط نفسًا إلا ويزاحمه النفس التالي.

اليوم موعد النطق بالحكم، وقد كلمها حسن وأخبرها أن الحكم سيتأخر فدور قضيتهم سيحين في الواحدة والنصف تقريبًا. طلبته الساعة الثانية، رد عليها في المرة الأولى قائلاً لها إن الحكم لم يصدر بعد، وطالبًا منها أن تنتظره في هذا المطعم وسيأتي إليها وألا تطلبه ثانية لأن هاتفه سيفرغ شحنه حالاً.

حسن لديه هذه القدرة الغريبة على إسعادها في الوقت نفسه الذي يضعها فيه أحيانًا في قمة توترها. ها هي الآن منتظرة لا تعرف ما حل به ولا تعرف ما سيحدث غدًا وتقول لنفسها إنها أخطأت إذ لم تحتفظ برقم هشام صديقه. وعدها حسن أنه لن يتخلى عنها مهما حدث. لو حكموا بترحيله فسيذهب للعمل في مسقط وسيظل معها، وسيرتب أن

يتقابلا كل شهرين أو ثلاثة في دبي القريبة من البلدين، وسيحاول جادًا أن يجد لها عملاً في مسقط أيضًا.

كلام جميل وهي تعرف أنه صادق فيه، لكن البعد سيولد ظروفًا جديدة ومن يدري هل سيظل مخلصًا لها أم لا. نظرت إلى هاتفها ثانية في قلق وحاولت أن تطلبه ثانية لكن هاتفه كان مغلقًا. "سيارته بها شاحن لماذا لا يضع الهاتف عليه".

توقفت الموسيقى الهادئة التي كانت تصدح في المكان وبدأت موسيقى أخرى تميزها. كانت أغنية من الفلبين رقيقة ورومانسية، أغنية مشهورة كثيرًا ما تستخدم مرسالاً بين المحبين. قالت في بالها إن أغلب الفتيات والشبان بهذا المطعم من الفلبين وربما أراد أحدهم أن يغازل زميلته بتلك الأغنية.

لم تمر دقيقة إلا ووجدت حسن داخلاً من باب المحل ووجهه خال من التعابير. كان يبدو عليه الإجهاد وأنه لم يذق طعم النوم بالأمس، وكانت هيئته بشكل عام لا توحي بالخير. جلس أمامها وسألته بلهفة عن الحكم لكنه بدلاً من أن يجيبها بدأ يردد كلمات الأغنية التي لا تزال تصدح في الأجواء. كان يقولها بلغتها، بالتاجالو، ما جعلها تنظر إليه في دهشة ودون استيعاب لأي شيء، هل حكموا بترحيله وأفقده ذلك عقله أم ماذا؟

- أجب سؤالي وإلا انصرفت الآن. ماذا حدث بالمحكمة؟

قالتها له بحدة ونفاد صبر والعبرة تخنقها فهمس لها:

- ليس قبل أن تجيبي سؤالي أولاً.

- أي سؤال؟

- انظري إلى الشاشة على يمينك.

نظرت إلى الشاشة ووجدت مكتوبا عليها "تزوجيني" بالتاجالو، فعقدت حاجبيها غير مستوعبة ونظرت إليه دون أن تنطق فكررها باللغة نفسها ثانية.

- تزوجيني.

- هل تسخر مني يا حسن، أنا أسألك عن حكم المحكمة وأنت تسألني عن الزواج. أنت... أنت...

لم تكمل وغلبتها دموعها. فوجئت بعيون كثيرة تتطلع إليها في ترقب. "هذا حلم بالتأكيد وحلم سخيف أيضًا، هو سيختفي من حياتي وعقلي يأبى ذلك فلهذا أهلوس". وكأن حسن أحس بها فكرر كلامه ثانية بلغتها ثم بالإنجليزية، ثم فتح علبة صغيرة بها خاتم وهو يكرر طلبه ثانية. نزلت دموعها وهي تقول له:

- إذن سترحل يا حسن.

- أجيبي سؤالي أولاً وسأقول لك هل سأرحل أم سأبقى. في كلتا الحالتين أنت ملكي وأنا أريد أن أتأكد من ملكيتي لك بهذا الخاتم.

- أنت ملكتني بالفعل وليس الخاتم هو ما سيثبت ذلك، أرجوك قل لي ماذا قال القاضي.

لم يجبها وكرر طلبه ثانية في إلحاح، فأومأت برأسها موافقة دون أن ترد. أمسك يدها وألبسها الخاتم وتبع ذلك تصفيق من العاملين بالمحل الذين التفوا حولهما وغنوا أغنية قصيرة ثم انفضوا.

- الحمد لله حكم القاضي علينا بالغرامة فقط، وقال إنه نظر إلى قضيتنا بعين الرأفة وإن حالتنا تستدعي ذلك، وإن سجلنا جميعًا نظيف وسلوكنا في إقامتنا هنا مثالي.

كادت أن تقوم من مكانها وتقبله، لكن المكان لم يكن مناسبًا فاكتفت أن مدت يدها واعتصرت وجهه بقوة كعادتها. نظرت إلى خاتمه في يدها وقلبها يتقافز بين ضلوعها، وتدحرجت دموع صامتة على خدها حتى وصلت لشفتيها المبتسمتين فمسحها بأنامله. نظرت إليه وأمسكت وجهه بقوة ثانية فقال لها ضاحكًا:

- يبدو لي أنني سأهجرك حفاظًا على وجهي. كفي عن هذه الحركة يا مجنونة.
- أنا المجنونة؟ أخبرني كيف استطعت إقناعهم هنا بمساعدتك في لعبتك تلك.
- هذا المطعم يقومون فيه بهذه الأشياء في طلب الزواج وأعياد الميلاد، وكله بثمنه.
- وكم دفعت؟
- خمسة دنانير، ولو طلبوا ستة لتقدمت لك في شقتنا. ما زال علي أن أدفع ثمن الغداء.

ضحكت على صراحته وسألته منذ متى وهو يعرف بالحكم، فأجابها أنه منذ العاشرة صباحًا، وأنه قضى الوقت من ساعتها للآن يجهز في طلب الزواج هذا. بقدر ما أغاظها أنه تركها كل هذا الوقت قلقة ومرعوبة عليه بقدر ما أسعدها كل هذا الحرص على أن يطلب يدها في جو أشبه بما تراه في الأفلام.

- هناك شيء أخير يا جانيس أحب أن أقوله، نحن سنتزوج لكنني أدرك أن زواجنا سيكون بداية لمرحلة جديدة وعقبات أخرى. نحن لن نعيش في تبات ونبات ومن المؤكد أنه سيمر علينا أيام عصيبة وخلافات. أريدك دومًا أن تتذكري في أثنائها أنك حب عمري.

- أعرف ذلك ومستعدة له.

بعد يومين كانا على موعد مع حفل رتبه أصدقاؤهما من الجانبين. خالد استأجر المكان وهو قاعة صغيرة للحفلات، وقد جمع التكلفة من الأحباب. روز رتبت مع صديقتين لها عضوتين في فرقة موسيقية لإحياء الحفل مقابل مبلغ بسيط.

هشام طلب من شيخة أن تحضر هذا الحفل حين قابلها في اليوم السابق لتحتفل معه بالحكم في قضيته. ظلا معًا لساعات يتحدثان ويضحكان وكأنهما يعيشان قصة حب لا تشوبها شائبة. أو كأنهما صديقان مقربان للغاية. لا يزالان يفتشان عن شكل لعلاقتهما بعد كل هذا الوقت وبعد كل تلك المصاعب. لم تحسم أمرها وهو لا يحاول أن يفرض نفسه أكثر.

قبلت شيخة حضور الحفل، وطلبت من هشام أن يحضر شقيقته حتى لا تكون وحدها إذا انشغل هشام مع صديقه. كانت بعد معرفتها بالحكم فرحة منتشية وكأنها تأكدت من أن حبيبها لن يفارقها، وظل هذا الإحساس معها طيلة اليوم وفي المساء داهمتها هواجسها ثانية. وحين خرجت مع هشام نسيت كل شيء واستمتعت بصحبته وكأنها تنتقم من الأيام السابقة حين كان لقاؤهما يدور في فلك ترقبهما لما سيسفر عنه الحكم.

الآن حتى لو قرر هشام أن يعمل في أمريكا سيكون حرًا في التردد على الكويت وقتما شاء، وخاصة في وجود أمه وشقيقته فيها. ستحاول في أيامها القادمة أن تجد السلام النفسي الكافي لتأخذ قرارها وتحدد هل ستقطع علاقتها به أم ستترك قلبها يقودها.

طلبت من هشام أن تصحب هي أخته للحفل بسيارتها وأن يأتي هو مع أصدقائه. وصلت إلى قاعة الحفل قبله بقليل وجلست هي وشقيقة هشام في ركن قصي بعد أن ذهبتا وسلمتا على حسن وجانيس. دون أن تدري وجدت نفسها تقارن قصتها بقصة جانيس الفلبينية الفقيرة التي وجدت الحب صافيًا رائقًا، وتجاوزت عن كل الآلام التي سببها لها حسن لأنها عرفت في النهاية أنه يحبها وأنه اختارها حب حياته.

ها هي جانيس أمامها تكاد السعادة تطفح من وجهها بل تتساقط من أصابعها وكأن الدنيا خلت إلا منها هي وحسن. من يريد أن يذوق

طعم السعادة فعليه أن يختار ألا يشغل قلبه بأي من همومه في لحظات فرحته.

"ليست السعادة في الحب فقط، ولا في رجل تجد الواحدة فيه كل ما تحلم به" تقول لنفسها ذلك دومًا وتحاول أن تقنع قلبها بذلك بعد خطبتين فاشلتين وعلاقة حب أكثر تعقيدًا من قصص الحب المأساوية الشهيرة. قطع حبل أفكارها وصول هشام وجلوسه معهما على الطاولة وهو يقول:

- أخيرًا حسن هداه الله.

فردت شقيقته بابتسامة ماكرة:

- أدعو الله أن يهدي أصدقاءه أيضًا.

ارتبكت شيخة من التلميح الواضح في ردها فحاولت أن تغير الموضوع سائلة هشام عن قراره بالسفر إلى أمريكا من عدمه، وهي تشرح له أن أبا مشعل متحمس لتلك الخطوة.

- ما زلت أفكر.

- أنت وحسن صديقك تذكرانني بأبطال رواية رجال في الشمس لغسان كنفاني، حين خافوا من المخاطرة وفضلوا الموت مختنقين داخل خزان المياه بدلاً من أن يحاولوا الخروج.

- تشبيهك خاطئ للغاية، فقد خاطرنا وشاركنا في ثورات بلادنا وواجهنا الموت وأصبنا وفشلنا في النهاية، ولكن اليوم المخاطرة قد

لا تستحق، فكلانا يمكنه أن يستمر في حياته هنا رغم تعقيداتها وضعف طموحها.

- حسنًا، هذا مستقبلك وأنت حر.

قالتها وعلى وجهها عبوس زادها حلاوة في عينيه، فطلب منها أن تدع كل شيء لحينه فاليوم هم هنا للاحتفال. قام من جوارهما ووقف إلى جوار عبد العزيز الذي أخبره بأن طائرته إلى تركيا ستكون بعد أقل من أسبوع، وأنه جعل أباه يستدين ليسدد الغرامة لأن كل ما معه أنفقه على ترتيبات السفر، إضافة إلى مقدم دفعات مالية للمهربين لحجز أماكن على القوارب التي ستنقلهم.

انقبض قلب هشام حين سمع كلمة قوارب التي ارتبطت في أذهان الناس بالموت، لكنه لم يشأ أن يتكلم ثانية فالرجل قد حزم أمره ومستعد للموت في سبيل الهجرة. تناهى إلى مسامعه صوت علاء وهو يقول:

- حسن يتزوج مثل الكفار، يعاشر المرأة عامًا كاملاً ثم يخطبها وهو لا يزال يعاشرها ثم يتزوجها، أخشى أن تكون حاملاً يوم الفرح.

هم هشام بالرد عليه لكن خالد قال في غضب:

- لولا أنني أعرفك منذ الصغر لقلت إنك ابن حرام، كيف تقول هذا على صاحبك وابن بلدك، ثم إن تلك المرأة ستكون زوجته والمعابة فيها يسيل لها الدم.

- وهل أقول غير الحقيقة؟

تدخل هنا هشام قائلاً إن حسن هداه الله واتخذ طريق الحلال في النهاية، وخطيبته الآن لم تكن تفعل شيئًا خطأ في عرف بلدها. قاطعه خالد قائلاً:

- أقسم بالله يا علاء لو سمعتك تقول مثل هذا الكلام ثانية فسوف أكتفك وأضعك في جوال وأرميك في البحر ونستريح منك.

امتقع وجه علاء وانصرف مبتعدًا عنهما فقال خالد:

- ليست هذه أخلاقه، لا أعرف ماذا حدث له.

- ربما خاب أمله لأن حسن سيستمر في شراكته.

مط خالد شفتيه ولم يرد. تركه هشام وذهب ليجلس مع حسن وجانيس على طاولتهما قليلاً. استقبلته جانيس بحفاوة بالغة وقالت إنها تشعر بأن لها أخًا في هذا البلد وهو هشام، فأمن على كلامها وقال لها إن حسن لو ضايقها في أي يوم فليس عليها سوى أن تتصل به فقط فرد حسن:

- وإذا ضايقتني هي ماذا أفعل؟

- لن أضايقك أبدًا يا حسن، وسأعتذر على الفور إن فعلت أي شيء يغضبك.

ابتسم حسن وضحك هشام وهو يقول له:

- تعلمت منك فن إسكات الناس بالكلام المعسول.

قالها ثم رمى عينيه تجاه شيخة فوجدها واقفة تتأمله من بعيد وكأنه لا أحد في القاعة غيرهما. نظر إليها وتأمل إطلالتها التي تشع بهاءً، وجمال تقاسيمها الذي يملأ عينيه فرحة. واستغرقه تأملها حتى أفاق على ابتسامة من حياء ملأت وجهها وإشارة خجلى بيديها تحمل ألف معنى.

الكتب خان للنشر والتوزيع®

١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.

تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+

بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com

موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com

في روايته "ربيع الشتات"، يقتفي الكاتب سراج منير أثر عدد من الشباب العربي المغترب في الخليج، بعد أن تحطمت أحلامهم في التغيير والمستقبل الأفضل بهزيمة الربيع العربي في بلادهم. هشام الشاب الليبي الذي فقد زوجته في إحدى الغارات على بنغازي، وحسن الشاب المصري الذي يهرب من البطالة بسبب الأوضاع الإقتصادية الصعبة بعد الثورة، وغيرهم الكثير من الشخصيات القادمة من قلب الواقع العربي الآن. يلتقون خارج أوطانهم، في اغترابهم للبحث عن الخلاص، ليكتشفوا أن المصير واحد في النهاية.

رواية شديدة السلاسة والواقعية عن الأحلام والآمال المُجهضة، وكذلك عن محاولات أصحابها لتجاوز هزائمهم الشخصية التي سببتها السنوات الصعبة.

*

سراج منير: روائي وجرّاح مصري، أصدر روايته الأولى "سبعة زيرو" عام ٢٠١٥، ولاقت نجاحًا كبيرًا لدى القراء. "ربيع الشتات" هي ثاني رواياته المنشورة.

ISBN 978-977-803-047-1